نسطور ماتساس

مذكّرات الإسكندر الكبير



نقله إلى العربية مع إضافة هوامش

الطاهر قيقة



الشركة التونسية للتوزيع

نسطور ماتساس

مذكّرات الإسكندر الكبير

عن مخطوط بابل

نقله إلى العربية مع اضافة هوامش
الطاهر قيقة

الشركة التونسية للتوزيع

نسطورماتساس - تعريب ڤيقة (الطاهر)
مذكرات الاسكندر الكبير / نسطورماتساس ـ تعريب الطاهر
ڤيقة ـ الطبعة الاولى ـ تونس: الشركة التونسية للتوزيع،
1989، تونس: (مطبعة الشركة التونسية للتوزيع باب سعدون)
176 ص، 24 سم.

ISBN 9973 _ 11 _ 156 _ 7 (مسفر)

تنبيه لمترجم النصّ

شهد هذا العصر نشأة أدب « مذكّرات » عظماء الزمن الماضي. ومن أشهر الآثار الأدبيّة المعاصرة « مذكّرات هادريان » التى نشرتها الكاتبة الفرنسية مارقريت يورسينار التي أحرزت منذ سنوات قليلة على جائزة نوبل العالمية للآداب وانتخبت عضوة في الأكاديمية الفرنسية.

أعجبت يورسينار بشخصية ذلك الامبراطور الروماني ذي الثقافة اليونانية الذي عاش في القرن الثاني الميلادي. فحاولت أن تتقمّص تلك الشخصية الفذّة التي استهوتها للكشف عن خفايا نفس هادريان وإبراز حيرته أمام الوجود وإثارة تساؤلاته أمام سير الأحداث في صيغة مناجاة باطنية. وذلك بالقيام بعمل إبداعي هو من صنع وجدانها وخيالها يقتبس سداه من التاريخ الموضوعي وينسج لحمته ويوشحه بخلجات النفس ورؤى الضمير.

وتناول مؤلف هذه « المذكّرا ت» وهو الكاتب اليوناني المعاصر نسطور ماتساس شخصية الاسكندر الكبير ملك مقدونيا وصاحب الفتوحات الشهيرة وحاول أن يتصوّر كيف يمكن لذلك الفاتح العظيم ذي الشخصية العنيفة المتمرّدة والتائهة الحائرة في نفس الوقت أن يحدّد موقعه بين سائر البشر ويستكشف مصيره وهو مدفوع بقوى خارقة تتجاوز قدراته ومتفاعل مع الاحداث الجسام التي يسيّرها فتسيّره. فاختار لهذا اللون من الابداع الادبّي أسلوب «المذكّرات». وتخيّل أن الاسكندر ربما دفع في يوم من الايام وفي أشدّ حالات المرض والحيرة الى كتابة مذكرات شخصية قد يعود اليها وحده وهي في جميع الحالات غير معدّة لأن يطّلع عليها غيره. وادّعى نسطور ماتساس أنّه عثر أثناء زيارته لاطلال مدينة بابل على مخطوط للاسكندر أهداه اياه حارس المدينة. ولا شكّ أن هذا المخطوط لم يوجد

ولم يستلمه الكاتب ولكنّ ادعاءه هذا ضرب من التشويق تنميّه تعليقاته على المخطوط وذكره للمدن القديمة والمواقع التي زارها في آسيا من أدناها الى أقصاها وهو يسير على خطى الاسكندر متثبتا في الاماكن التي مرّ بها الفاتح.

وقد رأيت من المفيد أن أضيف هوامش الى النّص المنقول الى العربية للتعريف بالمدن والاقاليم التي كانت مسرحا للاحداث وقد فقد بعضها أسماءها القديمة ولتقديم الاعلام الذين قاموا بدور معيّن في سيرة الاسكندر أو كان لهم أثر عميق في تحديد مصيره الشخصي أو في تكوين الدوافع التي مهّدت لغزاته. وقد حاولت ما استطعت الاقتراب من التسمية اليونانية القديمة عند اثبات الاسماء باستثناء التسميات التي كثر تداولها بصيغتها العربية مثل الاسكندر ومقدونيا وطراقيا وصور وصيدا ودمشق.

وآمل أن تؤدّي هذه الهوامش التي تهدف الى تحديد الاطار الجغرافي والتاريخي والحضاري دورها لافادة القارىء العربي. وبالله التوفيق.

الطاهر قيقة

نتف من حوار مع رهبان هنود بمدينة بيناريس (1)

الكلمة التي كان ينبغي أن نسمعها
لم تسمع
والنّور الذي كان متوقّعا أن يضيئنا
لم يضيء
كل شيء حدث في السكون
والظلمة
ولكن في جوف السكون
تكمن الكلمة — البذرة
وفي قلب هذه الظلمة
يسطع النّور المنير
ما هي الحقيقة ؟ أين تكمن الحقيقة ؟
ما هو الزمن الذي عشناه ؟
وما هو الزمن الذي نسير اليه ؟
ان الحكمة الغالية تختفي
في جوف الارض
مثل الحقيقة الحاسمة.
ولن نكتشفها.
فالمهمّ
هو البحث عنها.

بيناريس أغسطس 1976

معزوفة الاسكندر [2] على المقام الكبير بقلم مترجمه أرّيان [3] النيكوميدي

توفّي الاسكندر في الحقبة الرباعية الاولمبية الرابعة عشر فوق المائة [4] في السنة التي تولّى فيها هيقسيوس [5] زمام الحكم في أثينا. وكان عمر الاسكندر اثنتين وثلاثين سنة و«منح ــ حسب قول ارسطوبولوس [6] ثمانية أشهر في السنة الثالثة والثلاثين من عمره. وانتصب على العرش مدّة اثنتي عشرة سنة.

وكان رائع الحسن عظيم النّشاط ذا ورع شديد وشجاعة نادرة. وكان ترفّعه عن المتعة الجنسية بقدر تعطّشه الدائم الى اللذّات الروحية. وكانت له ملكة لا يضاهيه فيها أحد وهي القدرة على تمييز العمل الصائب من بين الاعمال الممكنة حتّى عندما تعجز حاشيته عن التمييز.

وفي الساعة الحاسمة التي يحل فيها الخطر كان يستطيع بفضل اقدامه أن يقوّي عزائم جنوده ويرفع معنوياتهم ويزرع في نفوسهم الامل. وكان يخطّط لاعماله في صمت وبجسارة فائقة فيبعث الرعب في قلوب أعدائه عندما يشنّ عليهم هجومات مفاجئة ولم يترك لهم مجالا لتوقّع هجومه. وكان أيضا واثقا بقوّته وحصافة رأيه أشدّ الوثوق فلم يمكّن أيّا كان من مغالطته. وكان مقتّرا على نفسه في لهوه ومرحه. ولكن كان يعرف كيف يبرز مروءته باسعاف من هم في حاجة الى النّجدة.

كثيرا ما تعرضت في كتابي لبعض أعماله بالنقد الشديد ولكنّ ذلك لم ينقص من الاعجاب الذي أكنّه للاسكندر.

مقتطف من الكتاب السابع لأرّيان

باب يبيّن فيه الكاتب كيف حاك هذه الحكاية وصاغها

كتبت هذا الكتاب لمتعتي الشخصية ولهوى في نفسي. وان جميع ما يؤلّف المؤلّفون صادر عن نفس الوازع وهو وازع المتعة التي يرجوها الكاتب من تأليف الكتاب. ومع ذلك تبرز — في بعض الحالات ان لم تكن في جميعها — نيّة خفية تهدف الى جلب عناية قرّاء الكتاب واهتمام النّقاد والمختّصين — سواء أكانوا أكفاء أم لا — وتعتمد تصوّرا مسبقا لما قد تصدره الأجيال القادمة من أحكام مؤيّدة للكاتب أو مفنّدة له. فالغالب على ذهن الكاتب اذا كتب ومرجعه الاساسي ما يتوقّعه من ردود فعل الاجيال القادمة فيتحوّل تأليفه الى عمل فيه ارهاص وقهر لانّه يتساءل دائما عن معاملة تلك الأجيال لكتابه وهل يسمح رجال الغد لبعض صفحاته أن تبقى محل اهتمامهم.

انّي أخاطبكم بصدق وبوضوح لم يحملني على التفكير في وضع هذا الكتاب ثم تحريره أي دافع من تلك الدوافع بل كنت مصرّا على تأليفه لانه صادف هوى في نفسي وكان يعود بي الى حدث مثير من أحداث طفولتي هزّ مشاعري.

كان عمري ستّ سنوات واذا بأبي يكشف لي عن شخصية الاسكندر العظيم وهو يعلّق على رسوم ثيوفيلوس (7) التي أرانيها بجبل بيليون (8). فأضفت تعليقاته على صورة الاسكندر بعدا أسطوريا. كنت أتصوّره سبعا وإلها في نفس الوقت وبنفس القدر لانّه لم يكن يخيفه أي شيء ولأنّه كان قادرا بمحض قوته على القيام بأعمال جليلة حتى بخوارق البطولات.

وإنّ ذلك الشعور الذي سرعان ما تحوّل في نفسي الى خشوع أمام شخصيّة عظيمة أجهل أغوارها قد صاحبني الى سنّ المراهقة وبالضبط الى اليوم الذي

اكتشفت فيه أثناء زيارة قسطنطينية [9] «الاسكندر الآخر» في صورة تمثال نصفي للاسكندر معروض في المتحف الاثري للمدينة يعود نحته الى القرن الثاني قبل الميلاد.

ذلك التمثال على غرار الرسوم التي شاهدتها مع أبي يبرز فرط جمال الاسكندر. وقد صوّره بشعره الكثيف المجعّد وعنقه المستوي الذي يعلوه رأس رائع الحسن ومائل دائما الى اليسار. ولكن رغم السكون الذي كان يوحي به المرمر الذي نحت فيه التمثال فانّ نظرته تكشف عن حيرة عميقة أو بالاحرى عن جزع دفين. وانّ جبينه الذي خطّ فيه غضنان عميقان يوحي بألم دفين تبدو ملامحه في قسمات وجهه. أضف الى ذلك أن حاجبيه يشعران بتقطّب خفيّ يؤكّد الانقباض الذي كان يبدو على وجهه ذلك الانقباض الذي طغى عليه منذ عهد بعيد لاسباب فائقة الخطورة.

ما كنت أعلم أن هذه الرؤية للتمثال المرمري الذي يمثّل الاسكندر العظيم كانت رؤية خاصة بي أم هل أن الفنّان الذي نحت تلك الصورة قد كان يريد ايحاء تلك المشاعر.

وعلى كلّ فرؤيتي لم تتغيّر على مرّ السنين. وتأكّدت من ذلك بعد عشرين سنة عندما كنت بصدد اعداد شريط سينمائي وثائقي وسلكلت عمدا طريق فتوحات الاسكندر وزرت من جديد متحف القسطنطينية وسمعت مرّة أخرى شكواه واسترعى انتباهي جبينه الذي خطّ فيه غضنان عميقان ووجهه الذي تعلوه الحيرة.

واقتفيت خطى الاسكندر باصرار تجاوز ارادتي وقواي وطفت في أقطار عديدة بحثا عن آثار تنير لي حياته واستطعت بلوغ قرى في آسيا لا يصل اليها المسافر الا بعد عناء شديد لامتناعها ووعورة المسالك المؤدية اليها. فأيقنت اني أقترب شيئا فشيئا من « الاسكندر الآخر » الذي سكنت صورته وجداني وزدت يقينا بذلك على مرّ الأيام.

قد يكون هذا الشعور وليد الخيال وفاقدا لكل أساس علمي ولكن لا يهمني حكم النّاس له أو عليه مادام يشبع نفسي ويرضيها.

ان الكتب العديدة التي كتبها مؤرخون وأشباه المؤرخين عن الاسكندر العظيم والتي طالعتها أثناء تلك المسيرة الفردية المتواضعة التي قمت بها للعثور على الشخصية الحقيقية للاسكندر ما أفادتني الا قليلا أو ما استفدت بها قط. أو بالاحرى كانت الكتب التاريخية تساعدني على تحديد الأمكنة وتثبيت تواريخ الأحداث بصورة سطحية (ولو أني أعتقد أن هذا الموضوع لم تتناوله كتب تاريخية بأتمّ معنى الكلمة).

لقد استرعى اهتمامي — من بين كتّاب سيرته — أرّيان وربّما يعود سبب اهتمامي بهذا المؤرخ دون غيره الى أنّه حاول أن يقوم بتحليل نفسي للاسكندر العظيم متجاوزا الدراسة التاريخية الصرف.

لقد ولد هذا المؤرّخ بنيكوميديا وتعلّم بمدينة أثينا في عهد انحطاطها الثقافي والفنّي. وكان طالبا نجيبا ثم سافر كثيرا وزار الاماكن التي مازالت تحتفظ لقرب العهد بالاحداث بروايات مازالت حيّة نابضة لاسطورة المقدوني القلق. ولكن الأهمّ — في نظري — هو أن أرّيان بحث عن الاسكندر لا بالطريقة الموضوعية المجرّدة من كل عاطفة التي يتوخّاها الباحث عندما يقوم بدراسة تأريخية ولكن بحث عنه انطلاقا من خلجات نفسية شبيهة بتلك التي تختلج في نفس الحاجّ عندما يغمره الخشوع ويسمو به عمق الايمان.

لا شك أن أرّيان يصدر أحكاما قاسية وقاسية جدا عندما يتناول بعض أعمال الاسكندر الكبير وبعض ردود الفعل التي يواجه بها الاحداث أو يسلّطها على العباد ولكنّ تلك القسوة في أحكامه تختفي في بعض الفقرات الاساسية من كتابه ليحلّ مكانها التعبير الصريح عن اعجابه العميق بالرجل. ويتجلّى ذلك في ملاحظات كهذه :

« لم يكن الاسكندر العظيم مدفوعا بأيّ وازع حقير أو تافه بل انّه ما كان ليقنع بكل الاقطار التي احتلّها... ».

أو

« لو لم يجد أحدا يتبارى معه لتبارى مع نفسه... »

أو

« لم تكن أيّة أمة في ذلك الزمان ولا أيّة دولة تجهل اسم الاسكندر العظيم ولا أيّ انسان أيضا ».

أو

« ولو أنّه حدث لي أنّي انتقدت بعض أعمال الاسكندر فانّي أعترف بدون أي تردّد أني معجب به...».

وانّ تعلّقي بتأليف أريان الذي سمّاه «غزاة الاسكندر» فبدا للمطّلع عليه لا من عنوانه فحسب بل من أسلوبه أيضا صدًى لسيرة بديعة كتبها قبله كسينوفون (10) عن الملك كورس (11) وعنونها «غزاة كورس» لا يعلّله اعتماد المؤلف مقاييس تاريخية دقيقة وإنما أنا مغرم بذلك الكتاب الجميل الذي ألّفه أرّيان بسبب ما يحويه من دفء انساني.

لقد برهن صاحب الكتاب عندما كان واليا على اقليم كبّدوكيا (12) عن كفاءته العالية في تحمّل مسؤوليتيه المدنية والعسكرية معا وكان في الاساس من أتباع الفيلسوف ابيكتيتوس (13) وخصّص له كتابا عنوانه : « أحاديث مع ابيكتيتوس» يطفح بالحبّ والاعجاب.

فقد توفّرت عند أريّان الشروط الاساسية وخاصة منها الشروط العاطفية «لفهم» شخصية الاسكندر الفهم الصحيح. ومعنى ذلك أنّه لم يقتصر على التعرّف على شخصية البطل الذي لعب دوره في التأريخ بل تجاوز ذلك الحدّ للتعرّف على الرجل الفرد الذي «كانت تلتهم نفسه رغبة ملتهبة» (1) وعارمة لالتقاط الاخبار ونيل المعرفة واخضاع الشعوب لقوّته ونزوات ضعفه وتسخير الافكار والاصقاع والعباد والشهوات والخصال الحميدة والخير والشرّ لارادته. لا يفرق بين جميعها بل كانت تبدو له مجمّعة رغم تنافرها في كتلة واحدة لا يكسرها كاسر لانّ جوهرها واحد.

(1) استعمل أرّيان هذه العبارة في كثير من الفقرات وفي مناسبات مختلفة.

ذلك هو سبب تعلّقي بأرّيان. وذلك التعلّق به كان لي سندا عندما عزمت على كتابة «غزاة الاسكندر» كما أتخيّلها.

كثيرا ما سمعت صوته في المدن البعيدة التي واجهت المخاطر لزيارتها. وهو يقصّ عليّ بطولات من استطاع أحسن من أيّ امرىء قبله أو بعده أن يصبح «سيّد جميع البرور وجميع البحار».

ولكن حانت ساعة نسيان المطالعات والرحلات وساعة مفارقة كاتب السيرة النبيل الذي يرجع منبته الى اقليم نيكوميديا ذلك الرجل الذي حظي في حياته برعاية الامبراطور هادريان (14) الذي كان يكنّ له ــ كما أعتقد ــ تقديرا بالغا حيث أنّه اصطفاه من بين الضباط الآخرين اليونانين والرومان على حدّ سواء الذين يكونون حاشيته فعيّنه واليا على اقليم كبّدوكيا.

عثرنا على وثيقة تقرّب لنا «الاسكندر الآخر» الذي أهمله التأريخ خشية أو جهلا والذي دفن في «مكان مجهول» فلم يعثر على قبره.

بابل (15) في يوم من أيّام الصيف
الحارس تزيلال والمخطوط السرّي

بابل في يوم ثقيل من أيام الصيف. الشمس تحرق الارض العارية. بدأ الزفت يذوب في الطرق التي تخترق الاطلال الحزينة التي تثير في النفس ذكرى الملوك الاولّين الذين حكموا تلك المدينة الميّتة الآن والخاوية على عروشها.

كنت واقفا منهار القوى اذ عثرت على نقيشة تدلّ على أن «حدائق بابل المعلقة» (16) وهي احدى عجائب الدنيا كانت موجودة في المكان الذي انتهيت اليه. لم يبق من تلك الحدائق أي أثر وما كان يظلّ أيّ نبات ذلك الفضاء الرحب الذي لا ينبت شيئا.

وبقيت واجما يغمرني حرّ جهنّمي. واستلقيت على صخرة أثريّة وأنا خائر القوى.

وكان حارس الموقع الاثريّ نائما غير بعيد على أطلال الدرج الملكيّ وقد اضطجع منطويا.

كنت أجتهد لتركيز انطباعاتي وتنظيم الصور التي كانت تزدحم في مخيّلتي ولكن بدون جدوى لانّه عندما يشتدّ الحر في الهجيرة يفقد المرء جميع قوّاه. وكان الاعياء الشديد يغمض جفوني ويجفّف حلقي.

وكنت لا أنقطع عن النّظر من وراء ضبابة متلوّنة تلوّن الماء الى نصّ النقيشة التي تعلن بفخار عن موقع «الحدائق المعلّقة».

ثم اضطجعت منطويا كما فعل الحارس الشيخ واستسلمت الى الفتور الذي ينتاب المرء عند الظهيرة.

كانت الشمس قد غربت منذ حين لما استيقظت وبدأ الظلام يغمر المدينة الميتة. وكان نهر الفرات يسيل من ورائها متباطئا في مجراه.

كنت وحدي في بابل العتيقة. أنهكني الحرّ وأضواني فتور عجيب ولكن كنت وحدي. كنت أريد أن أحسّ بنفسي دائما في هذه الحالة وأن يتملكني شعور طاغ ومطلق بالوحدة، شعور أسيطر عليه ويسيطر عليّ في آن واحد، شعور يملأني أسى ويحل عقالي في نفس الوقت طوال حياتي الى ساعة الممات. وعندما عمّ الظلام أتاني تزيلان وقال لي :

ـ أنا حارس الليل ببابل.

وكان شيخا طاعنا في السنّ لا يعرف تأريخ ميلاده. فسألته قائلا :

ـ ماذا تحرس هنا ؟ لا أرى أيّ انسان.

قال :

ـ الاشباح. لقد ملأوا هذا المكان.

ـ أيّ خطر يريدون ابعاده.

بقي الشيخ صامتا ثم أخرج من جلبابه علبة من عظم ومدّها لي وهو يقول :

ـ تفضّل.

كان يعرض عليّ أوراقا مفتتّة من الحشيش قائلا :

ـ امضغها فانّك تحسّ بعدها بالراحة.

واعتذرت فسدّد الي نظرة حزينة وأخذ يمضغ فتات الاوراق وهو يحرك شدقيه بلطف وبصورة منتظمة حتى رأيته ينزلق شيئا فشيئا في بحر الاوهام. ثم أخذ يتحدث بطريقة خاصة وبصوت هادىء صاعد من الاعماق مليء بالتموّجات مفعم بالنبرات الغريبة. كان يشخّص لي المكان وأطيافه وملوكه المضطجعين بين الاطلال.

وبقينا معا الى الفجر. وعندما بزغت الشمس من وراء النّخيل وبدأت تلمس أشعّتها الاولى مياه الفرات قام يستعدّ للانصراف وقال لي :

ـ اذا مازلت مقيما ببابل فانّي سوف أراك الليلة.

وأخرج من جلبابه حزمة من الاوراق التي تمزّق بعضها ووضعها أمامي وقال :

ـ هذه الاوراق لك. كنت أعلم أنّك ستأتي يوما فاحتفظت لك بها فقلت :

ـ ما هذا ؟

فقال :

ـ هذا مخطوط قديم جدا نسخه أبي عن لفيفة من البردي عثروا عليها في غار يوجد هنالك في أقصى المدينة العتيقة.

وانصرف ولم يترك لي الفرصة لانطق بكلمة واحدة لانّه ما ان تحركت شفتاي حتى اختفى الشيخ وراء أطلال باب إشتار.

وأنا منكبّ منذ تلك الليلة على ذلك المخطوط أرتّب صفحاته ولا أعرف مدى الوثوق به ولكن ـ مهما كان الامر ـ فهو مخطوط يكشف عن كثير من الأمور.

وها أنا أقدّم بخشية من الكتاب بعض صفحاته دون ادخال أيّ تعديل عليها.

بـــلاد اليونان

غزوات الاسكندر الكبير : خطوط مسيرته

بداية سيرة الاسكندر الكبير أو خوف إله

ليس من الميسور أن أقتطع من حياة ملآنة مثل حياتي بعض العناصر لاثراء السيرة التي أنا بصدد وضع خطوطها العريضة.

ولكن حيث أنّي أجد نفسي ملازما للفراش بسبب جرح خطير في كتفي أصبت به أثناء احدى جولاتي الجريئة فانّي أحاول جمع بعض شظايا ذكرياتي كلّما اندلعت على سطح ذاكرتي دون أن أدخل عليها تسلسلا منطقيا كما لو كنت ألعب لعبة ممتعة ومؤلمة في آن واحد. شأني في ذلك شأن صنّاع الفسيفساء في مدينة بيّلا (17) موطني الذين يصنعون مشاهدهم العجيبة بترصيف مكعّبات مبعثرة.

بقيت حياتي في مجموعها لغزا لا فقط في نظر المؤرّخين والفلاسفة الذين تبعوني في الحملة التي قدتها لجمع عناصر كتاب كانوا يريدون تأليفه ولكن بالنسبة اليّ أيضا.

أعلم أنّ كثيرا من النّاس سيتناولون حياتي بالشرح والتعليق بعد موتي. سيحاول كلّ واحد منهم أن يعلّل بطريقته الخاصة أبسط أعمالي الناتجة عن محض الصدفة أو عن مقتضيات عسكرية صرف لانّه لم يستطع أيّ انسان تجنّب الوقوع في هذا الشرك. لم يقدر على اجتناب ذلك الحيف شاعر أو رجل سياسة. ولم أقدر أنا أيضا على تحاشيه لانّي أصبحت منذ عهد الشباب ومنذ فعلة خيروني (18) بالضبط «شخصية تاريخية».

تعود بي الذكرى الآن الى معركة خيروني. لا أشعر بالحاجة الى تبرئة ساحتي من أوحش جرم اقترفته في حياتي. أنا أيضا لم أستطع الى الآن أن أكتشف الدوافع التي حملتني على ترك جنودي الغاضبين يبيدون «الكتيبة المقدّسة» (19) في حين أن أرسطو طاليس (20) قد نوّه أمامي ببسالة رجال الكتيبة وأشاد بالصداقة المستترة

التي تربط بينهم. وكنت أنا أيضا معجبا بهم في طفولتي أبحث بدوري عن صديق أحبه حبا عميقا ومقدّسا شبيها بما يكنّه لبعضهم رجال الكتيبة المقدسة.

أقول أحيانا لنفسي : ربما كان عزمي على معاقبة مدينة ثيباي (21) هو الذي أثار تلك النوبة من الغضب الجنوني. فاذا كانت ثيباي تستحق العقاب الذي سلط عليها فلماذا شمل غضبي الكتيبة المقدسة ؟ لماذا صدر عني ذلك القرار الشنيع باحراق المدينة وتقتيل جميع سكّانها و لم أستثن منهم الجنود البواسل المنضوين تحت لواء الكتيبة المقدسة الذين يؤمنون بأن الصداقة هي الدائمة في مسيرة الحياة والباقية بعد الموت وبأنها قوّة تمنح الخلود للبشر الفاني ؟

أدركت ذلك المعنى بعد تلك الفاجعة بمدة طويلة عندما وجدت نفسي متنقلا بين أطلال طروادة صحبة هفستيون. وكنا قد درسنا معا في نفس الفترة من شبابنا الالياذة (22) وفهمنا معا ما ينطوي عليه غضب أخيلوس (23) عندما سقط باتروكليس (24) صريعا في ساحة الوغى. غضب أخيلوس هو نفس الغضب الذي يساور جنديّ « الكتيبة المقدّسة» ويحوّله الى سبع ضار عندما يشاهد أن رفيقه قتل أو جرح بجانبه بنبل العدوّ. فانّه ينسى كل شيء في تلك اللحظة ولا يبقى له الا همّ وحيد يستولي على نفسه وهو الانتقام من العدو الذي أفقده أعز رفاقه. انه يعرّض بحياته لبلوغ غايته ولا يهمّه من الامر شيء. ويفارق هذه الحياة الدنيا مرفوع الرأس لانّه فدى أخاه وتستقبله الآلهة الخالدون ويفسحون له مكانا للجلوس بجانبهم كما لو كان إلها لحضور ولائم الاولمبوس.

ولكن لا أريد أن أفكّر في شيء خلال هذه الساعات الثقيلة التي أحياها وحيدا في بابل. لا أريد أن أفكّر في الاشخاص الذين أحبهم ولا في هفستيون لاني خائف.

أنا خائف. كيف انفلتت منّي هاتان الكلمتان ؟ ما بي أنطق بهما ؟ أنا وحدي. ولن يسقط هذا المخطوط بين يدي صديق أو عدو. سأترك أمرا صريحا باحراقه بعد موتي حتى لا يبقى بعدي منه أي سطر. واذا بدأت بتحريره فلأنني في حاجة الى الاستماع الى صوتي وأنا لم أنصت الى نفسي الا في لحظات قليلة جدا من حياتي. وذلك لانّي كنت أشعر بالخوف. أنا أتردّد عندما أنطق بهذه الكلمات. ولكن لا أتردّد في كتابتها لانّها موجهة الي فقط. ليت أعدائي الذين يرتعدون لسماع اسمي

لا يعلمون مطلقا أنّه كثيرا ما خفق قلبي جزعا واصطكّت ركبتاي وانقطع عنّي النّفس.

لم أخش الموت قط. ولم أخش أعدائي مهما كانوا شدادا ومهما كان المكان الذي صارعتهم فيه أثناء معمعة طاحنة موحشا أو مزعجا ما شعرت بالخوف في اسوس (25) ولا في ڤوڤمالا (26)لا ولا في صور (27) ولا في السوس (28) ولا في باكتريان (29) ولا في تاكسيلا (30). كنت أخاف من ذلك الشخص الآخر الذي كنت أحمله في قرارة نفسي، ذلك الشخص البعيد الغور الذي التقيت به لاول مرّة في بيّلا عندما بلغت السادسة من عمري.

دعا أبي مؤدّبين وكلّفهما بتربيتي وهما ليزيماك الاكارناني ولبيونيداس الابيري.

ما كنت أعلم هل كان يثق بهذين المؤدبين لانّ أبي ما كان يثق الا بي. ولكن كان مصمّما على تخليصي من تأثير أولمبياس (31).

كنت ملازما لها ومتعلّقا بها الى حدّ أنّي ما كنت أشعر بالسرور عندما أتسابق مع صبيان حاشية الملك في حديقة القصر أو أشاركهم ألعابهم. كنت أحبّ أن أضع رأسي على ركبتيها لاستمع اليها مدّة ساعات وهي تذكر لي آلهة مصر وطنها البعيد وتقول لي إنّك أنت أيضا اله.

سألتها يؤما عن معنى كلمة إله فقالت :

ـ هو الذي لا يخاف من شيء ويخافه جميع النّاس.

فقلت :

ـ هل أنا إله ؟

قالت :

ـ نعم. أنت إله

قلت :

ـ لا أعرف الخوف ؟

قالت :

ـ لا ينبغي أن تخاف. وعندما تذهب الى مصر لزيارة الاله أمّون ستدرك هذا بصورة أفضل.

قلت :

ـ متى أذهب الى مصر ؟

قالت :

ـ في الساعة التي تحسّ فيها بأنّك متهيّىء لذلك.

عندما خاطبتني بهذا الخطاب في المرة الاولى أحسست بسرور عميق ولو أنّي لم أفهم قصدها بوضوح. كان يلذّ لي أن أعلم أنّي لا أخاف وأنّ غيري يخافني. ذلك ما جرى لأبي وقد كان أصدقاؤه الاقربون يخافونه في قرارة أنفسهم.

ولكن عندما أنعمت التفكير أدركت ما معنى الخوف.

الخوف مصدره ذلك الشخص الآخر الذي لا ينتمي الينا بسبب ولا نريد أن يحلّ محلّنا ولكننّا نحمله مع ذلك داخل أنفسنا فيضع بفضل ما أوتي من قوّة وارادة بصماته على حياتنا وأعمالنا.

لم يقترب من هذه الحقيقة أي كاتب فاشل ولا أي مؤرّخ ممّن تناول حياتي بالدراسة. يا للمساكين ! لم يتناولوا الا المظهر الخارجي للاحداث ذلك ما صنعه أرّيان وبلوتارخوس (32) واثيني (33) وكثير مثلهم. ولكن لم يعش أيّ منهم بالقرب مني ولا في عصري ولم يعرفني منهم أحد. فكلّ ما كتبوه مقتبس من سير تناقلها النّاس وسارت بها الركبان ولم يصدر عن تجربة شخصية قاموا بها.

وهكذا بقيت أنا صانع التاريخ بدون مؤرّخ. ولعمري انه نصيبي ونصيبي هذا حلو ومرّ في آن واحد لانّه لم يشهد أحد قلقي ووحدتي وخوفي ولم يسمع أحد همسي من وراء صراخي ولا صوتي الانساني من وراء الصيحات التي أطلقها أثناء المعارك.

أراد المؤرخون كما فعلت أمي أن يجعلوا منّي ازاء الأجيال القادمة إلها أو شيطانا لكن غفلوا عن الانسان فيّ.

بعض المعطيات عن نشأة الاسكندر

وعن أبويه فيليبوس وأولمبياس

ولدت ببيّلا في سنة 356. هو أوّل رقم أورده في هذه المناجاة التي أسارّ بها نفسي وسيكون هو الوحيد لانّي لم أمنح في حياتي قط أي مصداقية للضبط بالارقام ولم أعرها أي اهتمام. فالارقام تقلّص الاحداث والافكار وتجفّفها.

كان أبي فيليبوس الثاني جنديّا وملكا. وكانت ميزات الجنديّ فيه غالبة على صفات الملك. وكان قادرا على أن يحمّل نفسه أشدّ الحرمان وأن يفرض عليها أقسى الانضباط. وتبيّن على مرّ الايام أنّ له من الطاقة ما يستطيع بها أن يكسب الآخرين تلك الميزات وأقصد بالآخرين أولائك الذين صاحبوه في حملاته العسكرية بدافع الضرورة أو الخشية.

لم أر أبي الا في مناسبات نادرة ولم أتعرّف عليه في صباي. وقد كان غائبا في أغلب الاوقات لانهماكه في حروب طويلة. وعندما يعود الى بيلاّ منهوك القوى ومنشغل البال ينكبّ على اعداد غزوات أخرى ويدعو الى احتفالات تدوم عدّة أيّام.

هل كنت أحبّه؟ ذاك ما لا أستطيع أن أؤكّده ولكن كنت معجبا به إعجابا كبيرا لبأسه وحزمه وجلده وثباته. وكان يعتقد أن ليس لطاقة الانسان على العمل حدود ما عدا حدود ارادته. وكان كثيرا ما يصدح بذلك. وهو ممّن يعرف كيف يصرّف ارادته.

كان طبع أمّي مخالفا لطبع أبي ولا يجمعهما الا الاشتراك في خصلة واحدة وهي الثبات. واذا استثنينا ذلك الثبات الصارم في خطّ طريقها في الحياة الذي كان يميّزها فانّ أمّي كانت تعيش في عالمها الخاص المملوء بأشباح تبرز بغتة فتبدّدها أمواج من الأنوار الباهرة. وكانت تنتقل باستمرار بين حالتين متناقضتين حالة يغمرها فيها الظلام وحالة يشعّ فيها النّور فيبهرها وهي متشنّجة الاعصاب محتدّة الفكر في كل لحظة.

هل كانت تقيّة أم متزمتة ؟ هل كانت تصغي الى وحي إلاهيّ أم هل كانت بصورة أكثر بساطة مدفوعة بطبعها الجامح الى ضرب من الهيجان ؟

هل كانت تستطيع فعلا الاقتراب من مقام الآلهة عندما تنغمس في حالات الذهول التي تلمّ بها أم هل كان يصيبها من حين لآخر وسواس مرضيّ يرجع عهده الى الزمن الذي كانت فيه احدى المتعبّدات في معبد «الكبير» (35) بجزيرة ساموثراكي (36) تشارك في اقامة الطقوس السريّة الليلية تمجيدا للآلهة القدامى أصحاب النبوءات ؟

ما كان أحد يقدر على ايجاد مبرّرات لسلوكها وما كانت هي أيضا تدرك ما أصابها.

ولو أنها كانت تنتمي إلى أسرة ماجدة من اقليم ابيروس (37) وكانت تفخر بذلك فانها تستسلم لنوبات عنيفة ووحشية تزرع الذعر في قلوب نساء حاشيتها.

قد يكون ذلك الحنق الذي يهزّها أحيانا ناتجا في الحقيقة عن شعورها بالوحدة والغربة بمدينة بيلاّ لانّها كانت فعلا غريبة بين من يحيط بها من النّاس وكانت خاصة تشعر بالغربة بجانب فيليبوس.

كان هذا الاخير يهين فيها الزوجة والملكة معا. فكانت تحسّ بالاهانة عندما ترى زوجها الذي عرفته في ساعات وجدها وذهولها قد عاد لا يعبأ بها فيدعو لمصاحبته في الولائم التي يقيمها فتدوم أياما نسوة لا ترضى بهنّ خادمات لها.

كانت تتنازعها أفكار وأهواء مختلطة دوما. وكانتت في آن واحد فريسة العقائد والمخاوف ونزوات القلق واغراءات الطموح.

كانت تلجأ اليّ كلّما أرادت مقاومة حيرتها الدائمة والذعر القاسي الذي كان يخنقها. كنت في نظرها امتدادا لها والابن الذي هو وليد ثورتها ونشوتها.

أنا ابن إله ولا شكّ في رأيها ! وهبت قوّة تتجاوز قوة البشر. وكلّما تقدمت في السنّ وأصبحت أدرك شيئا فشيئا أن انتسابي للآلهة أمر له خطورة بالغة شعرت بوازع يدفعني الى البحث عن سلالتي من بين الآلهة الذين يقع الكشف عن أسرار وجودهم أثناء الطقوس الدينية السرّية التي تقام في معابد مصر (38) في ذلك القطر الذي تحمل فيه الحكمة طابع المجهول والذي يحافظ فيه أبو الهول (39) بصمته المهيب على سرّ مصير البشرية من وراء الحياة والموت.

سوف لا يتصور النّاس الذين سيعيشون بعد آلاف السنين على سطح الارض ويهتمّون بعبوري القلق في هذه الدنيا كيف ولد هذا الايمان الراسخ في نفسي وكيف مدّ فيها جذوره.

كنت فطنا وقويّ الشخصية فلم تجد تحريضات أولمبياس طريقها الى نفسي.

كثيرا ما عاملني من عاصروني معاملة تطغى عليها حيرة امتزجت بالحيطة والتهكّم. كان أومان صديقي الحميم وأقرب أصدقائي إليّ الى حدّ أنّي أوكلت اليه مهمة تسجيل جميع أحداث حملاتي العسكرية في سجل «اليوميات الملكية» يسألني في كثير من المناسبات هل كنت فعلا أصدّق من يدّعي أني من سلالة إلهية. وكان لأومان عقل راجح لا يفقه اللامعقول فكان يرفض أن أكون من سلالة إلاهية في حين أنّ هذا الادّعاء قد تحوّل في نفسي الى عقيدة راسخة لانّي كنت مدفوعا الى تحقيق أمور تتجاوز طاقتي البشرية.

وعندما أنعم أومان النّظر بتجرد في ذلك الرأي راق له الأمر لان نشر هذه العقيدة كانت تمكّنه من مادّة ضخمة يغذّي بها «اليوميات الملكية». فالشعوب جميعها تتميّز أساسا بالبساطة والسذاجة وعدم الخبرة والجبن فتقبل بصدر أرحب أن يسودها إله يكون خلاصها على يده بدل أن يكون الماسك لزمام أمرها مقاتلا طموحا.

وعندما اقتنع أومان بوجهة النّظر تلك التي تلائم لباقته الديبلوماسية كفّ عن النقاش معي بشأن سلالتي الإلهية وكأنّه أصبح مقتنعا بصحة ذلك القول بعد

انتصاراتي المتوالية. وكأنّه كان يقول لنفسه أن هذه الانتصارات الباهرة العديدة لا يستطيع أن يحقّقها رجل ولو منحته الطبيعة قوّة وعزما وطموحا منقطعة النّظير. فلا بدّ أن يكون ذلك الرجل مدفوعا بقوّة لا تخضع لأيّ معيار منطقي، أي لا بدّ أن يكون قد سكنه إله وضع في يده السيف وألهم قلبه الجلد وملأ روحه رؤى.

ومن بين تلك الرؤى التي كانت تلازم ذلك الرجل الذي هو أنا صورة عالم رحب ليس له حدود وقع يوما توحيده فأصبح جميع النّاس فيه يتكلمون بلغة واحدة، وامّحت فيه الفوارق بين يونانيين وعجم، ولم يبق في الارض الا بشر متساوون مهما اختلفت ألوان بشراتهم، وتنوّعت أجناسهم، ومهما كانت صفات الاله أو الشيطان الذي يعبدونه.

المؤرخون الفاقدون للوعي التاريخي
صيد الاسد

أسجّل الملاحظات التالية دون ترتيب لها كلّما خطرت الانطباعات والصور بذهني وأنا أصارع الحمّى التي أقضّت مضجعي.

ومهما يكن من أمر ومهما كانت قيمة ما سأكتبه فانّ ذلك لن يمنع الكتّاب المفلسين والمؤرّخين من اختلاق حكاياتهم. ولو سقطت بين أيديهم اليوميات التي يسجّل فيها أومان يوميا الاحداث بحرص الدارس الدقيق فإنّهم سيكونون مع ذلك حريصين على ابداء آرائهم الشخصية بشأن حياتي وأخطائي ومرضي...

أتخيّل الجهود التي سيبذلها بعض المؤرّخين قصيري النّظر. سيتناولون بالدرس أكواما من الكتب ويتعاملون مع مفاهيم غامضة لحل لغز « الاسكندر بن فيليبوس» أو «الاسكندر بن أمّون» على ضوء رأيهم في نسبي.

ما هي المراجع التي سيعتمدونها ؟ سيرجعون الى رسائل متأخّرة عن الأحداث بجيل أو جيلين ويبحثون عن مصداقية أصحابها وتاريخ تحريرها لاستنتاج نتائجهم. ولذلك لا يستطيع أيّ كان ضبط الاحداث التاريخية كما حدثت ولا تقديمها في بساطتها ووضوحها حسب خطّ مستقيم بل دأب جميعهم في محاولة إعادة قراءة للاحداث اعتمادا على مجموعة من التعليقات نشرها أناس بعيدون عن الأحداث يحررون تأويلاتهم وهم متأثرون بالحالة النفسية التي يعيشونها في الساعة التي يكتبون فيها. فالوضع مثلا يختلف اذا كان المعلّق مرتاحا أو كان مصابا بألم في معدته من جرّاء السكر. شأنه في ذلك شأن صحبي عندما يحاول هؤلاء المساكين مباراتي في احتساء الخمر أثناء الولائم

قائلين : اذا كان ملكنا قادرا على شرب هذا القدر المهول من الخمر فلِمَ لاَ نقدر مثله على ذلك. وعند طلوع الفجر تراهم صرعى ومنبطحين على الأرض فيأتي الجنود لحملهم محاولين ايقاظهم بصبّ الماء البارد عليهم.

اذن كيف يستطيع المرء كتابة التاريخ وهو يحسّ بألم في معدته وكيف يمكن لاحد أن يدرس سيرة الاسكندر بتجرّد اذا لم يشعر بأي ميل نحوه واذا كان يستنكر اراقته لدماء أقوام عديدين طوال مسيرته ؟

ومهما كانت صفات الذين سيكتبون سيرتي فاني لا أوصيهم بشيء بل أتمنّى لهم التوفيق... سأرسم وحدي هنا في بابل في هذه المدينة التي أحببتها بكل جوارحي الخطوط العريضة لسيرتي التي لن يعيها أيّ انسان ولو وعيا خفيفا.

أرسم لمساتها العامة وأنا أرتعد من أثر الحمّى. وسأواصل هذا الجهد ما أمكن رغم عتاب صحبي أو بالاحرى عتاب من بقي منهم على قيد الحياة ولم يسقط في ساحة الوغى أو لم يلق حتفه بيدي في نوبة من نوبات غضبي وأغلب نوباتي جنونية لا يتحكّم فيها العقل.

كانوا يخشون تفاقم علّتي لانّه لم يهدأ لي بال في تلك الايام الشاقّة التي كنت أقاوم فيها المرض.

قلت انّهم كانوا يخشون تفاقم علّتي والاحرى أن أقول أيضا ان بعضهم كانوا يتمنّون موتي. لماذا ؟ لأنّ مسألة خلافتي كانت محلّ تخمينات ومناورات. كانوا يتساءلون عن مصير هذه الامبراطورية الضخمة التي فتحتها اقليما اقليما ومدينة مدينة. كانوا يفكّرون في كيفية اقتسامها بينهم والى أيّهم سيعود نصيب الاسد.

ما أحمقهم ! لا يعلمون أن الممالك لا تورث ولا تهدى ليقع اقتسامها وانّما يفتكها ذو القوّة والدهاء. واذا منحت المملكة ومنح معها جيش قويّ لحمايتها لمن لا يقوى على مسكها انتزعت منه وهو لا يشعر. لا ينبغي أن تؤول الممالك الا لانسان واحد لا غير وهو الرجل الذي له من البأس و الشدة ما يجعله قادرا على حمايتها اما بقدرته على فرض طاعته أو على زرع

الخوف في القلوب. وفوق كل هذا وبمعزل عن كل التأويلات تستقرّ الممالك اذا دبّر أمرها قائد حازم له حضور مستمر في أذهان رعاياه.

أراقب حركاتهم أثناء الولائم التي أدعوهم اليها. يديمون النّظر اليّ باحثين عن خفايا نفسي ويلتمسون منّي بالحاح وفي صمت نظرة عطف، وعندما يظنّون أني لست منتبها اليهم يتهامسون بينهم. يريد كل واحد أن يعرف نوعية العلاقة التي تربطني بصاحبه وهل طرأ لي أن حادثت صاحبه يوما في أمر الخلافة.

كنت أشاهدهم يتخاصمون من الآن لتحديد من ستكون له الغلبة ويحاولون جاهدين محو آثاري في ذاكرة الشعوب حتى لا يقارنوا مستقبلا بيني وبين من سيمسك زمام أمرهم بعدي.

سوف لا يبقى من أخبار عبوري في هذه الدنيا أيّ خبر لم تمسّه أيدي العابثين، سوف تبقى في أفضل الاحتمالات أصداء غامضة سرعان ما تتلاشى في خضمّ الإعصار الذي سيعصف في الفترة القادمة.

ان القواد الذين رشحوا أنفسهم لخلافتي يذكّرونني بما كنت أشاهده أثناء صيد الأيّل في موطني بيّلا :

كلّما خرجت الى الصيد مع كراتيوس الذي كان يصحبني دائما واقتنصت أيّلا دفعته الى الحرس الذين يتبعوننا ليقتسموه بينهم وانتحيت مع كراتيوس ناحية للتحادث. وعندما يمسك الحرس الدابة المقتنصة يبادرون بالشجار للاستيلاء على أحسن قطعة من اللحم. واذا ظنّوا أنّنا غير ملتفتين اليهم لانهما كنا في الحديث بلغت بهم الدناءة الى التلاكم وتمزيق الفريسة إربا إربا حتى لا يبقى مجال لقسمة عادلة.

سيتواصل اقتسام الأيّل مدى الدهر وسيتحف الزمان الملوك دوما بجلساء متملّقين أنذال وعبيد وكلاب جائعة يدفعهم نهمهم الى التهام قسمتهم من الغنيمة التي لم يغنموها.

انخفضت درجة الحرارة منذ أمس. ولكن لا أريد أن أرى بمقربة من فراشي أحد الاطبّاء الذين يكوّنون عصابة «الدائرة الملكية للصحة».

ما أحمقهم وما أجهلهم ! لم يكن أحدهم في مستوى الثقة التي وضعتها فيهم جميعا حتى قلوكياس الذي لم أحشره في زمرة هؤلاء السفاحين. لقد ترك هفستيون أعزّ صحبي يموت. فبرهن بذلك عن عجزه عن اسعافه في حين أنّي كنت متيقنا أنّه قادر على انقاذه. كان هفستيون ذا بنية قويّة وكان يتحمل الصعاب أحسن منّي. وقد برهن على ذلك الجأش أثناء قطعنا لجبال الهندوكوش(40) الشاهقة عندما خارت قوى أشدّ ضباطي وجنودي جأشا لانّهم لم يتحمّلوا التغيّر السريع للطقس من البرد القارس الى الحرّ المفرط.

كان هفستيون يتحمل تلك التغيرات المباغتة للطقس. ويحافظ على شهية الاكل وعلى القدرة على المداعبة وكان يؤكّد لي أنّه سيتبعني الى أقصى الارض.

ماذا طرأ عليه حتى وافته المنيّة بتلك السرعة وبصورة مباغتة ما ان أحسّ بالمرض في حين أنّي حذّرت قلوكياس والاطباء الآخرين وقلت لهم جميعا اني أحمّلهم مسؤولية مآل صاحبي المحبوب ؟ لم يهتدوا الى علاجه أو لم يعبأوا بما قلته لهم غير مقدّرين لاثر موت هفستيون في نفسي. وانّه لاثر عظيم لا يستطيع أيّ كان أن يقدّر مداه.

أنا أعلم أن التاريخ لن يغفر لي — من بين المآثم التي ينسبها اليّ — أن أمرت بصلب قلوكياس ونفي جميع الاطباء حتى أواجه الموت وحدي ساعة الموت وبمعزل عنهم.

يذكّرني أولائك الاطباء المشعوذون بصديقي. يذكّرونني بنهايته وهلاكه... الهلاك...

ما كنت أودّ في هذه الساعة بالذات أن أعيد ذكرى هفستيون. اذا سيطرت هذه الذكرى على وجداني عجزت عن مواصلة كتابة هذه السيرة. أريد أن أركّز أفكاري ما استطعت وما دمت أحتفظ في ذاكرتي بذكريات واضحة وذلك لاقصّ سيرتي بصورة لا يستطيع أيّ كاتب أن يقصّها.

أستاذي أرسطوطاليس

ها أنا عدت بذكرياتي من جديد الى مدينة بيلاّ.

اعتنى بي وأنا طفل أستاذان جيدان هما ليونيداس الابيري الذي كانت له قرابة مع أمّي أو لمبياس ولوسيماخوس وليد اقليم اكارنانيا [41].

وأذكر أيضا حاضنتي لانيتي التي كانت ترعاني في ذلك العهد.

جميعهم وهبوا الي الكثير ولم يتركوا في نفسي شيئا ! كانوا معتدلين في سلوكهم قد شكّلوا من طينة لزجة يُصنع منها الرجال العادلون الجامدون أما أنا فانّي لم أسبك من هذه الطينة. كان يخيفني الاعتدال وذلك في جميع مظاهر النّشاط الانساني وفي جميع منشآت البشر وحتى في تلك الحياة اليومية الوديعة التي كان يحنّ اليها بعض جنودي عقب غزواتنا المنهكة...

كانوا يحنّون الى الدويرة والمرّية والصبية... ما كانت رؤيتهم تتجاوز موقد بيوتهم.

فكنت أخاطب نفسي قائلا : يالهم من مساكين ؟ وكنت أقسو عليهم أحيانا فأصيح قائلا : يالهم من أغبياء ! وأغضب عليهم وكنت أشمئز من سلوكهم ولو أنّي كنت أرى أنّه يحق لهم أن يكونوا كذلك من وجهة من الوجوه ولكن ما كنت أشاطرهم شعورهم.

ماذا أقول عن أرسطوطاليس ؟

أتساءل هل أنا قادر على الحديث بصورة مجملة عن أستاذي أرسطوطاليس. كانت شخصيته مغايرة تمام المغايرة لشخصيتي ليونيداس ولو سيما خوس. كان فكرا مطلقا في مجالات المعرفة والبحث والتقصّي. ولو أنّه يدعو أحيانا الى ذلك

التعادل الطريف بين ما نصبو اليه وبين ما نستطيع تحقيقه الذي كان ميزة من ميزات تعليمه.

أمّا هو فقد تجاوز كل ذلك. تفوّق على الزمن وأخضع النّفس وتجاوز امكانات استيعاب الانسان للمعرفة وهي تقف دائما عند حدّ معيّن.

كان أرسطوطاليس يرفض الحدود التي تفرضها طبيعة الانسان. ما كنت أشعر بذلك فيما كان يلقنّه إيّاي من تعاليمه طوال ساعات متوالية من التدريس بل فيما كان يظهره من قدرة تتجاوز طاقة الانسان. وما دلّ تلاميذه يوما عن مصادر قدرته ولكن كنّا جميعا نحسّ بوجودها تماما وبكل وضوح. وقد صاحبني هذا الشعور مدى الحياة ومازال يلازمني الى اليوم.

قلت له مرّة بقصر ميزا (42) بعد الدرس.

ـ سأكتشف يوما أقاصي المعمورة

فنظر اليّ مبهوتا وقال :

ـ وكيف ذلك ؟

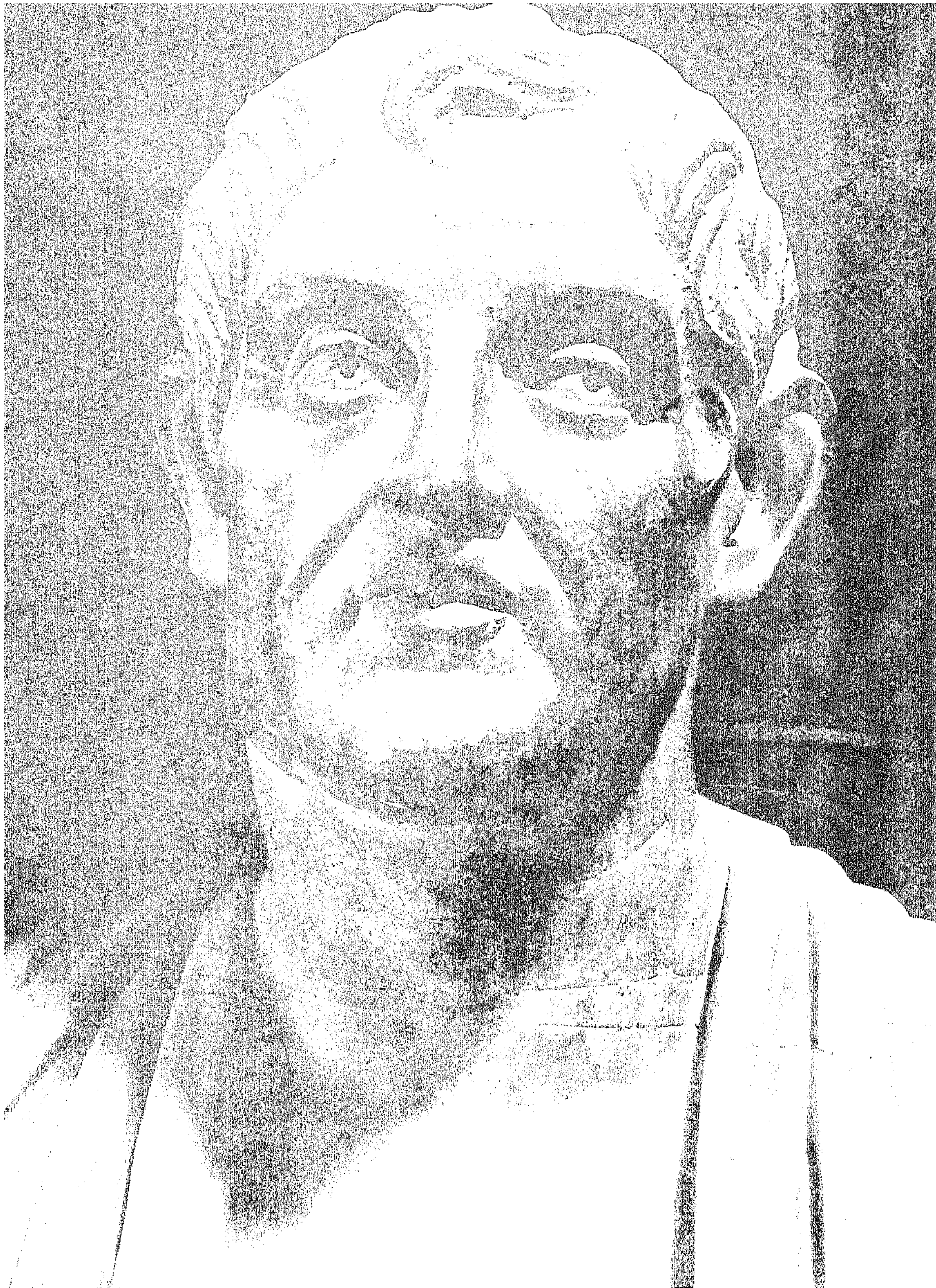
فقلت :

ـ بقوّتي.

ربّما همّ باجابتي وابداء رأيه فيما قلت ولكنّه لم يفعل. وأحسست في تلك اللحظة بأنّ بين الاستاذ والطالب نقطة التقاء وتماسّ عميقة الغور وهي أننّا كنّا نؤمن إيمانا راسخا بأننّا قادران على بلوغ حدود طاقتنا ثم تجاوزها للوصول الى الهدف الذي يدفعنا اليه حماس لا يفتر.

أنا مدين بالكثير لارسطوطاليس وأساسا بما أسمّيه «حياتي الاخرى» وقد بدأت أعيش تلك « الحياة الاخرى» ابتداء من اليوم الذي حدّثنا فيه معلّمنا عن بطولات أخيلوس وهو يدرّس تلاميذه بقصر ميزا. وان بطولات أخيلوس هي التي ساقتني الى هنا.

عندما قرّر فيلبوس أن يرسلني الى أرسطوطاليس لاستفيد بدروسه كان ذلك القرار أحد القرارات الصائبة التي اعتاد اتّخاذها في الوقت المناسب. لقد مكّنني من الحصول على ثقافة متينة لقنّها ايّاي أستاذ حكيم وأبعدني في الوقت نفسه عن



تمثال ارسطوطاليس ـ متحف نابلي (ايطاليا)

أولمبياس وعن تأثيرها عليّ وكثيرا ما كان يقول ان تأثيرها وخيم. كما أبعدني أيضا عن ميدان بطولاته وسخافاته لانّه كان يعلم أنّه يشقّ عليّ أن أرى أبي سكران ومحاطا بحظيّاته. كنت في ذلك العهد لا أتصور أن قائدا عظيما وبطلا مغوارا يسمح لنفسه أن ينغمس في الشهوات واللّذات بدافع البحث عن المتعة أو بوازع التسلية.

أمّا الآن فاني أقبل ذلك السلوك بصدر رحب لانّي أصبحت أعتقد أن الشهوات ضرب من العظمة فهي الصورة الانسانية لها.

مازلت أحتفظ في قرارة نفسي بصورة حيّة نابضة لأرسطوطاليس. وأنا مدين له بجميع ما حقّقته من أعمال جليلة أثناء هذه المغامرة التي خضتها بحماس لم يفتر منذ سنوات عديدة.

وأنا مدين له أيضا باكتشاف العظمة التي تبلغ أرقى مستويات الألوهية والانسانية معا. وقد كشف لي هذا اللون من العظمة بشرحه لملحمة هوميروس (43) عندما كان يقضي الايام والشهور في التعليق على غضب أخيلوس المقدس ذلك الغضب ... الذي اكتسب قداسته من الصداقة التي كانت تجمع بينه وبين باتروكليس.

لا أعلم هل افتتنت يوما في حياتي بشيء أكثر من افتتاني بملحمة الالياذة وهل استهواني وسحرني بطل مثلما استهواني وملك نفسي أخيلوس. وقد حملت معي الالياذة. والكتاب موضوع دائما بجانب فراشي كما لو كان قطعة من نفسي.

ولو لم يعلمني أرسطوطاليس الا الغوص في معاني هوميروس لما كنت اليوم مشبعا بنفس القدر بمعاني الجمال والعظمة.

ان معنى العظمة هذا هو الذي يدفعني في كثير من الاحيان الى الإنزلاق الى الغضب ذلك الغضب الذي كان يثير اعتراض كاليستان.

أنا أعلم أنّ خلاّن الوفاء لن يغفروا لي فتكي بهم كما لن يغفر لي ذلك السلوك المؤرّخون الذين سينكبّون على سيرتي درسا وتمحيصا.

كان كاليستان زميلي بميازا. وكان تلميذا لارسطوطاليس وقريبا من أقربائه. وكان معلّمنا يحبه ويستنجبه. وربما كان كاليستان هو الوحيد الذي يستطيع أن يكتب قصّة رحلتي التي ما عرفت لها نهاية لانّه عاش معي حلمي منذ اللحظة الأولى وصاحبني في غزاتي متنقّلا معي من قطر الى قطر.

ولكن كاليستان كان يتميّزُ بعقل رصين يتناول واقع الاشياء فيحلله. فكان عاجزا على تجاوز الوجه البارز العاري للاحداث لاكتشاف وجهها الخفيّ والعثور على الضرورة التاريخية التي ولدتها. وكان لأجل ذلك يثور على كلّ ما يعتبره عن يقين منافيا لما هو طبيعي ومتجاوزا لحدود «المعقول». فكان يعتبر غزاتي زحفا عسكريّا واستيلاء على الاقطار والعباد وكان يعتقد أن الشعوب تفصلها حواجز لا تُزال وأن اليونانيين والفرس والميديين[44] لا يستطيعون العيش معا.فكان يظنّ أني أريد فقط ارضاء طموحي عندما رضيت بأن تدين لي جميع شعوب آسيا وتعتبرني ملكا لها وإنّي كنت أشعر بالمتعة لأنّي قدرت على اخضاعها في حين أني أحسّ ولا شك من وراء ارتياحي واعجابي بنفسي برغبة عارمة في أن أرى النّاس جميعا يلتقون عند نقطة واحدة تجمعهم.

لا أسعى لتبرير قتلي لكاليستان ولا للعديد من خلاّن الوفاء الاعزّاء الذين صاحبوني في مسيرتي وقاتلوا معي... لان الدفاع عن النّفس ضرب من الندم وبالتالي هزيمة. وأنا لا أقبل أن تكون الهزيمة احدى ضرورات الحياة. ولكن أرضى بها فقط كصورة من عقاب الآلهة يسلّط على البشر عن طريق فرض الموت عليهم جميعا.

سيكتبون عنّي ــ ولا شكّ ــ أنّي انغمست في حياة الترف التي يهواها الميديون وأنّي سلكت سيرة ملوك العجم الذين يفرضون على رعاياهم الطاعة العمياء وسيعلّلون كثيرا من مواقفي من هذا المنطلق. وقد عبّر كاليستان بوضوح عن وجهة النّظر هذه عندما رآني حاملا التاج الفاخر الذي حمله ملوك الفرس العظام فقال :

ـ « ألهذا أتينا الى هنا ؟ ألهذه اللحظة من الزهو الفارغ ؟

هل كنت أستطيع أن أطالب كاليستان بادراك ما يختفي وراء ظواهر الأمور ؟ ما هي الطريقة التي كان ينبغي أن أتوخّاها لمطالبة جميع الذين كانوا مصرّين على أن لا يروا الا الزهو في موقف ينطوي على السعي الى تحقيق مشروع عظيم ؟

كيف كنت أستطيع ذلك ؟

يوم انطلاق الحملة الكبرى
الشعراء معي

وها هي خواطري تجرّني مرّة أخرى بعيدا عن التسلسل الزمني للاحداث وسوف تجرّني أيضا نحو آفاق متعدّدة... أعلم ذلك جيّدا.

أحسّ بنفسي من الآن فصاعدا كما لو كنت مطلاًّ من أعلى ربوة، يهزّني نفس الشعور الذي يشعر به القائد الاعلى للجيش غداة المعركة عندما يطلّ من أعلى ربوة على انتشار جيوشه في الساحة تأهّبا للمعركة الحاسمة فيضع في تلك اللحظة اللمسة الاخيرة لمخطّط سير العمليات الحربية.

كذلك أشرف من المرتفع الذي أحتلّه في هذه الآونة على جميع لحظات حياتي وجميع أعمالي دون أن أستطيع التمييز بينها.

كل عنصر من حياتي يحتلّ في ذهني نفس المنزلة وله نفس الوزن. سيّان عندي أبعد الاحداث في الزمن وأقر بها وأبعد مساعديّ عن نفسي وأقربهم منها.

جميع الاحداث ماثلة معا وجميع الاشخاص أيضا. قد احتل هؤلاء أمكنتهم في صفوف جيش يستعدّ للقتال في مكان فسيح.

وأنا طريح في هذه الخيمة المضروبة في نواحي مدينة بابل تهزّني حمّى بلغت أقصى ذروتها أنظر الى حياتي من أعلى الربوة بنفس الشعور الذي أنضجته الايام وهو أن كلّ ما جرى كان ينبغي أن يجري حسب ما جرى عليه.

لا توجد علامات دالّة على المراحل التي قطعتها في المغامرة التي خضتها وذلك ابتداء من سنوات الدراسة القليلة جدا التي قضيتها مع معلمي أرسطوطاليس الى مقتل أبي بمدينة أيقاي (45) الذي تلاه استلامي الحكم في مقدونيا وتقلّدي رئاسة جميع الشعوب اليونانية.

قد احتاط فيلبوس لكل شيء ابتداء من وجوب الزحف على الفرس كما لو كان مدفوعا بتوجس غريب أو كما لو نظر في جميع الامكانات وبالضرورة في هذه النّهاية. و لم يترك لي أية امكانية لتغيير سير الامور. فلم أستطع تبديل سياسة أبي ولا اعادة النّظر في الاستعدادات التي أمر بها. فتبنّيت مشروعه بصدر رحب وعقدت العزم على مواصلة تنفيذه.

ولكن أبي رغم حصافة رأيه لم يضع في الحسبان خطورة الثورات التي اندلعت عقب وفاته المفاجئة.

كان فيلبوس يحسّ بأنّه يوجد من بين من يدّعون أنهم له أصدقاء وحلفاء فريق يترصّد الساعة التي يسقط فيها وذلك ليتخلّصوا من الوصاية المقدونية. ولكن ما كان يتوقّع كثرة عدد هؤلاء ولا أهمّيّة العدّة التي أعدوها في الخفاء فاستطاعوا بها اضرام ثورات متعدّدة اندلعت في الساعة التي أعلن فيها عن اغتيال الملك.

قاومت تلك الثورات بالطريقة التي توخّاها أبي طوال حياته أي قمعتها بشدّة وشراسة فلم أشفق على أحد و لم أرحم أحدا.

ارتكب المتمرّدون خطأ جسيما عندما لم يضعوا في حسابهم ردّ الفعل هذا. كانوا يتخيّلون أن صغر سني يجعلني عاجزا على مواجهتهم وأن قمع ثورات عديدة تتفجر في نفس الوقت في كامل أرض يونان يفوق قدراتي.

أثبتت معاملتي اياهم عكس ما كانوا يتوقّعون. فالملك الشاب أو «الفرخ الوديع» كما كانوا يسمّونني ازدراء بي يعرف كيف يفرض نفوذه وله من قوّة الارادة ما يجعله قادرا على ذلك مهما كانت رباطة جأش من يدفعه طموحه الى منازلته. وقد قاومهم الملك الشاب دون أن تأخذه أية رأفة سخيفة بهم. كان سلوكه معهم سلوك كبير القوم المهيب المستعدّ لتجاوز كل الصعاب الذي لا يتردّد لحظة في التعريض بحياته لبلوغ هدفه سواء أكان البلوغ الى الهدف من قبيل الممكن أم من قبيل المستحيل.

ولنكن صرحاء مع أنفسنا. ما هي المعايير التي نستطيع بها أن نفرّق بين الممكن والمحال اذا شرعنا في عمل ما أو خضنا غمار معركة ؟ أنا لم أستطع العثور عليها.

ما ان قمعت تلك الانتفاضات حتى أمرت بانطلاق الحملة العسكرية الكبرى. كان انطلاقها مجازفة خطيرة. ولكن انطلقت الحملة بصورة مرضية وحسب الخطة الدقيقة التي وضعتها بنفسي.

بدأت المسيرة على رأس جيش حشدت جنوده من جميع أقطار بلاد اليونان ومن المدن التي كانت تؤمن بضرورة تنظيم هذه الحملة ومن المدن التي أرغمت على الايمان بها لانّها لم تكن قادرة على أن يكون لها موقف آخر باستثناء مدينةَ إسبرتا (46).

كنت قادرا على اللجوء الى القوّة لارغام هذه الاخيرة على المشاركة في الحملة ولكن أمسكت عن ذلك.

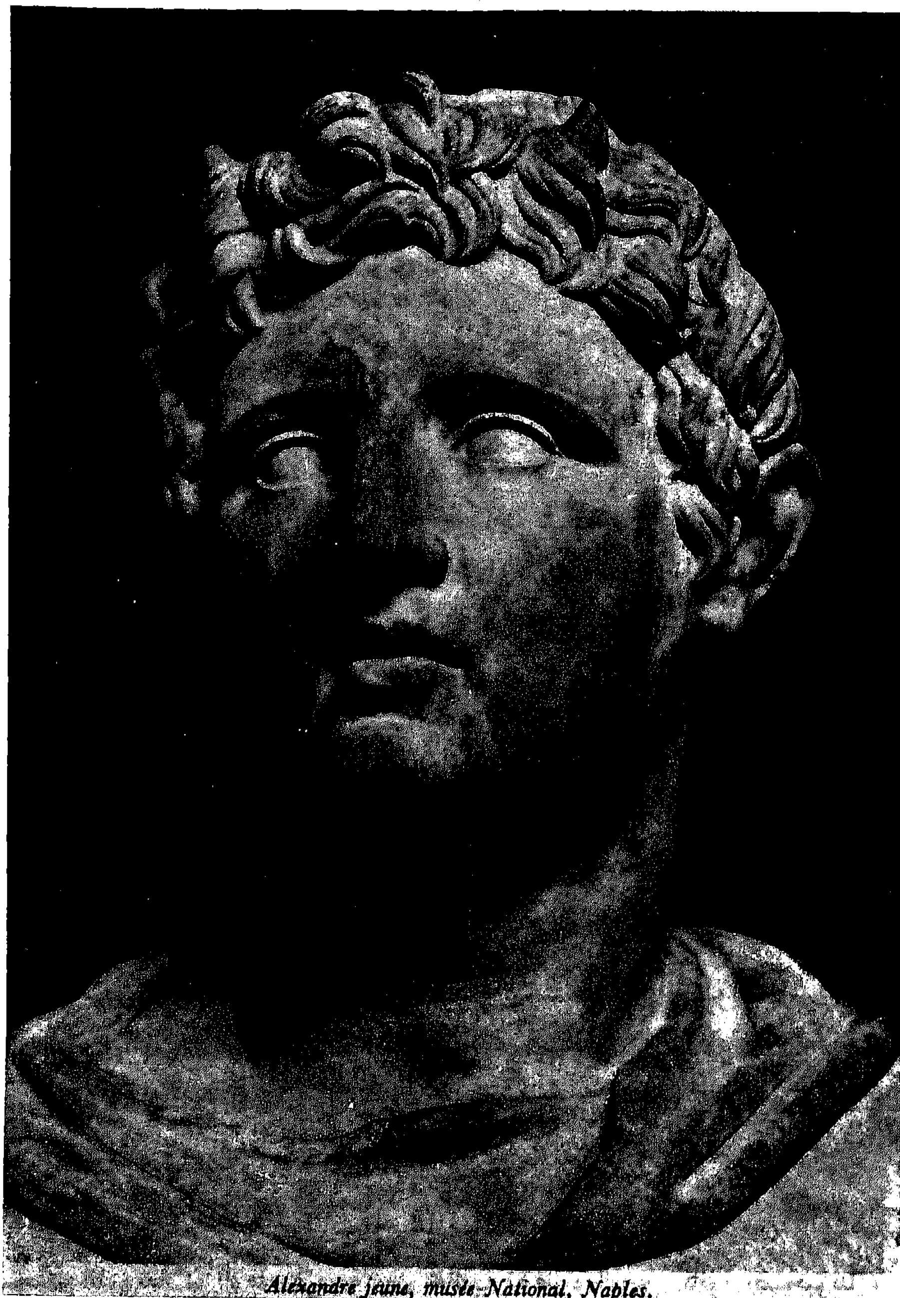
سيعلق كثير من النّاس في المستقبل على موقفي ازاء أهالي إسبرتا. سيدلي كل واحد منهم بالتأويل الذي يروق له. أما أنا فاني سأفوه فقط بهذه الكلمة أمام التاريخ: « باستثناء أهالي اسبرتا». وفي هذه الكلمة وحدها تعبير واضح عن موقفي.

صحبني اذن في غزاتي جميع اليونانيين ومن بينهم العلماء والفلاسفة والممثلون والشعراء.

لماذا اصطحبت الشعراء؟ سيدلي كل واحد برأيه في هذا الموضوع ولن يعثر أحدهم على حقيقة الامر وهي في حوزتي.

كان أرسطوطاليس يقول انّ الشعر أقرب الى الفلسفة من التاريخ. أما أنا فانّي أرى أن الشعر فلسفة تؤدّي بنا الى وعي ماهية الانسان ووعي التاريخ. هذه الفلسفة هي طبعا عديمة الفائدة ولكن ما هي الفلسفة التي تنجرّ عنها فائدة عملية؟

أردت أن يصحبني شعراء في الحملة التي سهرت على تنظيمها. كنت أنتظر منهم أن ينشدوا شعرهم أو شعر غيرهم في الولائم بنبرات مطابقة للمعنى. ولكن قليلا ما كانوا يوفّقون الى العثور على تلك النبرة. كنت أريد أن ينشدوا أشعارهم في الساعة التي أجتمع فيها مع خلاّن الوفاء للسكر. واذا كان انشادهم رديئا كما يقع عادة فانّي كنت أنتظر منهم على الاقل أن يساعدونا على الانغماس في النوم الذي يتبع السكر. ما أحلى النّوم على نبرات الانشاد بعد التوتّر الذي يحدثه القتال



Alexandre jeune, musée-National, Naples.

تمثال الاسكندر وهو شاب ـ متحف نابلي (ايطاليا)

عندما ندقّ قدحا بقدح مزهوين محتفلين بالنصر ولو كان أداء الشعراء لشعرهم سقيما !

كانت تخامرني في الواقع أمنية غامضة لما عزمت على ضمّ الشعراء الى حاشيتي. كنت أتمنّى أن يبرز أحدهم على الاقل قدرته على تأليف قصيدة ملحمية عظيمة للاشادة بحملة عسكرية ستبلغ أقصى الارض وتتجاوز في الجرأة والقوّة كل الحملات العسكرية التي قادها غيري.

كانت أبيات الإلياذة ترنّ دائما في أذني مثلما سمعتها من أرسطوطاليس ثمّ من هفستيون. كنت أستمع الى تلك الأبيات فأتخيّل عاصفة هوجاء تشقها من حين لآخر ومضات بروق تعمي الابصار وتبعث الفزع في النفوس.

ولكن لم يلبّ أحدهم تلك الرغبة الكامنة في نفسي ولم يستطع أيّ واحد منهم تطويع اللفظ حتى يصبح قادرا على الايحاء بقوّة باحتدام المعارك وبالجزع الذي يسكن قلوب المقاتلين وعلى تشخيص اللحظات التي تسمو بالنفوس الى أعلى درجات البطولة أو اللحظات التي تحطّ بها الى أسفل درك الاستسلام واليأس.

لم يؤلّفوا أبياتا من الشعر الا للاشادة بالانتصارات التي حققتها أو لتسليتنا بتقديم شعر حلو شبيه بالمرطّبات التي تقدم الينا بعد الطعام. لم يسعفني الحظ حقا ولربما يعود ذلك الى حسد الآلهة الذين لم يرضوا أن تعادل الملحمة التي كنت أحقّقها ملحمة الالياذة ولم يشاءوا أن تبقى ملحمتي ماثلة الى الابد في ذاكرة النّاس.

لقد سلموني مكتوف الايدي الى مؤرخين متحذلقين أفقدوا مغامرتي الصفة التي تنفرد بها أساسا بين مثيلاتها وهي أنّها تجسيم لحميتي النادرة التي تسمو بي الى مقام الآلهة ولتوقي الى التوغل في المجهول حتى أنتهي الى عتبة الالوهية عند ذلك الحدّ الذي يفصل بين الحياة والموت.

عندما لم تحظ الحملة ببروز شاعرها سقطت بين مخالب المؤرّخين وحدهم كما أصبحت أنا وخلاّن الوفاء فريسة بين مخالب الاطباء الذين كانوا يصحبوننا وهم ينتظرون الساعة التي يتناولوننا فيها بالتشريح ولم يكونوا قادرين على انقاذ هفتسيون من الموت الزؤام.

ربما كان سحرة بلاد الكلدان (47) وكهنتها أقدر على معالجته من أطبائنا ولكن لم أهتد الى الالتجاء اليهم في الساعة التي كان خليلي المحبوب يتجرّع سكرات الموت.

هل كان موته نتيجة حسد الآلهة لي على الصداقة التي أكنها له فاختطفوه مني في الوقت الذي كنت فيه في أشدّ الحاجة اليه ؟

هل حسدوني على تلك الساعة التي وقفنا فيها معا أنا وخليلي أمام ضريح أخيلوس وباتروكلوس بطروادة (48). فأقسمنا على أن ننمّي صداقتنا حتى تصل الى مستوى الصداقة التي كانت تربط بين البطلين ؟

أراني أغلّب شيئا فشيئا هذا الاستنتاج لانّ الآلهة يحقدون الحقد المكين على كل انسان يسمو به سلوكه الى منزلة قريبة من منزلتهم وهم يعتبرون أنّ منزلة الالوهية تعود اليهم واليهم فحسب.

مازلت أتحدث عن الظروف التي أحاطت بحملتي في بدايتها وعوض أن أحاول اضفاء شيء من الترتيب على الاحداث القاسية التي تعاقبت بعد انطلاق الحملة أراني لا أزال أسجّل تلك اللحظات التي عشتها في أعماق نفسي والتي تكوّن مسيرتي الذاتية.

وبالفعل فان تلك اللحظات وحدها هي التي تهّمني في سياق هذا الحديث. تدفعني الى ذكرها بالتفصيل رغبة عميقة وعارمة في أن أحياها من جديد مع ما أوحته اليّ من شعور بالعظمة والتمزّق وما بثّته فيّ من حماس بلغ الذروة ومن تعلّق بالعزلة.

ليست تلك اللحظات ملكا للتاريخ ولن تصبح في يوم من الايّام غنيمة بين يديه بل هي لحظات ذاتية صرف في مغامرة الاسكندر فلن يتناولها أي انسان بالدراسة. همّ جميع المؤرّخين تحليل الاحداث الخارجية الجسام مثل الانتصارات الباهرة والالتحام مع العدوّ واحراق مدينة برقامون (49) وحفلات الاعراس مع أميرات آسيا.

فما هي أهميّة بعض اللحظات التي عشتها في وحدتي ازاء ذلك الخضمّ من الاحداث المدهشة التي صحبت تلك الحملة العسكرية الطموح التي قدتها وأنا

محافظ على عزلتي وانفرادي... ليذهب بها الزمن ولينسها الآلهة. ذاك أفضل لها لانّي لا أرضى أن تسقط تلك اللحظات بين أيدي كتّاب تميل نفوسهم الى الكآبة فلا يتردّدون في مسخ عناصر أخرى من حياتي.

فلتبق اذن تلك اللحظات لي وحدي ولتكن ذكرى لساعات الضيق والالم التي هي نصيب كل انسان في هذه الدنيا.

بشر وآلهة
المتملقون والساخرون

خرّبت مدينة ثيباي في المرحلة الاولى من الحملة. وقد سبق لي أن ذكرت قضائي عليها. فلا أريد أن أعيد ما قلته عنها. ولكن أحسّ بحاجة ملحّة الى التأكيد من جديد على أن إبادة « الكتيبة المقدّسة» كانت من بين وقائع تلك «المغامرة» الجريئة الواقعة التي تركت في نفسي أسوأ الاثر.

اقترف الثيبيون جرائم عدّة فكيف السبيل الى الصفح عن جميعها وكيف الاغضاء عن الأخطاء التي ارتكبوها والمطامع التي جعلتهم ينشقّون عن اجماع اليونانيين أثناء الحروب الميدية ؟

كيف أستطيع أن أنسى — ولو أني حريص دائما على النّظر الى الاحداث بشيء من التجرّد — أن الثيبيين تقدموا في نهاية حرب البيلوبونيز (50) بعرض يتجاوز في البشاعة كل ما بلغ الى علمنا. فقد اقترحوا تدمير أثينة (51) أجمل المدن اليونانية وتسويتها بالارض حتى لا يبقى أيّ أثر لعظمتها ؟

نعم. كل ما قلته عن ثيباي هو عين الحقيقة. وحقّ أن ينالها جزاء ما اقترفت. ولكن أمر « الكتيبة المقدّسة» مختلف. كانت تجسم فترة نيّرة في مسيرة تاريخنا بل كانت لحظة ساطعة في تاريخ البشرية جمعاء تألّقت فيها الصداقة وهي ألمع عاطفة تصل النّاس بعضهم ببعض وسمت الى منزلة قاربت فيها منزلة الآلهة الخالدين...

كان عبور مضيق الهلسبون (52) أول خطوة حاسمة لتحقيق أهدافي. كان عبوره أول الخطوات وأصعبها وكنت أتوقع أن تمكنّني تلك الخطوة الاولى من سبر طاقة جنودي على تحمل الشدائد وعلى الخضوع الى الاوامر.

هكذا كان شعوري آنذاك !

وقد ساعدني ذلك الشعور مساعدة قيّمة كما ساعدني ايماني الراسخ في أعماق النّفس بأن الآلهة لا يتباطأون في شدّ أزري في جميع الظروف. ولذلك لم أتقاعس في تقديم القرابين لهم واقامة الحفلات الدينية لتمجيدهم كلّما فتحت مدينة أو احتللت اقليما من الاقاليم.

وقد بادرت بعد عبور الهلسبون باراقة الخمر من الاكواب اكراما لبوسيدون (53) وبناء مذابح لعبادة زيوس (54) وأثينا (55) وجدّي هيراكليس (56) شيّدتها بيدي.

لا أعلم هل كان الآلهة راضين عنّي عندما شاهدوني أبالغ في اكرامهم بتقديم الاضاحي وبناء المذابح واقامة الطقوس الدينية. ولكن أعلم علم اليقين أن عزيمة ضبّاطي وجنودي تشتدّ وتقوى عندما يلاحظون حرصي على اقامة الطقوس الدينية ويشاهدون ورعي عند العبادة. كان يعرف جميعهم أن نجاح الحملة متوقف لا على مساعدة حلفائنا فحسب بل أيضا على مساندة الآلهة.

ومهما كانت الظروف فان مساندة الالهة نفيسة ولو اقتصرت على شدّ معنويات جنودي في المغامرات التي هم مقدمون عليها والشدائد التي يتأهبون لخوض أهوالها.

اذا أظهر قائدهم ذلك الورع العميق وهم يعرفون قوّة جأشه وعزمه الراسخ على بلوغ الهدف الذي رسمه لنفسه واذا لم يفتأ يقدّم للآلهة القرابين ويبني لعبادتهم المذابح فحريّ بالجنود أن يقتدوا به وأن يتوكلوا أكثر منه على الآلهة في الملمّات الجسام التي تنتظرهم وأن لا يستسلموا لليأس عندما تعترضهم في حملتهم صعوبات عابرة.

أنا أعلم جيّدا أن الكتّاب الاقزام الذين سيقصّون سيرتي وحملتي وخاصة منهم أخبث القوم طويّة سيدّعون عندما يعلقون على سلوكي أن ذلك الورع هو في الحقيقة موقف مصطنع ينمّ عن فطنتي ولباقتي. غايته تقوية عزائم من صاحبني في هذه الرحلة العظيمة وذلك بالاشارة الى أنّ تقوى الآلهة والتقرب اليهم أفضل طريقة لجلب الخير والبركة لهم.

ليكتب هؤلاء الاقزام ما لذّ لهم ! وأتوقّع أنهم لا يقتصرون على اصدار هذا الحكم الجائر عليّ بل سيصدرون أحكاما جائرة أخرى. وحقّ لهم أن يقولوا ما يقولون وأن يصدّقوا كل رأي يخامر عقولهم.

أما أنا فيحقّ لي أن أروي قصتي. وأعني بذلك قصتي الحقيقية كما عشتها بجوانبها النيّرة وجوانبها المظلمة أيضا لانّ مغامرتي تنطوي على قطع كبيرة من الظلام وليال دامسة تغطّي الاضواء الساطعة التي تشعّ من انتصاراتي.

ذكرت الليالي الدامسة التي أطبقت عليّ في كثير من المناسبات ولا يفوتني أن أذكر أيضا ما يهدّد سيرتي في المستقبل فيوشك أن يشوّهها مدى الدهور. سيعمد كتّاب متصنّعون حقيرون أو مؤرخون هواة أو علماء بالصدفة الى دراسة سيرتي فلا يبرزون منها الا انتصاراتي ومشروعاتي العظيمة. وقد يغمرني هؤلاء بوابل من الاطراء الذي لا جدوى من ورائه فأقول في نفسي : لو كنت حيّا في زمانهم وسقطوا في قبضتي لقطعت رؤوسهم الفارغة.

أودّ بهذه المناسبة أن أؤكّد أن المدح البليد الذي لا ينطوي الا على الفراغ خطر ومضرّ مثل النميمة. ذلك الضرب من المدح له طنين يشبه طنين الدنّ الفارغ ويترك الممدوح أضحوكة بين العابثين.

لو خيّرت بين المديح التافه وبين الشتائم البشعة التي يكيلها لي ولابي ديموسثينيس (57) لاخترت الاخيرة.

عندما يستمع المرء الى ديموسثينيس يشهّر في الساحة العامة بأثينة بأخطائنا وخصالنا معا يستطيع ولو كانت له بذرة من العقل فقط أن يميّز بين ما هو نميمة وما هو حقيقة. ولكن يختلط الأمر عند الاستماع الى مديح تافه. فكيف يستطيع المرء أن يعرف ما الذي ينبغي أن يعتمد وما الذي ينبغي أن ينبذ من الكلام الفارغ الذي يقذف به كتّاب الصدفة ضحية هذيانهم ؟

أنا أعلم جيّدا ـــ ويا للاسف ـــ أني سأتعرض في كثير من الحالات لحماقتهم المفرطة وحسدهم الدفين. أنا أعلم أنّهم سينتقمون منّي لاجل كل عمل عظيم قمت به لانهم عاجزون على تصوّر وقوعه ولو في أحلامهم.

نصغّر من كان عظيما في هذه الدنيا بطريقتين متساويتين في النّجاعة : إما بالثلب المفزع الذي يترك دائما في النفس أثرا غامضا شبيها بالضباب الذي يغمر كامل أرجاء المدينة أو بالمدح المسهب الذي يفضي الى الازدراء باشرف الابطال.

أخشى أن لا أنجو من أحد الخطبين. وأتوسل الى الآلهة حتى يجنّبوني — ان شاءوا — تلك المحنة. واذا قدّروا لي أن أجازى بأحد الخطبين فانّي أفضّل أن أكون طعمة في أفواه النمّامين.

الاجدر بي أن يمزّقني هؤلاء بشتائمهم الصادرة عن نفوسهم الشرّيرة المليئة حسدا بدل أن أراني محل السخرية من جراء تملّق محترفي الخطابة ومحتكري الوطنية الضيقة.

واجهت الفرس لاول مرّة على ضفّة نهر قرانيكوس : وكان لقاء حاسما في نظري ونظر جنودي لانّه توّج بنصر باهر أحسسنا جميعا اثره بنخوة لها ما يبرّرها.

ملأ هذا النّصر الاول نفسي غبطة فنظمت الحفلات وأقمت الولائم حتى نحتفل جميعا بهذا النّصر الاحتفال الذي يستحقه.

وسألني أومان عن الطريقة التي أودّ أن يتوخّاها لتسجيل وقائع معركة قرانيكوس في « اليوميات الملكية» بصورة ترضيني وترضي صحبي وتجعل الاجيال القادمة تجد فيها مادّة للشرح والتعليق ودافعا للفخر. فأجبته قائلا :

ـ ان معركة كهذه ليست في حاجة الى الكلام.

وأوكلت له الامر حتى يتصرّف كما يشاء. ولم أطلع على ماكتب بشأن الواقعة. واني لاخشى أن أكتشف يوما أنّه وقع في الفخّ أعني فخّ الاسهاب.

لقد حمّلني انتصاري على الفرس في معركة قرانيكوس مسؤولية عظمى ومقدّسة لا رجوع فيها تفرض عليّ تحرير جميع المدن الساحلية اليونانيّة المزدهرة التي ترزح تحت نير الفرس.

واذا قلت ان تلك المدن كانت مزدهرة فانّي لا ألقي الكلام جزافا ولا أجنح الى نعت قد يشتمّ منه التزلّف وقد قلت من قبل كم أنا أمقت هذا اللون من الخطاب. كانت المدن الواقعة على ساحل آسيا الصغرى مدنا مزدهرة حقّا كان

لكلّ واحدة منها اشعاعها الخاص بها واستطاعت كلّ واحدة منها انشاء حضارة طريفة تميّزت بها على غيرها من المدن.

حدّثني أرسطوطاليس المرات العديدة باعجاب عن العلماء والفلاسفة والفنانين الذين اتصلت شهرتهم بشهرة تلك المدن التي نشأوا فيها. وكان يقول لي أيضا انّ هؤلاء الاعلام لم يفهمهم معاصروهم الفهم الصحيح ولم يدركوا كنه مقاصدهم كما سوف لا تفهمهم أيضا الاجيال القادمة. وهذا ما يقع عادة لامثالهم.

ينبغي أن تمرّ آلاف السنين حتى يستطيع النّاس ادراك ما أتوا به من جديد مبتكر واستيعابه. وسوف ينبني عالم الغد البعيد على أجرأ ما استنبطوه من رؤى بخصوص العلم والفكر وبشأن اللاهوت والناسوت.

نعم. أنا مدين لارسطوطاليس لانّه زرع فيّ هذا الحدس كما أني أغبطه على الموقف الآتي الذي وقفه : ان ارسطوطاليس قادر على أن يخصّ باكبار لا يتزعزع العظماء الحقيقيين الذين هم أهل للاجلال. وانّه يعرف كيف يلقى غيره ذلك الاكبار الحقيقي الصادر عن سموّ نفسه. لم يحقر قطّ عظماء الرجال بصريح العبارة أو بالاشارة لابراز خصاله كما يفعل سفلة العلماء والفلاسفة. كان واعيا تمام الوعي بقيمته الشخصية وبنضج عقله. فلم يكن يشعر بالنقص أمام عظمة الآخرين ولم يتلعثم اذا تحدث عنهم. كان يعترف بكل صراحة بأنّه استفاد كثيرا من دراسة مؤلفات فلاسفة اقليم إيونيا (58) وعلمائها وأنّه مدين لهم بالاطلاع على تعاليم عديدة ساعدته في بحوثه الشخصية عن الانسان ومحيطه.

ولذلك كنت أحسّ بأنّ وازعا ذاتيا يدفعني الى تحرير جميع تلك المدن اليونانيّة التي غمرتنا بأنوار حضاراتها وستغمر كامل العالم بعدنا. وكان ذلك الوازع الذاتي أقوى عندي من ايعاز الآلهة الذين كانوا يأمرونني بانقاذها.

كنت أشعر بتأثر عميق كلما حرّرت مدينة من المدن الساحلية اليونانية بآسيا الصغرى لاني كنت أجدني في كل مرّة مبهورا بنور حضارة طريفة ومميّزة.

أمرت في افيسوس (59) بترميم معبد الالاهة ارتيميس (60) الذي اندلع فيه حريق في يوم ميلادي. وقد ادّعى كثير من الكهنة أن هذه الكارثة التي نزلت

هي نذير شؤم. وقد صدقت تنبؤاتهم فرأيت أن الواجب يفرض عليّ تكريم الالاهة باعادة البهجة والفخار لمعبدها.

كما أحسست في افيسوس أيضا بواجب آخر يفرض عليّ أن أعفو عن بعض سكّانها الذين شهروا السلاح في وجهي. كان أهل افيسوس الآخرون ينتظرون قدومي والامل يملأ قلوبهم ليسترجعوا حريتهم وقد عقدوا العزم على اعدام من حاربني منهم في الساحة العامة حتى يكون مصيرهم عبرة لغيرهم. فامتنعت من موافقتهم على هذا القرار لاني ما كنت أريد أن تلوّث حملتي العسكرية بالتشفّي وكنت أخشى خاصة أن يقع القضاء بهذا الصنيع على عدد كبير من الابرياء تورّطوا مع قلّة من الانتهازيين. ويعلم جميع النّاس أن حقد الجماهير أعمى وأن العقاب الجماعي يجرّ الى ما لا تحمد عقباه.

هيهات ! لو كان هذا الرأي الذي أسجّله الآن على ورق البردي رائدا لي طوال حياتي عند اتخاذ القرار لجنّبت نفسي كثيرا من الزلاّت ولكن الامر كان على خلاف ذلك. وربما تعزى هفواتي الى صروف الزمن والى الشدائد التي نزلت بنا أثناء الحملة والى تغيّر سلوك كثير من أصدقائي نحوي حتّى أصبحوا لي أعداء بعد أن كانوا خلاّني. فساقني ذلك كلّه الى الانحراف عن سداد الرأي الذي لو حافظت عليه لجنّبني الاخطاء.

فتحت تباعا افيسوس وسرديس (62) ومقنيسيا (63) وترليس (64) وموكالي (65) وهليكرنسوس (66). وكنت أشعر بالغبطة تغمرني كلما حططت رحلي في مدينة من تلك المدن. وكانت تلك الانتصارات المتعاقبة تعينني على الاقتناع بعظمة الرسالة التي تحمّلتها.

لا أعلم هل استرجعت تلك المدن بهاءها القديم. ولكن كانت تستحقّ أن تحرر مهما كان الثمن الذي بذلته والتضحيات التي رضيتها والمعارك التي خضتها من أجلها ولو لم تقدم لزائريها الا أطلالا تشير الى سابق بهجتها.

عندما انتهى بنا السير الى هليكرنسوس داهمنا فصل الشتاء وكان شتاء شديد البرد. ولاحظت أن بعض الجنود المقدونيين بدأوا يحسّون بالانهاك. وكان أشدّهم

وهنا الشبان المتزوجون لانّهم أخذوا يحنّون الى بيوتهم وزوجاتهم وأنهم لم ينعموا بدفء البيت وحنان زوجاتهم الا قليلا ثم سيق بهم الى الحرب.

ولاحظ هفستيون ذلك أيضا. فطلب منّي أثناء مأدبة أن أمنحهم اجازة قائلا :

ـ حظهم سعيد لانهم يستطيعون أن يعودوا الى أوطانهم وهي غير بعيدة. وسوف لا يقدرون على ذلك عندما تقودنا الى أقصى الارض. فهذه هي الفرصة الوحيدة التي يستطيعون فيها زيارة بيوتهم.

ما قاله هفستيون هو عين الصواب. ولذلك أمرت بجمع المقدونيين حولي وأعلنت لهم أنّي أمنح اجازة لمن يرغب من بين الشبّان المتزوجين أن يعود الى موطنه لقضاء فصل الشتاء في بيته. ولكن يجب على المتمتعين بهذه الاجازة أن يعودوا عندما يقبل فصل الربيع ليحتلّوا من جديد أمكنتهم في صفوف الجيش. وحمّلتهم مهمة الدعوة من حولهم في أوطانهم للحصول على متطوعة من مشاة وفرسان يصحبونهم عند العودة ليعززوا الجيش.

وهكذا جنيت من هذه العملية ثمرتين : عودة جنودي المقدونيين الينا آسفين على مغادرة بيوتهم الدافئة وفرش زوجاتهم،وقدوم تعزيزات للجيش في صورة جنود جدد يأتون بدم جديد. وكان يشعر جنودي المجازون بعد العودة بأن أيام الاجازة مكنتهم من الراحة ومن استرجاع قواهم استعدادا لشنّ هجومات أخرى.

« ساقه طالعه النّحس الى ذلك المكان »

كنت شديد التعلّق بشعور استقرّ في نفسي وهو أن الثلاثين ألف رجل الذين كنت أقودهم في هذه الحملة التي لا يعرف أحد مآلها هم أصدقائي يساهمونني العزم ويشاركونني التوق الى مواجهة المغامرات.

كانت المحبّة متبادلة بيننا وبالخصوص في بدء المسيرة. وانّما أرغمت بعد ذلك على معاملتهم بشدّة مع محافظتي على المحبّة التي كنت أكنّها لهم. وذلك أن كثيرا من الروابط ما فتئت تربطنا وأهمّها ــ اضافة الى انتمائنا جميعا الى شعب واحد ــ عزمنا على قهر عدّو يجسّم في نظرنا خطرا جاثما علينا منذ أكثر من قرن يهدّدنا ويهدّد مدننا وعيالنا. ولم تكن المحن التي سلّطها الفرس على أوطاننا هيّنة. والحق أقول. لو لم أقد الشعوب اليونانية ما عدا شعب لاكيديمونيا (67) لمواجهة الفرس بعزيمة ثابتة رغم تفوّقهم علينا من ناحية العدد أضعافا مضاعفة لما كفّ داريوس عن الكيد بنا.

كان جنودي يعلمون ذلك علم اليقين وكنت حريصا على ترسيخ ذلك اليقين في أنفسهم قبل أن أخوض معركة إسّوس.

أمرت بدعوة قوّادي وضبّاطي السامين. وطلبت من خلاّن الوفاء أن ينضموا اليهم. وخاطبت جميعهم بخطاب واضح لا لبس فيه. وشرحت لهم أننّا أمام منعرج حاسم للحملة وأنّنا لن نواجه من اليوم فصاعدا جيوشا قليلة العدد ولكن سنقاتل داريوس (68) نفسه على رأس جيش الفرس بأكمله.

لا شكّ أن الموقع الذي اختاره داريوس لخوض المعركة الحاسمة ــ عملا بنصيحة مشؤومة أسديت له ــ قد كان لنا مواتيا. ولكنّ ذلك الحظ الذي أسعفنا به القدر لم يجعلنا نتهاون ولا نتواكل لانّا كنّا نعلم أن الجلد وحده هو الذي يرجح

كفّة الميزان. وأنّه اذا عقدنا العزم على الانتصار انتصرنا كلّفنا ذلك ما كلف. وقد قمت بعمل قبل معركة إسوس بأيام قليلة كان لجيشي مثالا يُحتذى وذلك عندما قطعت عقدة قرديون (69).

كان النّاس يتناقلون بخشوع قولا مأثورا مفاده أن من يوفّق لحل العقدة التي تربط جزءي المركبة المودعة في معبد زيوس بمدينة قورديون يصبح سيد آسيا.

عندما دخلت المعبد لاحظت أن العقدة مشتبكة الى حدّ يستحيل معه على أيّ كان حلّها. وكان قوّادي وخلاّني وأعيان المدينة يزدحمون حولي عندما وقفت أمام المركبة. ويسدّدون اليّ نظرات نافذة فاحصة وهم ينتظرون بفارغ صبر مباشرتي للعملية. لم يترك لي مجال للتملص. لا بدّ لي أن أحلّ العقدة بطريقتي الخاصة لا أن أكلّف نفسي البحث عن أطراف السيور محاولا تخليصها من الاشتباك. فكان ينبغي أن ألجأ الى تلك القوّة الخفيّة التي تولدها العزيمة اذا بلغت منتهاها فتندفع كالنّهر الجرار. فشهرت سيفي وقطعت العقدة.

وكان غرضي عندما قمت بتلك العمليّة أن أبعث في نفوس جميع الحاضرين الدهشة وأفرض شخصيّتي على أصدقائي وأعدائي معا فيقبلوا سيطرتي على الجميع قبول الامر الواقع كانت غايتي أن يقتنع جميعهم بأن الاسكندر المقدوني له طريقته الخاصة لحلّ العقدة. وسيكون ذلك ديدنه كلّما عثر على عقدة في مسيرته مهما كانت العقدة ومهما كان تشعّبها.

ذكرتهم في سياق خطابي بحادثة حلّ عقدة قورديون. فبدا لي أنّهم سرّوا لذكرها. ثم بيّنت لهم أن طريق آسيا ستفتح لنا دون كبير عناء اذا انتصرنا في المعركة التي كنّا على وشك مواجهتها. ولكن ينبغي لنا في هذه الساعة التي نتأهّب فيها لخوض تلك المعركة الحاسمة أن نشهر سيوفنا ابتداء منّي وانتهاء الى أبسط الجنود وأن نستعدّ جميعا لقطع العقدة. ليس لنا الا هدف واحد وهو سحق داريوس.

تعود بي الذاكرة الى معركة إسّوس والى النصر الذي ختمها فأشهد أحداثها كما لو جرت أثناء حلم تقادم عهده فأشعر بالنّخوة.

لاقيت فيها داريوس لأوّل مرة. وكان هو أيضا مقاتلا شجاعا مصمّما على الانتصار. ورأيته وهو واثق من نتيجة المعركة يقابل عدوّا على صهوة فرسه محاطا

بضباطه. فكان داريوس أوّل من هاجمنا. وقفزت على متن حصاني بوكيفالوس (70) ووجدت نفسي بعد لحظات أمام ملك الملوك وأنا شاهر سيفي. وقد انتشر جيشه وراءه كاليمّ الطامي.

كانت تسنده صفوف متراصّة تملأ الرحب. تعلوها صرخات متحمّسة. كان بارمينيون وهفستيون بجانبي. وبعد قطع مسافة قصيرة ركضا على ظهر بوكيفالوس ضرب سيفي سيف ملك فارس. وسرعان ما انهال ضبّاطه المدجّجون بالسلاح من كلّ صوب فأحاطوا به وحموه بأجسامهم جاعلين من حوله سورا منيعا وتركوا له في نفس الوقت فسحة للتقهقر اذا لزم الامر. ولاحقتهم يدفعني الى الامام حماس فيّاض. كنّا جميعا منقضّين عليهم مدفوعين دون هوادة بقوّة وثبتنا الاولى عندما انقضضنا عليهم.

وقاتلناهم ونحن في حالة هيجان وحميّة. وكان الفرس يتقهقرون شيئا فشيئا أمامنا تحت ضغط هجومنا العنيف. مازالت صيحات الفزع تدوي الى اليوم في أذنيّ ومازلت أشاهد أشلاء العدوّ مطروحة في الميدان ومازلت أرى جنودي في أعقاب جموع فارس اللاجئة الى الفرار.

غنمنا غنائم يصعب حصرها وأسّرنا من الجنود ما يفوق العدّ وكان الاسرى يتضرّعون لئلاّ نجهز عليهم. وسبينا أمّ داريوس وزوجته وأبناءه كانوا جاثمين على الارض يتضرعون ويطلبون منّا أن نبقي عليهم. وقد قررت من قبل ابقاءهم أحياء لاني كنت أرى أن الملك ينبغي له أن يبقي على سلالة الملوك. وما كنت أشعر أن موقفي ذلك موقف نبيل بل هو في نظري موقف طبيعي. ولو أني أعلم أن المؤرخين في العصور القادمة سيلبسونه أثوابا لمّاعة تتلوّن بتلوّن موقفهم ازائي. لكأني أسمع أنصاري من بينهم يقولون باعتزاز :

ــ هذا موقف آخر يكشف عن مروءة الاسكندر. سقطت أسرة عدوّه الأكبر في قبضته فعاملها معاملة كريمة وكان قادرا على أن يستغلّ وجود أولئك السبايا بين يديه وفداؤهم لا يقدّر بثمن لاجبار عدوّه الالدّ على الاستسلام.

ولكن مؤرخين آخرين ــ وقد يكون عددهم أوفر من الاولين ــ وهم أولئك الذين يعتقدون أني قمت بحملتي هذه ارضاء لطموح جارف لا تصدّه أيّ عقبة

تعترضه سينعتونني بالمكر والدهاء السياسي ويقولون انّي كنت أرمي بذلك السلوك الى احراز ثقة أحبّائي وأعدائي معا والى جلب اعجابهم بموقف انساني شهم يتمثّل في حمايتي لاسرة داريوس واكرامها.

سحقا لجميعهم ! سحقا للانصار من بيهم وللمناهضين ! نجوت من جموع أعدائي في معركة إسّوس ولن أنجو ــ ويا للحسرة ــ من أحكام المؤرّخين الذين سوف لا يكفّون عن ملاحقتي اما بالطعنات الصادرة عن ضيق آفاقهم أو بشواهد الاعجاب الصادرة عن وهن التمييز.

أمّا داريوس فانّ سوء تقديره للاوضاع قد ساقه الى اختيار موضع إسّوس للقضاء عليّ وعلى جيشي. فكان اختياره شؤما عليه حتى قيل : « ساقه طالعه النحس الى ذلك المكان ».

وان نفس الطالع النحس أوحى الى داريوس أن يرسل الّي رسالتين يندّد فيهما بعزمي على جعل اليونانيين يسترجعون الثقة بأنفسهم وذلك بعد الهزيمة الشنعاء التي كبّدتها إيّاه والتي لم يستطع تقدير حطورتها. وقد أبدى ــ والحقّ يقال ــ حماقة كبيرة بكتابة الرسالتين.

أنا لم أنس أن أجداد داريوس قد كالوا لنا جميعا من الاهانات ألوانا ولم أنس بالخصوص انهم احتلّوا مقدونيا وأن داريوس التاني (71) هرع حهارا لاسعاف أهالي مدينة بيرنتوس (72) عندما دفعت بهم الجرأة الى محاربة أبي.

أجبت داريوس عن رسالتيه اللتين حرّرهما دون أن يتروّى في الأمر وحاولت في جوابي أن أشرح له مآخذنا على أجداده وذكّرته بأنه هو أيضا قد أشعل نيران جميع الفتن التي واجهتها عند اعتلائي العرش ظنّا مه أنه يستطيع اخضاعي لارادته بأيسر السبل باغداق الأموال الطائلة على أعدائي ودفع غائلة أولائك المقدونيين الوقحين الدين يتحاسرون على مازلة ملك الملوك وجيشه منارلة الندّ للندّ.

وأضفت قائلا ــ ولو لم أكن يومها مقتنعا تماما بقولي ــ ان آسيا أصبحت في قبضتي وعليه أن يقبل الأمر الواقع ولو عن مضض وان ليس له الخيار.

وتلقيت جواب داريوس عن رسالتي. واذا به يعرض عليّ عرضا ثانيا. يعرض عليّ كنوزا لا حصر لها ظنّا منه أني سأبهر بهذا العرض المغري وكان يعتقد أن قائد اليونانيين شاب غرّ لا خبرة له في الحياة.

لا شكّ أن للذهب فتنة لا تقاوم بسهولة خاصة اذا وقع عرضه بكميّات هائلة ولو تظاهر المرء الذي استهدف للاعراء الامساك والعفّة. وهكذا كان دأب داريوس مع من يريد اغراءه.

ولذلك بدرت الى ذهن داريوس فكرة التقدّم بذلك العرض الذي يرمي الى اغراقي في أكوام من الذهب مقابل فكّ أسر عياله وانهاء الحرب. وقد عرض عليّ أيضا اقليما شاسعا يقع غربيّ نهر الفرات اقترح عليّ أن أضيفه الى الاقاليم التي فتحتها في آسيـا. واضافة الى تلك المغريات التي قد يهتزّ لها أيّ ملك أقل طموحا وحيرة منّي عرض علي عرضا أخيرا وفّق فيه أكثر من العرضين السابقين : عرض علي أن أتزوج من ابنته. وكان يظنّ أني اذا قبلت مصاهرته أصبحت مواصلتي للحرب وملاحقتي للجيش الفارسي لا مبرّر لهما بسبب انتمائي الى أسرته بعلاقة دموية حميمة.

رفضت الكنوز والاراضي الشاسعة التي كان يتظاهر بمنحها اياي بنفس سخيّة لاني كنت متيقّنا من أني أستطيع أن أستولي على هذه وتلك بكل يسر دون أن أحيد عن هدفي الأول وهو بلوغ أقصى الارض بعد القضاء النهائيّ على مملكة فارس.

أما عرضه زواجي من ابنته ــ وقد أظهر لي أن ذلك العرض الصادر عن شعور أبيّ لا شائبة فيه هو غنم لي لا يعد له غنم ــ فلم يحيّر فيّ ساكنا لانّ الفتاة كانت سبيّة عندي وأستطيع مضاجعتها متى شئت.

واليوم وأنا أعيد ذكرى تلك اللحظات تتجاذبني الخواطر فأقول في نفسي : يحدث لعظماء هذه الدنيا أو بالاحرى لمن نعتبرهم نحن عظماء أن يرتكبوا حماقات. أهداني داريوس ما كان عندي وتظاهر بالتنازل لي عن جزء ضئيل من الاقطار التي احتللتها ! ونسي أن الحرب القائمة بيننا نتيجة لقرون من الاطماع والطموحات والاحقاد وأن كلّ حلّ وسط في حرب كهذه أسوء من أبشع الهزائم لان أصدقائي وحلفائي لن يغفروا لي أيّ تواطؤ ولن يغفر لي ذلك أيضا أعدائي

في ذلك الظرف الحاسم الذي أقبلت فيه الايّام وكان كل شيء لي مواتيا : الآلهة والظروف الزمانية والاوضاع الجغرافية.

لو دخلت في مساومة مع داريوس وتنازلت له مقابل قناطير من الذهب وما التزم به من وعود أخرى لا ستنقصني أصدقائي وحلفائي وأعدائي ولفقدت حملتي معناها. ما أحقر تلك المساومة اذا قورنت بحلمي الجريء الذي أثار آمال جميع اليونانيين سواء آمال من رضوا بي قائدا أو آمال من أرغموا على ذلك فخضعوا للامر الواقع. فمباركة الجميع لسعيي ومساندتهم لي منذ بداية الحملة لا تسمح لي بالتنازل والمراكنة.

ليس لي الا جواب واحد أجيب به عن رسائل داريوس المحمومة وعروضه الخرقاء وهو تعزيز الصفوف ومواصلة الزحف بتسخير كل ما أوتينا من قوّة مهما كانت خطورة العقبات التي تعترض طريقنا.

عزّزت الصفوف وواصلت الزحف رغم تعنّت العدو الذي كان يقاومنا بشدّة لانّه يعلم جيدا أنّ الحرب ستنتهي لا محالة بالقضاء المبرم على أحد الخصمين وأن العالم أضيق من أن يتحمّل وجود دولتين عظميين في وقت واحد.

كلفتني مقاومة الفرس المستميتة خسائر في الارواح وضياعا للوقت، وأرغمت في تلك الظروف الحرجة على محاصرة مدينة صور وكان حصار المدينة مهكا ولم نستول عليها الا بعد بضعة أشهر.

أشعر في هذه الساعات التي أبوح فيها بخفايا نفسي بالحاجة الى أن لا أخفي شيئا ممّا كنت أحسّ به. لكأنّي أنظر الى نفسي في مرآة. أعترف والاسى يغمرني بأني استسلمت أحيانا الى اليأس أمام أسوار صور وفي مناسبات أخرى.

كانت تهزّني نخوة انتصاري في معركة إسّوس، فكنت أتوقع أني سأحتلّ صور في ظرف أيام قليلة وأني أستطيع بعد احتلالها اكتساح سوريا ومصر ولكن الأمور لم تجر كما كنت أتوقّع. لقد مكثنا أشهرا حول أسوار المدينة واستعملنا في حصارها جميع المعدّات التي كانت بين أيدينا واستخدمناها ونفوسنا تلتهب حماسا فضاعفنا فاعليتها ونفاذها. ولكن حماة المدينة واجهونا في كل هجمة ببطولة نادرة طوال ذلك الحصار الشديد، وكنت أرسل اليهم أحثّهم على الاستسلام وأهدّدهم اذا

أصروا على المقاومة بهدم كامل المدينة وتقتيل جميع سكانها. فكان جوابهم في كل مرة أن قاومونا بمزيد من الجلد والبسالة.

فهمت أنّي قد أضيع كثيرا من الوقت اذا لم أعثر على خدعة تمكّن من احتلال المدينة، وأن لا فائدة في إضاعة الوقت لمواصلة حصار لا يرجى من ورائه الظفر. فدعوت قوّادي وخلاّني، وعرضت عليهم خطّتي. وهي خطّة تهدف الى اقتحام تحصينات القلعة في وقت واحد ومن جميع الجهات من طرف كتائب مكوّنة من خيرة الجنود نرسلها عندما نتمّ بناء قناطر تربط بيننا والقلعة من جميع جهاتها.

وقضينا أياما وليالي في النقاش لوضع الخطّة في صورتها النهائية، وكنت أتظاهر بالانصات الى نصائح قوّاد جيشي ولكن الخطّة كانت مرسومة في ذهني بجميع جزئياتها ولا تحتاج الا الى منسّق للعمليات يسهر على تطبيقها بكل اتقان وحسب القواعد الحربية المجربة. وأنا أقدر الجماعة على تنفيذ الخطة ولو أني لا أستنقص كفاءة أعضادي. ذلك أن آراء الآخرين مهما كانت صائبة وراجحة لا تنفع في ظرف حاسم ستبرز فيه نتيجة حصار كبّدنا خسائر جسيمة في الارواح ومضيعة للوقت بل ان تعدّد الآراء يبث البلبلة في النفوس فتكون النتائج التي تنجرّ عنها وخيمة.

لا حاجة الا الى رأي واحد رأي القائد الاعلى الذي يقود جيوشه اما الى النّصر وإما الى الهزيمة.

وبالفعل فقد أحرزنا على نصر عظيم بفضل خطّتي. سقطت مدينة صور. وما قدرنا على اقتحامها الا بعد حصار مرير دام شهورا. ولكنّها سقطت. وكان جنودي يحسّون في آن واحد بنخوة النصر وبانهاك شديد. وفطنوا بعد حصار طال واستطال بأن قائدهم يكسب بالاضافة الى خصاله ونقائصه قوّة مدهشة تطمئنهم وتخيفهم في نفس الوقت وهي قوّة الاصرار على تنفيذ ما قرّره.

قد رأوني أحارب في المقدمة غير مكترث بالاعداء الذين كانوا يحيطون بي من كل جانب وقد رأوني أيضا أندفع أول النّاس نحو العدّو في الوقت بالذات الذي يكونون فيه في وضع حرج أو عندما يبدأون في الانسحاب تحت ضغط الاعداء.

كنت أول من يعرّض بحياته في سبيل الهدف الذي ينبغي بلوغه حتى يدرك جنودي أن بلوغ ما نطمح اليه أعلى ثمنا من الحياة نفسها.

ولاحظ جنودي فيما لاحظوا أن قوّادي كانوا يعارضونني ويتساءلون هل من المفيد أن نضيع وقتا طويلا في حصار مدينة صور ويدّعون أنه كان من الانسب أن نواصل حملتنا في اتّجاه آخر.

ضايقتني تلك التحفظات التي كشفت عن حرص هؤلاء على تجنّب الصعاب والابتعاد عن الاخطار أو بالاحرى وبعبارة خشنة تترجم عن شعوري آنداك اشمأززت لتحفظاتهم

قد يرجأ تنفيذ خطة ما ولكن لا ينبغي أن تقف أيّة عقبة في طريق الحلم الطموح. واذا اعترضت عقبة فصدّت الطموح ينبغي أن نجد في أنفسنا من القوّة ما يجعلنا نذلّل تلك العقبة مهما كان الثمن ولو كان ذلك الثمن بذل حياتنا.

بابي الخفيّ

احتللت مدينة صور ثم فتحت فينيقيا (73) وسوريا (74) واقليم غزّة (75) ودخلت أرض مصر.

ها أنا بمصر ! وعاد الى ذهني ولازمه كلّ ما كاشفتني به أولمبياس بشأن سلالتي الالهية ونسبتي الى الاله أمّون (76).

مازلت أذكر كيف كانت تجتهد منذ عهد الطفولة الأولى لتلقيني الفكرة الطاغية على أحاسيسها والمسيطرة على حالات الابتهال والوجد التي كانت تعيشها وهي أن ابنها هو ابن الاله أمّون وذلك في مرحلة من العمر يحسّ فيها الصبيّ بأحاسيسه الأولى فيتفاعل معها أولى تفاعلاته.

ولما ثار بيني وبين فيليبوس شجار شديد اللهجة بسبب زواجه المزري من كليوباترا (77) التي هي في سنّ ابنته وصحبت أمي الى مملكة إبيروس حاولت هذه الاخيرة أن تغرس في نفسي تلك الفكرة من جديد بحماس مضاعف.

كانت أولمبياس طول مدّة المغاضبة التي قضيناها في قصر أخيها ملك المولوس (78) تستنكر سوء معاملة فيليبوس لها وتحاول في نفس الوقت اقناعي بأن تصرفات أبي نحوها صادرة عن الغضب الشديد الذي استولى عليه عندما علم أني ابن إله وأني أحمل في نفسي بذرة من عالم اللاهوت.

وكانت تصطحبني الى معبد زيوس بدودونا (79) وهنالك بجانب شجرة السنديان المقدسة (80) تحاول أولمبياس الحصول على تنبّؤات بشأن القوّة التي تمتلك كياني تلك القوّة التي سيخضع لسلطانها العالم بأسره في يوم من الأيّام.

ليست تلك القوة قوّة بشرية ولا شكّ لانه لا يقدر أيّ انسان بمحض ارادته وطموحه أن يسيطر على العالم بأسره. لا يستطيع ذلك الا إله. اذن فأنا إله.

كانت أمّي تصيخ الى هفيف الريح في أوراق السنديان المقدّس وتفسّرها بطريقتها الخاصة وتجعل جميع التنبّؤات تفضي الى نفس النتيجة وهي أني كائن لن يقهر أبدا في حرب وأن ليس لي أيّة صفة بشرية ما عدا انفعالاتي العاطفية.

كنت صغير السنّ في ذلك العهد ولذلك آلمتني تصرفات فيليبوس أيّما إيلام وبقيت مع ذلك أحبّه وأكبره في قرارة نفسي.

ساهمت في معركة خيروني وكنت على رأس الخيّالة. وفطنت أثناءها أن لي قوّة تتجاوز دائما الحد الذي ترسمه لها ارادتي.

وتأكّدت ممّا انكشف لي عندما حدث أن واجهت في مدينة كورينثه (81) ملوكا وزعماء أذكياء وفطنين أتوا من جميع الاقاليم اليونانية. وكنت أصغرهم سنّا. وكانت نتيجة لقائي بهم أن قبلوا أن أكون قائدهم الاعلى ووقّعوا بدون أيّ تردّد على اتفاق ينصّ على ذلك.

لم يحدث كل ذلك بمحض الصدفة لان اليونانيين لا يقبلون بيسر أن يؤمّر أحد عليهم ولو خشوا غائلته. ولا يؤمّرون أحدا على مجموع قواتهم ولو قدّروا مواهبه ومهارته وراعوا مصلحتهم الخاصة الا اذا أحسّوا بأنه مدفوع بقوّة ترغمهم على قبول سلطانه عليهم أو في أفضل الحالات تخفّف من اعتراضاتهم وتخوفاتهم.

ما أغرب ما أحسّ به من ثقة بالقوّة الرابضة في نفسي. انها تفوق القوى البشرية وان الثقة التي تبعث فيّ تسمو الى مستوى النشوة.

أحاول أحيانا التخلّص من ذلك الشعور وذلك عندما أخلو الى نفسي أو عندما أجدني أتضوّر من ألم الجراح التي أصبت بها أثناء المعركة مثل أيّ جندي من جنودي أو أيّ ضابط من ضبّاطي.

كنت أقول في نفسي : انّ ذلك الشعور ليس له أيّ سند منطقي ولا تستطيع عقولنا فهمه الا اذا فحصته من الزاوية العقائدية الصوفية مثلما تصنع أولمبياس عندما تباشر الاحداث محاولة تفسيرها.

ورغم كل هذه الاعتبارات فانّي ما انتهيت الى الشكّ المطلق فيما كنت أحسّ به من قوّة خفية خارقة لجميع الحدود وربما لم أكن حريصا على الوصول الى الشكّ فيها.

وهنا في مصر زال عنّي وسواس الاسئلة التي كنت ألقيها على نفسي دون انقطاع وانطلقت بخطى ثابتة للقاء مصيري وباشرت عن كثب صفتي الالهية وانتسابي الى الآلهة في ذلك البلد الذي ازدهرت فيه حضارة ضاربة في القدم استطاعت أن تسبر بعمق يتجاوز طاقة البشر الاسرار الكبرى أسرار الحياة والموت.

عندما قدّمت القرابين بمعبد أبيس (82) بعد دخولي المظفّر مدينة هليوبوليس (83) استقبلني كهنة المعبد كما لو كنت إلها. وما كان هذا منهم تزلّفا. كما استقبلني قبلهم بنفس الحماس اليهود وحاخاهم الأكبر. وقد أعلن هذا الاخير أن الكتب المقدّسة تنبّأت بقدومي الى بلادهم.

ومن الغد غشيتني حمّى شديدة دون أن أعرف لها سببا. وأراد الأطبّاء قذفي برأيهم فقالوا انّي حممت لأنّي شربت من ماء مصر في حين أنّي استحممت بالماء البارد وأنا عرقان. كلامهم عين الخور لاني كنت في تلك اللحظات والرعدة تهزّ بدني أستمع الى صوت أولمبياس يناديني ويكرّر النداء ملحاحا قائلا لي : تأهّب في بلد الاسرار هذا الى ملاقاة أبيك الحقيقي. لقد دقّت الساعة التي قرّرها القدر.

ولما شفيت قرّرت الذهاب الى معبد أمّون في صحراء سيوه. فحاول خلاّني جهدهم ومن بينهم هفستيون صدّي عن تلك الزيارة بمختلف الحجج. كانوا يقولون لي اني أعرّض بنفسي دون مبرّر للخطر. ذلك أن المعبد الذي تلتمس فيه تنبؤات الاله يقع على مسافة بعيدة من مدينة منفس (84) التي كنّا نقيم بها وأنّه يبغي لي أن أقطع صحراء مصر كلّها تقريبا لاصل اليه مع معاناة الحرّ الشديد. ولمّحوا لي أن الحملة العسكرية التي قدتها والمرض الذي أصابني أنهكا قواي. ونصحوني بأن أقلع عما عزمت عليه لاني لم أفكر في الامر برويّة ولم أقدر أخطار الرحلة حقّ قدرها.

كان كل واحد منهم ينمّق حطابه ويطيل ويوضّح الاسباب التي تجعله ينصحني بالاقلاع عن عزمي ويبدي في النّهاية بالرأي «السديد». وكنت بينهم كالغائب عنهم. لقد انتقلت ــ وهم يتحدثون ــ هنالك في معبد الاله في ذلك المعبد الذي هو معبدي أصالة وشعرت بأنّي واقف أمام الباب الخفيّ.

وعندما أنهوا تقديم اعتراضاتهم على ما عزمت عليه لم أفه بكلمة واحدة و لم أكلّف نفسي تأكيد عزمي على الذهاب الى المعبد ولو عرّضت بحياتي للخطر. واكتفيت بأن طلبت ممّن يريد أن يصاحبني بأن يعرّف بنفسه. و لم يكن في لهجتي ما يوحي بأني آمرهم أو أنصحهم أو أعبّر لهم عن أمنيّة ينبغي أن يستجيبوا لها اذا أرادوا أن لا يغيظوني. كنت أثق بحصافة رأيهم وما كنت أشكّ لحظة في أنّي قادر على قطع الصحراء وحدي مشيا على الاقدام ليلا ونهارا حتى أبلغ الهدف الذي رسمته لنفسي وأنتهي الى المكان الذي ألبّي فيه رغبتي.

كان هفستيون أوّل من استجاب لدعوتي. وفحصته بدقّة حتى أفهم ما الذي دعاه الى اتّخاذ قراره. هل كان حريصا على أن لا يتركني أواجه وحدي أخطار تلك الرحلة عبر الصحراء أم هل أدرك أن تلك الرحلة لها صبغة الضرورة التي تفرض نفسها بنفسها ولا تترك مجالا للتملّص. ولكن لم تكشف ملامح وجه هفستيون عن أيّ تأثّر بل بقي ينظر الينا بنظرته الصافية العذبة المعروفة لدى الجميع.

وتشاور جماعة من خلاّني ممن كانوا أقرب الى نفسي وأجمعوا على أن يصحبوني. فما ألقيت فيهم خطابا وانما اكتفيت باعلامهم بأن رحلتنا ستبتدىء في اليوم الموالي عند طلوع الفجر.

ربما كان ذلك السفر شاقّا منهكا ولكن لم أتذكر منه شيئا. امّحى كل شيء في ذاكرتي ما عدا ذكرى تلك اللحظة عند الاصيل وقد وصلنا الى واحة سيوة فرأيت على خط الافق معبد الاله أمون فنخست جوادي بوكيفالوس حتى يسرع في العدو فنقطع المسافة التي كانت تفصلنا عن معبد نبوءة أمّون في شوط واحد.

كان الكهنة ينتظرونني على عتبة المعبد. وقال كبيرهم بكلّ بساطة :

ـ كنّا نعلم أنّك ستأتي فبقينا ننتظر قدومك.

وأدخلوني المحراب وشاهدت أمون جالسا على عرش من ذهب تحيط به أشجار من ذهب أيضا. و لم يدخل داخل المعبد أحد غيري وصحبني الكهنة وهم محلّفون على كتمان السرّ. فلم يطّلع أحد على ما جرى داخل الحرم و لم يشاهد أحد مقابلتي لأمّون وسط عجاج من البخور الشذيّ المتصاعد من كل ركن من أركان المعبد.

كلّ ما سيقوله الناس أو يكتبونه بعد موتي عن هذا اللقاء سيكون صادرا عن افتراضات بسيطة يفترضونها أو يكون من صنع خيالهم لاني أنا الوحيد الذي

أدركت أبعاد ذلك اللقاء وأنا الوحيد الذي أحسست بأن ذلك المشهد بعث فيّ قوة استطعت بفضلها تجاوز قدرات طبيعتي البشرية لبلوغ الغاية التي حدّدتها لي طبيعتي الالهية.

رفع عنّي هذا اللقاء جميع الحجب. وزرع في نفسي خشوعا لا يفهم كنهه غيري وقد يحاول بعضهم تحليل تلك الحالة النفسية. كلّ حسب رأيه وحسب قدرته على تجاوز الحدود الضيّقة التي يفرضها المنطق على الانسان. ولكن لا يهمّني من أمرهم شيء بعد أن سعدت بذلك اللقاء السرّي في صحراء سيوة. لقد تمكّنت هنالك من الدخول الى المحراب من الباب الخفيّ الذي لا يسمح بولوجه الا للكهنة وللآلهة الخالدين.

وفجأة شعرت لا بدافع الطموح أو التعنّت المزري بل بتأثير قناعة متغلغلة في النفس أنّ جميع مشروعاتي قابلة للتحقيق وأنّ البشرية جمعاء — ولا أستثني منها الاجيال القادمة — تنتظر منّي جليل الاعمال. فعقدت العزم على القيام بالرسالة الملقاة على عاتقي.

عندما عدت الى منفس -ـ ٭، يعسكر الجيش داهمتني مضايقات كثيرة. لقد لاحظت بوضوح في كلّ حركة يقوم بها رجال الحاشية وفي كلّ كلمة ينطقون بها أن جميعهم وحتى أقربهم الّي ينكرون حقيقة ذلك الكشف الذي غمر نفسي وذهب فيلوتاس ابن قائدي الجليل برمينيون وأعزّ خلاّني الى الاعتقاد بأنّه قادر على تخليصي ممّا يعتبره وهما أضلّني ولكن لم يجرؤعلى مخاطبتي فوجّه الّي رسالة قاسية اللهجة أراد بها اشعاري ولو من بين السطور بأنّ كافّة الجنود يستنكرون اصراري على الادّعاء بأنّي من سلالة الآلهة وبأنّه هو شخصيا يأسف كثيرا أن يرأس اليونانيين إله بدل مقاتل بطل.

لم أستسلم للغضب كما وقع لي في مناسبا ت أخرى لانّي كنت أجلّ برمينيون الذي عاملني في كثير من الاحيان معاملة الاب ولانّي كنت أنزل فيلوتاس منزلة الاخ. ولكن كنت أشعر مع ذلك بالالم لان بعض خلاّني وبعض ضبّاط الجيش كانوا يرمونني بالهوس ولا يتجاوبون مع شعور عميق كنت أحسّ به لانّ ذلك الشعور الذاتي آت من أغوار سحيقة لا يقدرون على تصوّرها.

كنت متألّما ولكن كنت مع ذلك أعتقد أنّه لا يستطيع أحد في الدنيا أن يسلخ عنّي تلك القناعة أو اذا شئتم ذلك الوهم.

لا يهمّ غيري ما طرأ علي في حين أن حالة التجلّي التي عشتها أسعدتني أيّما اسعاد ومنحتني قوّة مضاعفة وشجاعة نادرة. فغدوت قادرا على بلوغ أقصى الارض.

كان هفستيون هو الوحيد الذي لم يسخر بي و لم يستنكر سلوكا أثار امتعاض سائر خلاّني. وهذا أمر طبيعي لانّ هفستيون كان عديلي وفلقة من ذاتي.

وقد حدثنا أفلاطون عن ذلك العديل المماثل لكل واحد منّا الذي يتقمّص أعزّ أصدقائنا. فاذا بالجزء من نفوسنا ومن أجسادنا الذي انعزل عنّا يعاد الينا بعد سنوات أو بعد قرون في الساعة التي نلاقي فيها الصداقة.

كيف يكون لهفستيون شعور مخالف لشعوري ؟ كيف يستطيع استنكار ما منحني السعادة المثلى وما كنت أحمله منذ نعومة أظفاري أي منذ حدثتني أولمبياس لاول مرّة عن نسبي الالهيّ ؟ كيف لخليلي هفستيون أن يستنكر شعورا غرس في نفسي منذ عهد الطفولة فترعرع وازدهر ؟

اسكندريتي وبابل

حاولت الاغضاء عن الغضب الذي كان يتصاعد حولي يوما بعد يوم. وقرّرت المضيّ قدما لتحقيق أحد أحلامي :

بنيت في كل قطر حللت به غازيا أو حليفا مدنا أردت أن تبقى منارات على الطريق التي قطعتها في غزوتي. وأصدرت تعليماتي الى من كان معي من المهندسين المعماريين ومهندسي الاشغال حتّى يشيّدوا المدن الجديدة حسب الخطة التي كنت أتخيّلها. فأمرتهم بأن بينوا فيها مسارح لتعليم فنّ المسرح وملاعب لتدريب الرياضيين وساحات عامّة لتمكين الخطباء من الاتصال بالجماهير والسياسيين من عرض نظرياتهم في تنظيم المجتمع. ومنحت اسمي لاوّل مدينة أسّستها بدافع طموح أراه مشروعا فسمّيتها الاسكندرية.

وقد سبق أن سمي المهندسون المعماريون والصنّاع الذين صحبوني كثيرا من المدن باسمي تقرّبا لي.

لقد أسّست مدنا كثيرة تحمل اسم الاسكندرية وكانت جميعها تروق لي وكنت أحبّ جميعها بنفس القدر لان بناتها راعوا رغباتي عند تشييدها. ولكن لم تكن احداها مطابقة تماما للصورة التي رسمتها في مخيلتي مطالعاتي وأحلامي.

وهنا في مصر كما لو كان نسبي الالهيّ يلهمني ويملي عليّ ارادته كنت مدفوعا برغبة ملحّة الى أن أبني مدينة تكون مطابقة تمام المطابقة للصورة التي رسمتها أحلامي.

لقد وضعت الخطوط الكبرى لمثالها. واخترت أيضا موقعها وأصدرت تعليمات واصحة للمهندسين وأمرتهم بتنفيذها بدقّة.

وأبدى مهندس من أثينة بعض الاعتراضات. كان يعارض اختيار الموقع وينصح بأن لا تجمع كثير من المنشآت العامة في مكان واحد. فلم أترك له المجال ليدلي بجميع ملاحظاته وقلت له بلهجة صارمة :

ـ هذه المدينة مدينتي. هي اسكندريتي.

فسكت المهندس وبقي قابعا في مكانه يحرك رأسه كما لو كان مقتنعا بقولي. وما كان ذلك الاحمق قادرا على فرض رأيه عليّ.

وأمرت المقاولين بأن يشرعوا في الاشغال بدون تراخ لانّي كنت أودّ أن أتمتّع برؤية مشروعي مجسّما وأن أشاهد اسكندريتي ترفع حسب مخطّطاتي وتستكمل بهجتها واشراقها وتزدان بالمباني العظيمة وقاعات الطرب يحيط بها البحر من كلّ جوانبها.

ولما وعدوني بانجاز المشروع حسب رغبتي واصلت الحملة بعزم مضاعف. ولكن لم يكن لجنودي نفس الحماس الذي كان يدفع بهم في بداية الحملة لانّ الشكوك بدأت تدبّ في نفوسهم. ذلك أنّنا انطلقنا في تلك المرّة لغزو اقليم ما بين الرافدين وهو اقليم ازدهرت فيه عدّة حضارات تأثّرت بمناخه وطبعت بطابعه و لم تقدر على مقاومة الدهر الذي نال منها ففتتها شيئا فشيئا والدهر يأتي على كل شيء.

وقبل أن نصل الى اقليم ما بين الرافدين اصطدم جيشي من جديد بداريوس الذي حاول بشجاعة نادرة وبعنف شديد صدّنا عن ممتلكاته. ودارت المعركة بين الجيشين بقوقمالا.

اذا أخذت أعيد ذكرى الاحداث التي جرت مع ذكرياتي الشخصية مثلما أفعل الآن و اذا شرعت في تعداد انتصاراتي فانّي أخشى الملل والسآمة. ولذلك أكتفي بذكر معركة قوقمالا دون أن أضيف الى ذكرها شروحا وتعليقات. وسيكون ذلك دأبي بالنسبة الى الانتصارات الاخرى فيما بقي من حديثي تاركا للمؤرّخين بعدي ولخبراء الحروب فرصة الاستيلاء عليها لتشريحها.

نفسي توّاقة الى الوصول سريعا عن طريق الذكرى الى بابل ومشاهدة دخولي المدينة من باب إشتار [85] البديع وأنا راكب العربة المصفّحة بالذهب وهي عربة غمتها من الفرس لا تقدّر بثمن. أقفز بذاكرتي حتى أسمع مرّة أخرى صيحات

النصر وأشاهد الرهبان والكهنة ساجدين عند قدميّ في مدخل المدينة يحيونني ويطلقون عليّ اسم « صاحب المعمورة». نعم. أنا صاحب المعمورة ومحررها في نفس الوقت وكنت أحبّ أن يسموني بهذا الاسم.

وما ان حللت بالمدينة حتى أمرت بترميم معبد بابل الاكبر [86] واعادة بنائه في شكله القديم ذلك المعبد الذي خرّ به كسر كسيس [87] في نوبة من الغضب الجنوني المقيت اعترته عندما أتاه نبأ الهزيمة النكراء التي كبّدها اليونانيون لاسطوله وجيشه في معركة سالامين.

وكان لقراري أثر عميق لا في نفوس الكهنة فحسب بل في نفوس أعيان المدينة وعامّة النّاس أيضا لانّ جميع سكان بابل متديّنون الى أبعد الحدود. ذلك لانّ أرض ما بين الرافدين المعرضة للفحات الشمس المحرقة قد شاهدت بزوغ أديان عديدة توالت على تربتها وغمرت ساكنيها نورا أو غطتهم بالظلمات. وسواءأأنارت سبيلهم أم أضلتهم فانّها غرست فيهم إيمانا يفتقرون اليه مثلما يفتقرون الى الماء والهواء.

وانتقدني النّاس مرة أخرى وقال بعضهم انّه كان ينبغي أن أتّخذ قرارات أخرى تعود على النّاس بالفائدة عوض أمري بترميم معبد إله المدينة الاكبر وقالوا أيضا ان قراري صادر عن خدعة أرمي من ورائها الى كسب نفوس السوقة المتشبثة بعقائدها الفاسدة التي تدفع بها الى عبادة الشمس واقامة طقوس دينية سرّيّة للتقرب منها.

وأمسكت عن تلك الانتقادات وما كلّفت نفسي دحضها. كنت مصرّا على أن لا أجيب وأن لا أبرّر ساحتي أمام هذا السيل من الشكوك التي تتعمد استنقاص كل بادرة تصدر عني. كنت أحسّ بضرورة ملحّة استولت على كياني وكانت تدفعني الى أن أجعل من بابل مركز القيادة.

وها أنا عدت من جديد الى بابل في هذه الساعة التي أكتب فيها هذه السطور لأروي مراحل حياتي وأكشف عن النّوايا الكبرى التي أردت تحقيقها. واني أدرك الآن بأكثر وضوح ما الذي شدّني الى هذه المدينة وما يشدّني اليها مدى الدهر شدّا وثيقا ومفروضا عليّ فرضا.

تشدني عظمتها، ويستهويني أفول نجمها، وأميل الى تقى أهلها، ويهزّني ذكرى مجدها القديم.

فبابل ترمز في مرارة الى حظّ الانسان الفاني في دنياه هذه. ولو كان ذلك الانسان عزيزا مثل نبوكدونصر [88] الذي أنشأ الحدائق المعلّقة الشهيرة احياء لذكرى زوجته وتمجيدا لسيّد الارض والعباد، القاهر الذي لا يقهره أحد، أعني الموت.

أما أنا فانّي أعتقد أن ليس الفناء نصيبي. ولست بشرا عاديّا يهدّده الموت في كل خطوة يخطوها. تلك العقيدة انغرست في نفسي في مصر في اليوم الذي وجدت فيه نفسي أمام أبي الهول وفككت لغز ابتسامته ثم ذهبت الى معبد أمّون فأيّد الكهنة قناعتي. ومازالت هذه القناعة تلازمني وتراودني هنا في بابل.

لا، ليس من نصيبي أن يهبّ عليّ إعصار التاريخ المدمّر فيتركني تحت غشاء من الرماد والصمت. لقد قضيت على جموع من أعدائي لا يحصيها عدّ، وهزمت داريوس المرّات العديدة. وصمدت أمام البرد والعطش وحرّ الهجيرة والمرض. وأسّست في كل مكان مدنا ستكون شاهدة الى آخر الدهر على أني عبرت يوما بهذه الدنيا فغيّرت وجه العالم.

باسم الاله الذي فطرني أعلن بأنّه لا يستطيع أحد محو ذكري.

الاسكندر المقدوني يريق الخمر تقربا للالهة

ها قد أتى اليوم الذي أقسمت فيه بالايمان المغلّظة أن أثأر لليونانيين الذين أذاقهم الفرس ألوانا من العذاب طوال عشرات السنين.

مررت سريعا بمدينة السوس وأنزلت عائلة داريوس مكانا يليق بمقامها وهو قصر ملوك فارس. رأيت أن أضع حدّا لتسيارها وراء جندي. ولم أمسّ المدينة بسوء.

فخفّف ذلك العمل الكريم من قسوة القرار الذي وطّنت عليه نفسي منذ اللحظة التي انطلقت فيها لخوض هذه المغامرة وهو تقويض برسيبوليس (89) وتسويتها بالارض لانّها كانت رمزا لكبرياء الفرس ومجد ملوكهم. فهي تشهد لزائرها عندما يلقي عليها أول نظرة على صلف من بناها. وقد كانت الوفود تفد عليها من جميع أصقاع العالم ومن ضمنها وفود اليونانيين. وتقف عند بابها الرئيسي لتبلغ ملك الملوك آيات ولاء شعوبها. وأن الرسل الذين قدموا الى بلاد يونان مطالبين أهلها بأن يهبوا لملك الفرس الارض والماء ليقوا أنفسهم من غائلة جند فارس انطلقوا من تلك المدينة الطاغية.

حقّا انّي لم أشعر بأيّة شفقة نحو مدينة برسيبوليس عندما أمرت باشعال النيران في جميع أرجائها حتى لا يبقى منها أي بناء قائما. واختطفت مشعلا وذهبت الى القصر الذي دبّرت فيه الخطط التي تولّدت عنها العديد من الكوارث التي انصبّت على الشعب اليوناني. ووقفت عند بابه. ورميت بالمشعل وطلبت من الضباط الذين كانوا يصحبونني أن يقتدوا بي فيرموا القصر مثلي بالمشاعل.

وحاول برمينيون مرّة أخرى أن يثنيني عن عزمي قائلا ان ذلك القصر أصبح ملكي وفي يدي فلا فائدة اذن في احراقه لانّي اذا أحرقته أضعت ما غنمت.

وتركت نصيحته جانباً لانّها كانت تتنافى مع ما عزمت عليه وتناقض ما كنت أراه واجبا مفروضا عليّ فرضا.

كان ذلك القائد الشيخ يرى الأمور من وجهة مطقية ضيّقة تدفع به الى محاولة صدّي عن صنيع سيعتبره النّاس في الحاضر وفي المستقبل أيضا عملا وحشيا لا يليق بمقام ملك مقدوني حظي بالتشبّع بتعاليم أرسطوطاليس.

ولكن في تلك اللحظة التي كنت فيها أمام القصر لم تكن لي الا غاية واحدة وهي انصاف اليونانيين الذين سبقوني ولو بتلك القسوة. وهم أهل لذلك لانّهم وقفوا في وجه داريوس (90) وجيوشه الغاشمة ببطولة نادرة وخاضوا لصدّه حروبا طاحنة.

كنت أنظر الى النيران تلتهم القصر وأستمع الى أزيز الحريق وأحسّ بأن لحظة الانتقام والتدمير التي كنت أحياها كانت أيضا لحظة لها أبعاد روحية.

كان الحريق الذي أضرمته بمثابة طقس ديني وقف أثناءه الاسكندر المقدوني خاشعا متضرّعا أمام الالهة يريق الخمر من الاكواب قطرات متوالية تقربا للالهة حتى يباركوا أرواح أولائك الذين ضحّوا بحياتهم وهم يكافحون الفرس.

انّ الحريق الهائل والدخان المتصاعد الى كبد السماء لدليلان على أنّ الحملة التي شنّها اليونانيون على الفرس قد بلغت ذروتها ومنتهاها. فقد قضي يومها على امبراطورية فارس قضاء يكاد يكون مبرما وحررت المدن اليونانية في آسيا الصغرى وطهّرت البحار من أسطول فارس الذي كان يوالي الغارات علينا فأمست تلك البحار مجالا لليونانيين يرتعون فيه متى شاءوا ويعبرونه كما شاءوا ليمتّنوا صلاتهم مع سائر أقطار العالم.

قد بلغت يومها الهدف الرئيسي الذي رسمته. وما كان حلفائي الذين تبعوني الى برسيبوليس ينتظرون منّي أكثر من ذلك.

فدعوت رؤساءهم ودار بيننا حديث طويل. وكنت قد أرسلت اليهم قبل قدومهم الغنائم الضخمة التي غنمناها من الفرس حتى يعودوا بها الى ديارهم ويوزعوها بين مواطني مدنهم. تفطّنت الى دلك لانّي كنت أعلم أن مثل تلك الهبات اذا سبقت محادثة مهّدت لها الجوّ المناسب وخوّلت لواهبها القدرة على تغليب رأيه.

وفعلا أنصتوا اليّ كامل الانصات وسرّوا عندما علموا أنّي أسمح لهم بالعودة الى أوطانهم وقد قاسوا عديد المحن وتصدّوا لمغامرات لا تحصى وشاركوا في كثير من المعارك الطاحنة. وكان فرحهم يعظم عندما يفكرون أنّهم سيعودون الى المدن التي انطلقوا منها فائزين مظفّرين ومحمّلين بغنائم وافرة وبنصيبهم من مجد اكتسبوه عن قدرة وجدارة.

واستأذنني خطيب من أثينة حتى أسمح له بأن يلقي على مسامعنا خطابا موجزا يستخلص فيه العبرة من تلك اللحظة التاريخية. وأعطيت له الكلمة ولو أنّي أمقت خطب الفخر والتباهي التي تشبه خطب التأبين التي يستأجر لها النّاس الخطباء. وشرع ذلك الخطيب في خطابه. وكان مهذارا طليق اللسان. وكم كان الاثينيون مهرة في هذا الضرب المزيّف من الخطابة. وضرب صفحاعن الشتائم التي صبها ديموسثينيس عليّ وعلى أبي مدعيا بالخصوص أننّا من قوم همج بل فضّل أن يدّعي أن شعب أثينة يحبني حبّا حمّا وانه سيعتبرني من اليوم فصاعدا سيده الشرعي بعد الانتصارات الباهرة التي أحرزت عليها.

كنت أبتسم ابتسامة ساخرة طوال الفترة التي دام فيها خطابه ولكنّه كان يجتنب بحذق النّظر اليّ حتى لا يتعثر في كلامه فيفسد خطابا نسجه بدقة لهذه المناسبة.

وبقيت منذ ذلك اليوم وحدي لا يصحبني الا جنودي المقدونيون وحلفائي الذين اختاروا أن يواصلوا الحملة معي كمرتزقة ويتصدّوا معي للمجهول.

كنت أحسّ بأني أستطيع أن أتصرّف بأكثر حرية وأني أقدر على مواجهة الاخطار وخوض المغامرات الجريئة لبلوغ هدفي ومواصلة سيري.

وقال لي هفستيون في حديث طويل جرى بيننا في مساء ذلك اليوم أنه لا ينبغي أن أكون واثقا بنفسي هذا الوثوق. وقد تسرّعت في رأيه عندما سمحت لحلفائي أن يتركوني لان داريوس مازال حيّا يرزق وهو قادر على حشد جنود جدد يأتي بهم من مملكته الشاسعة الاطراف وقادر أيضا على أن يدعو لنجدته الشعوب المجاورة له. فاذا وفّق في سعيه شنّ علينا هجوما واسعا فنجد أنفسنا منعزلين عاجزين في ظروفنا الحالية على التغلّب عليه.

استمعت اليه بعناية. وهكذا كنت أفعل دائما عندما لا أكون متّفقا معه في الرأي. وحاولت تهدئة خاطره قائلا ان داريوس بعد أن كبّدناه الهزائم الكثيرة وبعد

أن أحرقنا برسيبوليس أصبح شبح ملك.همّه الوحيد هو الفرار الى أقصى الارض. وأضفت قولي هذا :

ـ ان المصاعب التي ستعترضنا لن يسبّبها لنا داريوس، ولن تكون ناتجة عن المعارك الحديدة التي ينبغي أن نخوضها لنتوغّل في أصقاع الارض. فحملتنا قد كللت بالفوز من الوجهة العسكرية، وكان النّصر حليفنا. فالمشكلة الاساسية المطروحة علينا من اليوم تكمن في أنفسنا. أتساءل هل سنجد في أنفسنا القوة الكافية لا لمصارعة الاعداء أو لبلوغ هدف معيّن بل لمواجهة المجهول.

وكانت مواجهة المجهول هذه تبعث في نفسي بالفعل الفزع والحماس في آن واحد. وتركت برمينيون بإكبتانا [91] وعيّنته حاكما عسكريا للمدينة. كنت أكنّ له كما قلت سابقا كثيرا من التقدير والمودّة والاحترام. وانما بدأ يضا يقني لانّه لايزال يخاطبني من منطلق الحنكة وبلهجة المربّي، كما لو بقيت في نظره وليّ العهد المراهق الذي تعرّف عليه في مدينة بيلاّ. كان ذلك القائد الشيخ مليئا بالحكمة، ولكن حكمته كانت من النّوع البسيط الضيّق الافق الذي يكبح العزائم ويعاكس الاحلام الطموحة. لو عملت بالنصائح التي كان يسديها إليّ باخلاص ومودّة منذ بداية الحملة لانتهت المسيرة بفتح مدينة صور.

تركته باكبتانا مؤكّدا له أن المدينة في حاجة الى حاكم عسكري موهوب ورشيد. لم يبد على ملامح وجهه أنه صدّقني، ولكن لم يستطع الا الخضوع لامري، وقد فطن أني عازم على مواصلة مغامرتي الجريئة دون أن تعرقل سيري نصائحه وحثه على الحذر.

كان من المتوقع في المرحلة الموالية أن أتصارع مع داريوس. ولكن القدر أراد خلاف ذلك. لم أبارزه الا مرّة واحدة في معركة إسّوس في تلك اللحظة القصيرة التي بارزته فيها وجها لوجه فقدحت عيناه وعيناي معا وأرسل سيفانا المشتبكان الشرار.

ولما رأيته للمرة الثالثة كان ذلك العدو العظيم ميتا. سقط أسيرا ـــ ويا للمهانة ـــ بين أيدي بسوس [92] فقتله هذا الاخير لانّه كان ينوي اعتلاء عرش امبراطورية وقع محوها من الخريطة.

كان داريوس مطروحا في بركة من الدماء. قد مزّقت جسده طعنات عديدة سددها له غلمان بسّوس عندما رفض أن يمتثل لامرهم فيتبعهم — وهو الرهينة الغالية — الى حيث كانوا يحثّون السير للنّجاة من جندي الذي كان يلاحقهم بعنف ودون هوادة.

لم تزل عيناه مفتوحتين وكان يخال لي أنّه يسألني في حيرة لماذا لم أرض باقتسام الدنيا معه لحقن أنهار من الدماء المراقة من الجانبين والكف عن خوض المعارك المبيدة.

وأحسست بشعور غريب يهزّني، فنزعت معطفي الارجواني الذي لا يرتدي مثله الا الملوك وطرحته على جثة داريوس الملطّخة بالدماء.

اختفت في ذهني صورة العدو اللدود. ولم أر أمامي الا ملكا صريعا. كان ملكا متجبّرا متكبّرا حقودا شرساء ولكنّه كان مع ذلك ملكا شجاعا.

ضياء الحريق

أُسند اليّ لقب ملك الملوك وأصبحت صاحب امبراطورية الفرس المترامية الاطراف. استوليت على كثير من أقاليمها خطوة خطوة وبمحض قوتي. ووهبتني الآلهة ما لم يسقط منها في قبضتي بفضل تلك الميتة غير المنتظرة، ميتة داريوس التي كنت أتخيّل وقوعها في ظروف مخالفة تماما للظروف التي وقعت فيها. كنت أتوقّع أن يصرع في معركة حامية مثل التي دارت رحاها في إسّوس عندما يبلغ هيجان الجنود المتقاتلين أوجه فتتعالى صيحاتهم داوية فتغمر الاذهان والارواح بنشوة عارمة شبيهة بتلك التي يحدثها خمر جبل أولمبوس [93] المعسّل. ولكن صرع داريوس غدرا. لقد خانه أولائك الذين يدّعون أنّهم من حزبه. اغتاله بسوس ذلك القزم المغرور. وهو يطالب الآن — ويا للحماقة ! — بعرش فارس.

وأمرت بنقل جثمانه الى بسرقاديس [94] بعد أداء جميع المراسم اللائقة بمقامه تحيّة منّي لجلده ومصرعه الأليم. وأذنت بأن يوارى في قبر منقور في صخر الجبل بجانب قبور أجداده. كانت ميتته تفرض عليّ رغم ما كان يفصل بيننا ورغم أنهار الدماء التي أريقت في كثير من المعارك الطاحنة أن أنسى جميع نزاعاتنا. أن أنسى كل شيء.

وعزمت على تصفية الحساب مع بسّوس. ولم أكن في الحقيقة أعيره كثيرا من الاهميّة لأن أولائك الملوك الاقزام الذين تأتي بهم الصدفة يجرؤون على اغتصاب مناصب ليسوا لها أهلا. فيعجزون عن حفظها لانّهم يحملون في نفوسهم بذور فشلهم.

واختار بسّوس المسالك الوعرة فاقتحمها لينجو من مطاردتنا له. وكان يدمّر ويحرق كل شيء حوله أثناء انسحابه، ظنا منه أنّه يستطيع إرغامنا على الكفّ عن ملاحقته وحملنا على التقهقر بازالة مصادر الميرة.

وقطعنا ونحن نلاحقّه منطقة جبال القوقاز الهندي [95] وسلكنا مسالك جبلية تعلوها قمم كللّتها الثلوج. وكانت تلك المغامرة من أشقّ المغامرات التي أقدمنا عليها ولكنّها زودتنا بتجربة غالية كسبناها بباهظ الثمن. ولاح لنا بعد لأي اقليم باكترياني.

كانت الاستراحة ممكنة في مدينة باكترا خاصة بعد أن قبضنا على بسّوس فوجدناه غلاما هزيلا يرتجف خوفا. وكان جنودي المقدونيون المدرّبون يطالبونني بالاستراحة ويلحّون في الطلب لانّ عبور القوقاز الهندي أنهكهم. وقد جرى في ظروف مناخية بلغت ذروة القسوة. وكان الكثير منهم مرضى. فاقمت لهم مستشفى في عاصمة اقليم باكترياني حتى يستطيع أطباء الجيش معالجة المرضى والجرحى الذين تنذر حالتهم بالخطر.

أما أنا فانّي كنت عازما على مواصلة سيري ومصمّما على التوغّل في الاصقاع. لا أرمي من وراء ذلك الى احتلال أقطار جديدة وتوسيع رقعة ملكي كما سيدّعيه في المستقبل من سيعتنون بدراسة تأريخ حياتي.

استوليت بقوّة السلاح على جميع ما كنت أطمح اليه. فكسبت مملكة شاسعة. ودان لي المصريون وأطلقوا عليّ لقب فرعون. ودان لي الفرس ولقّبوني بلقب ملك الملوك. وحملت تاج ملوك الفرس العظام الذي زيّن جبين كورس الحكيم [96] أول ملوكهم. وسعدت بما هو أخطر من كل ذلك حيث كنت أضع نفسي في منزلة أسمى من المنزلة التي تحدّدها الالقاب الشرفية التي أسندت لي. وقد استولى عليّ هذا الشعور ابتداء من اليوم الذي زرت فيه معبد أمّون في صحراء سيوة. فتجلّت لي فيه الاسرار.

هل من مزيد بعد أن استوليت على ما استوليت عليه وشددت ما شددت بيد من حديد ؟ هل من مزيد بعد أن انكشف لي ما انكشف فحافظت عليه في أعماق النّفس كالسرّ المكنون ؟

أنا الغالب الذي لا يقهر. أنا صاحب أعظم مملكة في العالم. وأنا فوق صروف الدهر التي تنال البشر فتودي بالملوك وعروشهم. أنا خالد.

ما هذه الرغبة في مواصلة المسيرة ؟

كان في وسعي أن أشيّد عاصمة جديدة لملكي تكون ساطعة وفخمة مثلما كنت أتصوّرها في أحلامي. كان من البسير عليّ أن آمر المهندسين الذين كانوا يصحبونني ببناء مدينة المدن تحت رقابتي الدقيقة أي المدينة المثلى التي تكون مقرّ إله رضي أن يكون في نفس الوقت ملكا على البشر.

كنت أجمّع في تلك العاصمة التي قد تسمّى الاسكندرية ــ ولِمَ لاَ ؟ ــ كلّ كنوز ملوك الفرس التي أمست في عهدتي. كنت أبني أبهى قصر في العالم لاقضي فيه آخر أيّام حياتي البشرية هادئا مطمئنا بعيدا عن الاخطار والمحن والمخاوف. أنعم بالسعادة صحبة أحبّائي وحيرة جنودي المقدونيين أولائك الجنود القدامى المدرّبين الذين رضوا طائعين أن أقودهم عندما اقتحمنا هذه المغامرة بمعيّة اليونانيين جميعهم.

لو بنيت تلك المدينة لاعترف جميعهم بالوهيتي ولسلمت من احتجاجاتهم واعتراضاتهم التي كانت تؤلمني أيّما إيلام.

لو بنيت تلك المدينة لاتّكأنا كل مساء على الارائك الوثيرة في قاعة المآدب الفسيحة لنحتسي الخمر الحمراء القانية التي سريعا ما تصعد الى الدماغ فتملأ النفس حبورا دون أن تلعب برأس شاربها، ولسكبنا خمرتنا في أكواب من ذهب مرصّعة بالاحجار الكريمة وكم هي كثيرة في خزائن الفرس، ولترنّمنا على نغم مقطوعات موسيقية إيونية يشنف بها أسماعنا عازفون على المزامير، ولانصتنا الى الرواة يلقون علينا فقرات من ملحمة الالياذة. واذا انتشينا قليلا باحتساء الخمر وسماع الالياذة وانكببنا على الموائد قام هفستيون وانتصب وسط القاعة وهو يعدل إله الشمس أبلّون [97] جمالا وألقى علينا بصوته العذب الذي يثلج الفؤاد في أشدّ حالات العسر أبيات هوميروس التي تلذّ لي أكثر من سواها، وهي تلك التي تعظّم العاطفة البشرية الوحيدة التي تحمل ــ كما قلت سابقا ــ بشرى الخلود وهي عاطفة الصداقة. والصداقة التي مجّدها هوميروس هي الصداقة التي كانت تربط بين أخيلوس وباتروكلوس، فبلغت ذروة من السموّ لم تبلغها أيّة عاطفة مماثلة فأثارت حسد الآلهة.

لو تحقّق ذلك لبلغت من السعادة قمّة لا يتمنّى تجاوزها أيّ انسان سوى أنا. ذلك لاني كنت أعتقد أن لا سبيل الى بلوغ النهاية ولا سبيل الى بلوغ الكمال.

فاذا انتهت معركة تهيأت الاسباب للدخول في المعركة الموالية. كنت أحسّ دائما بأني صاعد سلّما درجاته لا تنتهي. لا بدّ لي أن أصعد كل مرّة على درجة دون أن أفكّر لحظة في التوقّف قائلا :

ــ كفاني صعودا. تلك نهاية المطاف.

كان خلاّني لا يفهمون موقفي هذا ولو أنّهم شاركوني حماسي الفيّاض منذ بداية الحملة. أما جنودي فكانوا أعجز من أن يصلوا الى مستوى الفهم والادراك. كانوا ينظرون اليّ مبهوتين وهم عاجزون عن ادراك مقاصدي اذ أنّي بلغت في نظرهم الاهداف التي رسمتها لنفسي.

وكنت في حالات الهدوء والسكينة أبرّر في قرارة نفسي شكوكهم واعترافاتهم. ولكن اذا تغيّرت حالي أحسست بأن ضيق آفاقهم ونظرتهم البسيطة للامور يضيّقان صدري فاستسلمت أحيانا الى نوبات من الاستنكار والغضب ما كنت قادرا على كبح جماحها.

وها أنا أفكّر الآن والنفس حزينة في ما آل اليه أمر فيلوتاس أحد خلاّني. كان يعارض دائما مشروعاتي. وهو غير قادر على استيعاب كنهها وادراك مراميها أي المرامي التي أحمّلها ايّاها... وكم حاولت أن أفهمه أنّ من يطبّق الآراء والافكار التي كان يصدح بها لا يمكن له في أحسن الظروف أن يطمح الا الى الاحراز على منصب موظّف عاطل في احدى الولايات الآسيوية الضائعة. وكنت أضيف قائلا ان السيطرة على الدنيا لا يظفر بها ذو العقل السليم والمزاج المعتدل.

ما كان فيلوتاس يريد أن يفهم وما كان يحاول... وآل به الامر الى أن أسرّ الى قوّاد الجيش بأنه أصبح يخشى عواقب سيرتي.

كان يقول لهم انّي سأجد دائما أعذارا مقنعة حتى لا نعود أبدا الى أوطاننا. وإنّي اخترت أسلوب عيش فارسي وفضّلته على أسلوب عيش المقدونيين. وذلك لا يتجلّى فحسب في طريقة المخاطبة ونوعية الأعمال بل أيضا في نوع اللباس الذي أصبحت أرتديه.

لو واصل فيلوتاس التشنيع بي بهذه الصورة لاقتدى به آخرون وسرت العدوى في الجيش. فأرغمت على التخلص منه كلّف نفسي هذا القرار ما كلّف.

وطغى عليّ حزن عميق بعد أن أمرت بقتله. ولكن ما وجدت لردع صنيعه أيّ حل آخر. وحافظ فيلوتاس على منزلته في قلبي لانّي مازلت أعدّه من بين خيرة خلاّني الذين شاركوني مغامراتي وأعزّهم لديّ. وانما أتت الساعة التي فقد فيها مكانه بيننا.

أخشى أن ينحرف هذا الحديث الى مرافعة للدفاع عن نفسي. وهذا مناف لطبيعتي تمام المنافاة. اذ صنعت خيرا في حالات هدوء وسكينة ــ وكم كانت قليلة ــ أو اقترفت شرا في حالات غضب ــ وكم كانت كثيرة ــ فقد قمت بهذا أو ذاك عن دراية. فلا أكترث بحكم الآخرين على تصرفاتي، وقد صرّحت بذلك مرارا ولا أبالي بحكم التأريخ لي أو عليّ، لان أحكام التاريخ كما يعلم جميع النّاس أحكام نسبية ومشبوهة.

كيف يستطيع الكاتب الرديء الذي سيتناول حياتي بالدرس بعد مضيّ بضعة قرون أن يطّلع على حالتي النفسية، فيكتشف الدوافع الخفيّة التي أدت بي في كل مرّة الى اصدار حكم قاس لا رجوع فيه على مساعدين لي أكنّ لهم المودّة مثل فيلوتاس وبرمينيون ؟

من أتاه بعد قرون نبأ حريق فاجتهد للتعرف عليه عن طريق مطالعة الكتب وجمع المراجع الاخرى، لا يشبه من وجد نفسه محاطا بنيران ذلك الحريق. فأول الرجلين عاجز عن ادراك ضوئه الساطع وقوّته المدمرة.

لا يستطيع أحد ادراك كنه الحريق الذي كان يضطرم في قلبي وفي فكري، لاني أنا وحدي الذي غمرني ضياؤه ولفحتني نيرانه.

موت صديق

حقا، لقد فقدت كثيرا ممّن كنت أكنّ لهم المحبة. وكنت الى التوادد حولي فقيرا ولو لم أصرّح بذلك لاي كان. فكان الفراغ يتّسع حولي شيئا فشيئا كلما أصابت أصدقائي نوائب الدهر. وكان يسيطر عليّ ذلك الشعور بالعزلة عندما أمرت بمواصلة المسيرة في اتجاه أصقاع جديدة غير عابىء باعتراضات المقدونيين.

لم تكن المسيرة التي أمرت بها حملة عسكرية بالمعنى الدقيق للكلمة بل رحلة لسبر المجهول. كان الهدف في تلك المرّة هو الهند. وكنت أعلم أن تلك الحملة الاستطلاعية ستكلّفنا تضحيات جديدة حيث أننّا سنواجه في معارك طاحنة دامية أقواما عقدوا العزم على الاستماتة للدفاع عن أنفسهم.

لا أستطيع عدّ الجراح التي أصبت بها أثناء المعارك التي خضناها. وكان الجنود المقدونيون أثناء المعارك الاولى التي واجهنا فيها الهنود يصارعون الاعداء بضراوة أخذت تتصاعد على مرّ الايام حتى اصبحوا يعاملون المهزومين بدون شفقة وبدون رحمة.

وعندما بلغنا ضفّة نهر السند [98] ذلك النّهر الذي كان بلوغه من بين الأهداف التي رسمتها للحملة في مرحلتها الاستكشافية أجبرت على مواجهة جيش بوروس [99] المنظّم أحكم تنظيم والخوض معه معركة سمّيت بمعركة الفيلة.

ورغم المحن التي كابدتها والنوائب التي واجهتها ورغم الجراح التي أصابتني في كل موضع من جسمي اشتبكنا مع العدوّ بقرب نهر هوداسبيس [100] أحد روافد نهر السند. وكانت معركة عظيمة تعدّ من بين أضرى المعارك وأجملها.

دحرنا العدوّ دحرا في معركة فاصلة غيّرت مجرى الاحداث تغييرا كليّا لانّها ثبّطت عزائم ملوك الهند الآخرين الذين كانوا يتوهّمون على غرار بوروس أنّهم قادرون على صدّي وايقاف مسيرتي.

ولكن نشوة ذلك الانتصار الذي أثبت مرة أخرى أنه لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تصدّني عن غاياتي، قد كدّرها فقد رفيق لي صاحبني في كل لحظة من حياتي وشاركني ساعات انتصاراتي وساعات محنتي. ذلك الرفيق هو حصاني بوكيفالوس.

ما كنت حريصا على كتمان لوعتي، لقد فقدت حبيبا عزيزا لم يسيء اليّ قط بل لم يأل جهدا ليوصلني دون كلل أو ملل الى هدف يتباعد دوما عنّي. وذلك بفضل قدرته على تحمّل المتاعب ومهارته في العدو.

تراودني ذكرى أول لقائي به. قال جماعة من أشهر مروّضي الخيل وأمهرهم لابي، ان ذلك الحصان متوحّش الى حدّ انه لا يستطيع أحد ركوبه. وكان الحصان قد بلغ من العمر ثلاث عشرة سنة. وعندما طلبت من المروّضين أن يقدّموه لي حتى أحاول بدوري ركوبه أطلق جميع الحاضرين ومن بينهم أساتذتي ضحكات عالية. فلم تثن ضحكاتهم عزيمتي. فاقتربت من الحصان الذي كان يهتزّ ويصهل، ومددت ذراعي كأنّي أريد أن ألامس عرفه بيدي مهدّئا إياه وملاطفا. وفطنت بغتة أن ذلك الحصان البديع خائف من ظلّه الممتدّ على الارض. فدفعت رأسه بحركة سريعة حتّى يواجه أشعّة الشمس. فهدأ روعه. ووقفت بجانبه ونظرت اليه كما لو أصبح لي صديقا عزيزا. ونظر اليّ بدوره. وعلمت أنّه أدرك جيّدا منذ تلك اللحظة أننا سنكون متلازمين في ساعات النّصر وساعات البلوى.

نعم. لقد فقدت يومها صديقا مخلصا له من الخصال الانسانية ما لم يتوفّر في أيّ صديق عاشرته باستثناء هفستيون الذي كان عدلي.

فأصدرت قرارا بأن يدفن كما يدفن أي صديق من أصدقائي وافته المنيّة، وأن تقام بمناسبة مأتمه جميع الطقوس التي يستحقها، وهو الصديق الذي برهن لي طوال سنوات عديدة عن وفائه واخلاصه، وساعدني في صمت وسكينة، وأسهم اسهاما فعّالا في جميع انتصاراتي. ولبست ثياب الحداد، وحزنت لفقده حزنا مخلصا. وبنيت مدينة حملت اسمه وهي مدينة بوكيفاليا (101).

لا سبيل الى مواصلة الزحف. فاذا ما فتئت أحنّ بكل جوارحي الى استكشاف أقاصي الارض وما وراءها فانّ جنودي المقدونيين امتنعوا عن مواصلة المسيرة. لقد

أطلعوني بعد أن قطعوا مسافة طويلة على ضفّة نهر السند أنهم أقرّوا العزم على أن يعودوا على أعقابهم. وأصرّوا على ذلك.

فاستنجدت بقوّاد الجيش، ظنّا مني أنهم يستطيعون اقناعهم بأن لا بدّ من اتمام احتلال الهند قبل العودة الى الوطن. فرفض الجنود الخوض في هذه المسألة. فأعلنت لهم عند ذلك عزمي على مواصلة السير لوحدي... فلم يهزّهم حديثي.

كانوا يستطيعون أن يدلوا الي بما يبرّر موقفهم تبريرا قطعيا. لقد برّح بهم الحنين الى أوطانهم، وزلزلهم شوقهم الى أقربائهم الذين حرموا من رؤيتهم مدة طويلة، وأطاح بهم تعب شديد بلغ حدّ الانهاك.

ولكن رغم ذلك كلّه كنت أشعر بأن حماسي مازال يدفعني الى الامام وأنا أفكر في العوالم المجهولة التي لم تدسها حوافر خيلي.

كنت أريد أن أتوغّل في الجزيرة العربية وبلاد الحبشة بعد احتلال الهند لان تلك الاصقاع كانت تفتنني. وكنت أريد أيضا أن أخضع قرطاج وأتجاوزها لاصل الى قادس حيث يشاهد عمودا هراكليس (102) اللذان انتهى اليهما اديسيوس (103) في تجواله عبر البحار كما حدّثني بذلك العلماء الذين انضمّوا الى ركبي. ولربما توجهت بجيشي بعد ذلك الى أصقاع مناخها أطيب وأرحم وشمسها أقلّ قسوة أعني بذلك جنوب ايطاليا وصقلية.

ان العالم ينتهي في احدى تلك المناطق التي لم أبلغها. فاذا بلغت خطاي الى تلك النقطة بالذات كان بوسعي أن أعلن عن يقين أن الاله الجديد الذي تقمّص جسمي ظفر بملك البشرية جمعاء، وبسط سلطانه على كامل المعمورة بحدّ سيفه وبفضل ارادته الصمّاء. وحقّ لمثلي أن يكون ملك البشرية عذابه ومحنته.

ما ألذّها رؤية. وما أروع المشروع... ولكن في تلك الساعة كان لزاما علي أن أسلك مسلكا آخر لان جيشي كان مصمّما على العودة تصميما لا رجوع فيه.

كنت آنذاك أفكّر وأعيد التفكير فيما جرى عندما قابلت نسّاك الهند. قابلتهم قبيل انتفاضة جندي عندما كان كل شيء ينبيء بأنّي على وشك تحقيق مشروعاتي. تعدّدت انتصاراتي وأخضعت معظم الاراضي الهندية لسلطاني. فكنت متيقنا أن العالم بأسره بأصقاعه المعروفة وباصقاعه المجهولة أيضا يوشك أن يسقط في قبضتي.

لاقيت أولائك النسّاك في مرح غمرته الشمس بأشعتها. كانوا في شغل شاغل عنّا فلم يلتفتوا الينا عندما اقتربت أنا وقوّادي منهم. كانوا يقفزون قفزات قصيرة على الارض العارية وعلى ايقاع غريب. كانوا يقفزون دائما في نفس المكان كأنهم لا يريدون أن يبرحوه كلّفهم ذلك ما كلّف.

كانت وجوههم هادئة ونظراتهم ثابتة مسدّدة الى الفضاء. وراقبت حركاتهم طويلا. ثم طلبت من رجل يعرف لغتهم أن يسألهم عن معنى تلك الطقوس التي كانوا يقومون بها دون انقطاع على نفس الايقاع.

فأجاب أكبر الجماعة سنّا وهو لا ينفكّ عن دقّ الارض بقدميه في الساحة الضيّقة التي اقتطعها لنفسه قائلا :

ـ أيّها الملك العظيم. انتهيت الى أقصى الارض وامتلكت الشعوب والاقاليم ولكنّك لم تقدر على ادراك حقيقة هي أبسط الحقائق وأهّمها في هذا العالم الفاني.

ـ وما هي أيها الشيخ ؟

ـ في هذه الحياة القصيرة التي لا تدع لنا فسحة لمعرفة غيرنا ولا لمعرفة أنفسنا لا يملك كل انسان من هذه الارض سوى هذه القطعة الضيّقة التي ندوسها الآن بأقدامنا كما ترى. ولا سبيل الى كسب مساحة أكبر. وأنت أنت الملك العظيم المنصور قد سارعت باحتلال الارض كلّها. فغادرت وطنك وشققت عددا كبيرا من الاقطار وعبرت الصحاري وكبّدت نفسك وصحبك الكثير من المحن. ولا أدري لاية غاية قمت بكل هذه الأعمال. يا جلالة الملك ستموت مثل كلّ واحد منّا. ولا تحتاج يومها الا الى جزء ضئيل من الامبراطورية التي تتباهى بالسيطرة عليها. وهذا الجزء من الارض هو بالضبط مكان قبرك. تلك هي الحقيقة التي نعيدها الى أذهاننا جاهدين حتّى لا ننساها. فندقّ بأقدامنا كّل يوم ومدّة ساعات طويلة ذلك الشريط الضيّق من الارض الذي يحتاج اليه كلّ واحد منّا يوم مماته. هي حقيقة بسيطة جدا ولكنّها ذات وزن كبير لانّها تجنّب كثيرا من الزلاّت. وأثقل الزلاّت جميعها هي تلك التي يقع فيها الانسان عندما يطغى عليه طمعه وطموحه فينسى أن «الحياة الدنيا متاع الغرور».

هكذا تحدث الناسك الشيخ ثم أعرض عنّا وعاد الى تعاطي قفزاته القصيرة، تمنيت لو أتاح لي الحديث معه فأصغي اليه وهو يجيبني بصوته الهادىء عن الاسئلة

الخطيرة التي كانت تختلج في نفسي. وانما بدا لي أنّه لم يعد يهتمّ بحضوري بين يديه.

وأدركت أن الشيخ مصيب في قوله. والصواب عنده هو الاعراض عن سلوك الطرق الواسعة المؤدية الى جليل الاعمال ومقت المرور تحت أقواس النصر لاحساسه العميق بأنّ كل شيء في الحياة الدنيا ضئيل وتافه. كما شعرت بأني أنا أيضا على صواب. والصواب عندي هو الميل الى سلوك الطرق الواسعة وحبّ المرور تحت أقواس النصر تدفعني اليهما حيرة دائمة ويهزّني شوق عارم شبيه بالذي يدفع العقاب الى بذل الجهد للسموّ حتى يبلغ أعلى القمم وأقربها الى الشمس ولو جرّ توقه الى الاعالي كسر جناحه وهبوطه على الارض.

هل أحسّ جنودي احساسا قويّا ملك منهم النفس بتفاهة ما كنت أرنو اليه ؟ هل كان هذا شعورهم كلّما طالبوني بأن آذن بالعودة ؟

لا شكّ في أنّ هذا الشعور طغى على أنفسهم حتّى أصبحوا يصغون الى أيّ حديث يرمي الى اقناعهم بمواصلة السير. لقد أحسّوا بعد خوضهم تلك المغامرة الطويلة بالحاجة الملحّة الى العودة الى بيوتهم وبالحنين الى حياة يومية هادئة لا ازعاج فيها « امتلك جميعهم الشوق الى رؤية أقربائهم... كانوا يحنّون جميعا الى زوجاتهم وأبنائهم. كانوا يحنّون جميعا الى أوطانهم...» [1].

سيكتب كتبة الديوان في « اليوميات الملكية» على هذا المنوال عندما يحاولون تبرير قراري المفاجىء بالعودة وذلك بأسلوب رقيق ملمّحين الى الاعتبارات الانسانية التي دعتني الى اصدار هذا القرار. وهذا الاسلوب في تسجيل الاحداث ضروريّ أحيانا عندما يبحث المرء عن المبرّرات التي تتيح له اقتراح تفسير مقنع لسلوك غابت دوافعه.

وهكذا عدنا أدراجنا. وكان الجنود يعتقدون أن الحملة بلغت منتهاها. وكان يشعر جميعهم بالفرج بعد الشدّة وهم في طريق العودة الى أوطانهم وأهليهم. ووصلنا الى نيكيا [104] بعد أن قطعنا أقاليم كان سكّانها مناوئين لنا ومناهضين وأقاليم أحرى كان سكّانها موالين لنا ومحبّين.

(1) آرّيان · حملة الإسكندر الجزء الرابع 7 ـ 1، 13.

لقد أمرت بأن تشيّد مدينة نيكيا تلك على ضفّة نهر هيدسبوس لتخليذ ذكرى معركة الفيلة.

وعندما غادرنا تلك المدينة قرّرت أن تجري عودة جنودي لا حسب ما كانوا يتوقّعون ولكن حسب خطة رسمتها تقضي بأن يسلكوا طريقا غير التي سلكوها عندما قدموا الى الهند.

أردت بهذه الطريقة أن أترك لجنودي المقدونيين القدامى فرصة حتى يفكّروا في الامر فيقتنعوا بأن المشروع الذي طمحنا الى تحقيقه لم يكتمل بعد. واذا لم يقتنعوا بذلك فلا ضير لأنّ الخطّة التي رسمتها ستفتح لهم أو بالاحرى ستفتح لي أقطارا جديدة أولاها ذلك الساحل الهندي الذي يحدّه محيط تصل مياهه الى العالم الآخر الذي كم كنت أودّ أن أبلغه.

استطراد قصير لمالك المخطوط

مخطوط بابل مهرّأ في هذا المكان بالذات. وحاولت جاهدا قراءة الكلمات المتهرّئة في البرديّ وترميم الفقرات التي أصابها التلف فلم أفلح. وسلّمت المخطوط الى اخصّائيين وطلبت منهم أن يفكّوا على أقلّ تقدير رموز بعض الاسطر الغامضة حتى أعثر على الرابط بين آخر الفقرة التي قرأتموها والتي يتحدث فيها الاسكندر عن شوقه الى المحيط وبداية الفقرة الموالية المتعلقة بقطع صحراء قدروسيا [105]. فلم يفلح الاخصّائيون أيضا في محاولاتهم لفهم النّص. وحيث أني أرفض رفضا باتا أن أملأ فراغات النّص بما يمليه علي خيالي وتخميناتي فانّي سأعتمد على ما قصه علينا أرّبان ذلك المؤرّخ الذي أحبّ الاسكندر وأدرك مقاصده أكثر من غيره ممّن اعتنوا بتاريخ حياته.

لقد سبق أن تحدّثت عن ارّيان في مقدمة الكتاب. واني أريد أن أقول هنا مجدّدا أنّ ذلك الرجل الشهم الذي نشأ في نيكوميديا من اقليم بيثونيا [106] كان له احساس مرهف يسّر له فهم شخصية الاسكندر. وكانت له المؤهلات الكافية لترجمة حياته وذكر بطولاته. كان يقتدي في كتابة التاريخ بكسينوفون المؤرخ العظيم. وكان بفضل احرازه على درجة عالية من الثقافة قادرا على النفاذ الى لبّ الأمور من وراء الاحداث التي تغطّيها مثلما يغطّي اللحاء الشجرة.

اذن أرى من الضروري اللجوء الى أرّيان لاعادة الاستمرارية لسرد الاحداث.

في هذا المخطوط أيضا نواقص لها علاقة بالعمليات العسكرية التي قادها الاسكندر العظيم. ولكن من المتوقع أن يكون هذا الاسكندر نفسه قد كتبه وهو يشكو حالة من الحيرة القصوى جعلته لا يقف الا عند ذكر الاحداث التي تركت أثرا عميقا في نفسه أو حرّكت شعوره. ولذلك لم أر من المفيد سدّ تلك الثغرات

التي لها صلة بالاعمال العسكرية الصرف. وذلك بالرجوع الى مؤلّفات بلوتارخوس وأرّيان نفسه لأن الاسكندر قد رسم لنفسه في مذكّراته غاية معاكسة تماما للغايات التي نزع اليها المؤرّخون الذين تناولوا حياته وأعماله بالدراسة والتحليل والذين وصفوا لنا بدقّة معاركه والاحداث التي رسمت مراحل حياته.

وحيث أنّ الحديث أدّى بنا الى الظروف التي أحاطت بقطع صحراء قدروسيا رأيت أنّه من الضروري أن أورد هنا فقرات مقتطفة من كتاب « غزاة الاسكندر» لأرّيان :

« كان نيارخوس قائد القوّات البحرية ينتظر الاذن بالاقلاع. وغادر الاسكندر بتاله [107] حيث حطّ الجيش رحاله وتقدّم صفوف جنوده قاصدا نهر أرابيس. ولمّا بلغ النهر انتخب لمصاحبته من بين فيلق الرماة نصفهم ومن بين الضبّاط المنقطعين لخدمته نصفهم أيضا واصطحب جميع سرايا الخيل وفي ضمنها سرايا الخيل التي كان يقودها الخلاّن يصحبها فيلق الرماة الراجلين التابع لها. وسار في اتّجاه يتيح له أن يجعل البحر دائما عن يساره. وأمر أثناء المسيرة بحفر صهاريج حتى يضع على ذمّة الجنود المشاركين في العمليات كميّات كبيرة من الماء. وفي نفس الوقت شنّ هجوما مفاجئا على قبيلة الاوريت الهندية التي صدحت منذ زمان بعزمها على البقاء حرّة و لم تكن تضمر للاسكندر ولجنده الا الشرّ. وعيّن هفستيون واليا على الاقليم وعلى من تبقّى من الاوريتيين بعد الزحف.

ثم أرغم على مقاومة قبيلة الارابيين وهم قوم رحّل مضاربهم على ضفّة نهر أرابيس. وكانوا هم أيضا حريصين على البقاء أحرارا. وما ان علموا باقتراب الاسكندر حتى فرّوا ملتجئين الى الصحراء لانّهم أبوا أن يخضعوا له وأحسوا في نفس الوقت بأنّهم عاجزون على مقاومته بصورة ناجعة.

وعبر الاسكندر نهر أرابيس. وكان مجرى النّهر ضيّقا ومياهه ناضبة ثم واصل سيره ليلا عبر الصحراء فقطع معظم المسافة المرسومة. وعندما طلع الفجر وجد نفسه في أراض عامرة بالسكّان. فأمر المشاة بأن يسيروا وراءه صفوفا متراصة. وتقدم لقيادة الخيل فوزعها كواكب حتى تنتشر في السهل الى أقصى ما يمكن الانتشار. واحتلّ الاسكندر كامل اقليم الاوريتيين بهذه الطريقة. فمن حاول منهم المقاومة تعاورته سيوف الفرسان أو سقط أسيرا.

ثم ضرب خيامه في منطقة لا ماء فيها. ولمّا التحق به هفستيون مع بقيّة الجيش واصل السير من جديد.

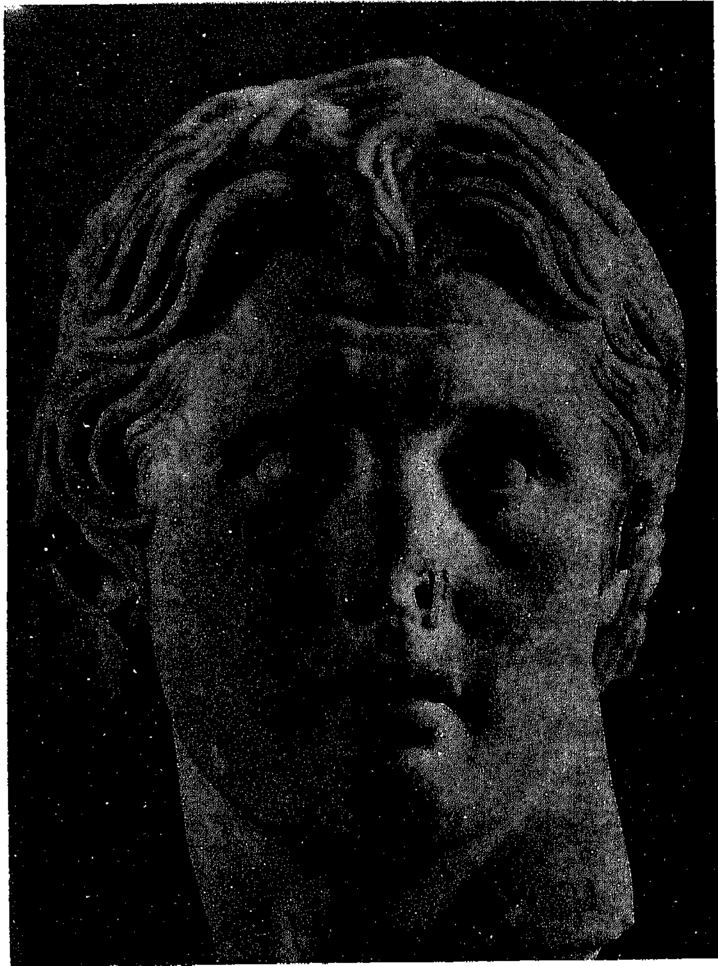
وبلغ الجيش بعد مرحلة فقط قرية رموكبة وهي أهمّ قرية في إقليم أوريت.

كانت المنطقة تروق للاسكندر وكان معجبا بموقعها الجغرافي فكان يشيد بها دائما ويعتقد أن ذلك الموقع صالح لبناء مدينة وان تلك المدينة اذا أنشئت تكون آهلة بالسكان ومزدهرة.

فترك هفستيون هنالك وأمره باتّخاذ الاجراءات الكفيلة بتحقيق ذلك العزم.

كان الاسكندر يرغب في مواصلة رحلته الاستطلاعية. فاحتفظ معه بنصف عدد الضبّاط المنقطعين لخدمته ويسمّون أقريانيس وبنصف فيلق الخيالة وبنصف فيلق الرماة الراكبين على الخيل وبلغ أقصى حدود الاوريت وقدروسيا» [1].

(1) أرّيان حملة الإسكندر الجزء السادس 24، 3



تمثال الاسكندر - متحف اسطنبول

صيحات

هنا نعود الى مناجاة الاسكندر. نشعر أنّها أمست من الآن فصاعدا مناجاة لاهثة مرتبكة يطغى عليها الجزع أكثر من ذي قبل.

أقرّ الاسكندر العزم على أن لا يقف في طريقه مادام جنوده قادرين على تحمّل المشقة وحتى لو لم يكونوا قادرين. وانما كان يشعر في نفس الوقت بحزن عميق ومرّ كأنه كان يتوقّع قرب وقوع أحداث مهولة ويوقن بأن العزلة هي نصيب النّاس جميعا في نهاية المطاف ونصيب الآلهة أيضا. ولا يقدر أحد مهما كانت سطوته أن يسلم من تلك العزلة القاسية التي لا ترحم.

نستطيع قراءة بعض الكلمات في هذه الفقرة التي امّحت حروفها بعامل الزمن. أنقلها هنا علّها تثير اهتمام من سيقومون بدراسة المخطوط والتعليق عليه.

غابوا جميعا... جميعهم سيغيبون.
كان أمّون وحيدا في معبد الصحراء.
قريبا سيأتي دور هفستيون فيغيب.
بابل بعيدة بعيدة والعالم أيضا بعيد بعيد.
أرى ثغرات عديدة في صفوف الخلاّن.
قتلوهم. فارقونا ويفارقوننا.
الموت لا يصيب الالهة.
الالهة لا يخشون الموت. انما يزعجهم الفراغ.

هذه الجمل المقطوعة تفزعني. كنت أودّ أن لا أدمجها في هذه السيرة. ولكنّها ليست ملكي. هو كاتبها ولذا نقلتها بكل أمانة.

عودة الى المخطوط
الصحراء حولنا وفي أنفسنا

الصحراء!

كم من مرّة طلعت علي في بهجتها وجمالها الرتيب أثناء مسيرتي عبر الاصقاع النائية.

قطعت صحاري شاسعة في مصر وسوريا وسيناء وفارس وأنا أعدو على صهوة حصاني حصاني العزيز بوكيفالوس.

ما كنت أخشى الصحاري ولكن كنت أشعر عندما أقطعها مع جيشي بتأثّر عميق ومرح غريب ناتجين عن توقي الى استكشاف المجهول. وكثيرا ما كنّا ننتهي فجأة الى واحة فندخلها منتشين لنرتوي بماءها ونرتاح في ظل نخيلها.

ولكن المحنة التي كنّا نعانيها في هذه المرّة كانت من نوع آخر. ان صحراء قدروسيا هي أقصى الصحاري وأجدبها وأعطشها. كانت تبعث في النفس وحشة تتحول أحيانا الى هوس.

أعترف دون تردّد أن إصراري على قطعها خطأ بعينه وأخطر خطأ ارتبكته في حملتي.

ما هو الداعي الى ارتكابه؟ ربّما لم أوفّق في تقويم حجم الصعوبات المتوقعة أو لربّما كنت أبحث عن صدمة عنيفة تنسيني جميع المحن التي أصابتنا فأقدمت على هذه المغامرة الجديدة ظنّا مني أنها ستكون لي متنفّسا.

ومهما يكن من أمر فبعد أن قمنا بمسيرة متواصلة دامت أياما توغّلنا في صحراء كانت تضاعف مخاوفنا كلما تقدّمت بنا المسيرة. ففطنت أنّي وقعت في المحظور لانّي اخترت أشقّ طريق لعودتنا.

فكنت أحاول تسلية نفسي فأذكر لها خبر سميراميس التي غامرت فقطعت بجيشها تلك الصحراء قبلي. ولكن سميراميس كانت امرأة قادرة على تحمّل أقسى المحن والتغلّب على العطش والحرّ الجهنّمي. وقد قطعها أيضا كورس بن قمبيز لما رام احتلال الهند ولم يقوّم قدرات القوات التي جنّدها تقويما صائبا فخاب في مسعاه.

وعندما كنت أعيد في ذاكرتي مغامرتي سميراميس وكورس كنت أحاول أن أجد عزاء لنفسي بالنّظر الى محنة من سبقاني على هذا الدرب. وأنا وجندي في أشدّ الحاجة الى هذا العزاء.

ولكن استولت عليّ الوحشة من جديد عندما تذكّرت أنه لم ينج من جيش سميراميس الوافر العدد والعدّة الا عشرون رجلا قذفت بهم الصحراء في حالة رثّة. أما جيش كورس المغامر فكان فشله أفظع حيث لم ينج منه الا عدد ضئيل. كانوا سبعة وسبعة فقط.

من سينجو منّا فيخرج من هذا المكان الجهنّمي ؟ وما هو الثمن الذي ينبغي أن ندفعه للظفر بالنّجاة ؟

مازلت أشعر الى اليوم بالاحباط كلما ذكرت تلك المحنة.

كان العطش عدوّنا اللدود. وكان يقسو علينا أكثر ممّا قست علينا حشود داريوس. وكنّا نسير دون هوادة ليلا ونهارا في برّيّة شاسعة قاحلة لا نبت فيها ولا عيون ماء. وكانت المحطّات التي اختزنّا فيها المؤونة متباعدة لا تفي بحاجاتنا الا بقدر ضئيل.

وتجرّعنا الامرّين من الرمال. كانت في بعض البقاع تسيخ تحت أقدامنا. وكم من جنود انخسفت بهم الرمال فابتلعتهم ومطاياهم دون أن يستطيع اسعافهم أحد لسرعة اختفائهم تحت سطح الأرض.

كلما توغّلنا في الصحراء اشتدّت الحرارة وأصابنا عطش لا يطاق وتناقص زادنا. فانضاف عذاب الجوع الى عذاب العطش. فأرغمنا على التضحية بخيلنا وبغالنا. فذبحنا منها لنقتات بلحومها فنبعد عنا ولو لحين شبح هذه المحنة الجديدة.

لقد حاول ضبّاط حاشيتي أول الامر منع الجنود عن ذبحها لافتين انتباههم الى أننّا سوف لا نقدر على مواصلة السير اذا فقدنا دوابّنا. ونحن لا نعلم عدد

الايام والليالي الباقية لقطع تلك المفازة. ولكن سرعان ما فطن الضبّاط بأن مساعيهم ذهبت سدى. فبلغ بهم الضنك الى أن أصبحوا يأكلون من لحوم الدوابّ التي يذبحها جنودهم.

وكنّا نقول لانفسنا : اذا استطعنا أن نتغلّب على الجوع فلا بدّ أن نعثر قريبا على احدى العيون التي تنبع في الصحراء فتؤمّها القوافل لاطفاء عطش المسافرين وعطش ابلهم. فكان ذلك الامل يشدّنا الى الحياة.

من بين التدابير التي اتّخذناها لتيسير قطع صحراء قدروسيا فكّ الافراس والبغال عن العربات المحمّلة بالعتاد وكسر العربات وترك حمولتها مهملة في قلب الصحراء. غايتنا الوحيدة النّجاة من ذلك الفضاء المحترق الذي ما كنّا نرى له نهاية.

وبلغ ببعض الجنود الاجهاد والعطش حدّا جعلهم يخرّون على الارض وينامون نوما عميقا حيث سقطوا. فلم يستطع رفاقهم ايقاظهم فيرغمون على تركهم وهم يعلمون أن لا أمل في أن يعثروا عليهم أحياء في يوم من الايّام.

كنت أجهد نفسي حتى أبقى دائما في طليعة الجيش راكبا جوادي رافعا رأسي وثابتا على السرج.

لم يفطن أحد ولو كان من أقرب النّاس اليّ بأن حلقي مسدود من شدّة الظمأ وجفنيّ ثقيلتان من أثر الارق وبأني كنت أهب راضيا بنصف ملكي مقابل نومة هادئة وجرعات من الماء.

وكان الجنود يشعرون بقليل من العزاء وبضرب من الاطمئنان عندما يشاهدون أني أعاني من نفس المحن وأشاركهم عذاب العطش وأقتسم معهم بنفس القدر ساعات الألم.

وشاهدت يوما جماعة من الجنود المقدونيين القدامى الذين صحبوني منذ يوم انطلاقي من مدينة بيلاّ وبقوا لي أوفياء دون سآمة أو ملل مثل حصاني بوكيفالوس الذي أخلص لي الى يوم مماته. شاهدتهم يقتربون منّي وفي يد أكبرهم سنّا خوذة فيها قليل من الماء. لقد طافوا طويلا في الأماكن المجاورة بحثا عن الماء وعثروا على عين ماؤها على وشك النضوب فما كان ينبع منها الا بعض القطرات فامتاحوا ما قدروا عليه وصبّوه في قعر خوذة وأتوني ليقدّموا ما أحرزوا عليه.

ومدّ إليّ الشيخ الخوذة قائلا :

ـ هذا ما قدرنا عليه بعد طول الطواف. هو ماء قليل ولكنّه كاف لاطفاء عطشك.

أمسكت الخوذة بيديّ وأحسست بارتعاشهما لشدّة رغبتي في بلّ شفتي. فكأنّ تلك الخوذة التي كنت ماسكها أثمن ما كسبت في الدنيا. كانت في نظري أثمن من تاج داريوس الفاخر ومن صولجان الملوك العظام.

فشكرت للمقدونيين لفتتهم الشخصية وأكبرت اهداءهم لي ماء امتاحوه بعد كبير عناء ولكن لم أقرّب الخوذة من فمي بل رفعتها بيديّ فوق رأسي حتى يشاهدها الجميع ثم أرقتها في حركة سريعة الى آخر قطرة من ماءها.

لم أكن أستطيع أن أقف موقفا غير هذا.

وفي اللحظة التي قمت فيها بهذه الحركة شعرت بأنّ جميع جنودي كانوا يحسّون بما يشبه الارتواء وهم ينطرون الى ذلك الماء الذي أريق الى آخر قطرة في الرمل الملتهب.

وتابعنا السير والجنود عاقدون العزم أكثر من ذي قبل على مغالبة المحنة بقلب واحد. كانوا يتقدّمون بخطى أكثر سرعة وثباتا. وهم ينظرون أمامهم بنظرات واثقة.

نعم. لم أكن أستطيع أن أقف موقفا غير هذا.

وكانت الصحراء لا تزال تطبق علينا دون رحمة.

وأعلمنا الروّاد أن الآثار التي تركتها القوافل في الرمل قد عفّتها الرياح. وأنّهم أصبحوا عاجزين عن التعرّف على الطريق التي ينبغي أن نسلكها.

لم يبق لي الا حلّ واحد. سأواصل السير وحدي مصحوبا فقط بكوكبة من الفرسان بحثا عن طريق نسلكها. فاذا وجدناها أعلمنا سائر الجيش حتى يلتحق بنا.

وهكذا انتهيت الى ساحل البحر مع خمسة فرسان. وعثرت قريبا من الشاطىء ــ يا للاعجوبة ــ على عين من الماء الزلال.

نجونا. وكانت خساراتنا أقلّ بكثير من خسارات سميراميس وكورس. وأيقنت مرّة أخرى أنّي الاقوى.

لغة مشتركة وعالم موحّد

كم من مرّة أحسست أثناء مسيرتي في الصحراء أن جميعهم تخلّوا عني عندما نزلت بي المحنة حتى الاله الذي بعثني الى الوجود !

والآن وقد عثرت من جديد على الطريق التي رسمتها لي (أقصد بالطريق لا تلك التي تشق الارض فحسب بل أيضا تلك التي أسير على هديها في أعماق نفسي) فاني أدرك أن لا بدّ لي أن أبادر بايجاد حلول سريعة للمسائل البسيطة حتى أعتكف على اعادة صلتي بالمشروعات العظيمة التي لا بداية لها ولا نهاية. فانّها هي الوحيدة التي تستحقّ أن أتفرّغ لها.

كنت كثيرا ما أحادث أستاذي ارسطوطاليس في مدينة نمفايوس عن ذلك النداء الذي لا يفتأ يدعونا الى صالح الأعمال ولو كنّا متيقّنين أنّنا قمنا بواجبنا.

هذا النداء له صيغة الأمر الذي لا يردّ ولا يدفع وكلما لبيناه علا نداء آخر ثم آخر وهكذا دواليك الى ما لا نهاية له.

كنت كثيرا ما أتحدّث مع أرسطوطاليس عن مختلف الاجناس البشرية التي تعمر الارض من أقصاها الى أقصاها فتلتئم في ممالك دول متفاوتة في الحجم والقوّة. فمنها الدول العظيمة ومنها الضعيفة ومنها التي تميل الى العدوان ومنها التي تميل الى الدعة والدفاع عن الحمى عند الاقتضاء. جميعها محتجزة ومتربصّة تنتظر كل واحدة منها اللحظة السانحة التي تنقضّ فيها على عدوّتها. مثلها مثل البزاة التي يستعين بها سكّان آسيا في صيدهم. انها تنشر أجنحتها الكبيرة وتنقضّ على الفريسة و لا تترك لها مجالا للافلات من مخالبها.

كنّا أمام احدى خيارين-: امّا الزحف على غيرنا أو الركون الى الدفاع عن أنفسنا.

أرى اليوم أن هناك خيارا ثالثا وهو وضع جسر يصل بين ضفّتين وييسّر للنّاس التلاقي.

يرى أرسطوطاليس أن أسمى رسالة يبغي للغازي أن يتحلّى بها هي سعيه لعقد جسر يصل الشعوب بعضها ببعض مهما كانت السبل التي يسلكها لبلوغ هذه الغاية وبقطع النّظر عن أساليب العنف والقسوة التي يعامل بها أعداءه. والمعاملة بالعدل والحسنى والاستقامة في السلوك التي يقابل بها حلفاءه.

كلما تقدم بي الزمن ألح عليّ هذا اللون من التفكير وطغى على نفسي فأقول :

أرى اليونانيين قد انتحوا ناحية، وأرى الاعاجم قد انتحوا ناحية ثانية. ولكن ما الفرق بيننا ــ معشر اليونانيين وبينهم ؟ تقاليدنا أي المظاهر الخارجية لطرق عيشنا مختلفة ولغتنا تختلف عن لغاتهم ولون بشرتنا مخالفة للون بشرة بعض طوائفهم. وفي ما عدا ذلك ليس بيننا وبينهم اختلاف. فقد وهبنا نفس الخصال وأصبنا بنفس النقائص. نواجه بنفس القدر الحبّ والخوف والموت والجوع. جميعنا يضاجعون زوجاتهم في الفراش وجميعنا يحلمون وجميعنا يموتون. ان المجهول الذي يحيط بنا من كلّ جانب ويحاصرنا يبثّ الروع في نفوسنا بنفس القدر فنحاول أن نتغلّب على روعنا بالايمان مهما كان الدّين الذي نعتنقه.

اذن لماذا نبقى على ضفّتي النّهر المشترك بيننا، كلّ منّا ينظر الى الآخر ويضمر له العداء ؟

لماذا لا يكون هذا العالم الرحب دولة واحدة وهو الآن منقسم الى ممالك ودول تتنازعها الطمنوحات المتصارعة ؟

لماذا لا توجد لغة واحدة تفهمها جميع شعوب الارض وتتكلم بها ؟

اذا استطعنا تذليل عقبة اللغة ــ والامر هيّن في نظري ــ تيسّرت لنا اقامة جسر يصل جميع شعوب الأرض واستطاع النّاس أن يتخاطبوا ويتفاهموا بلغة واحدة وتقترب كلّ ضفّة من الضفّة المقابلة.

واذا لم نفلح في سعينا قضت على البشرية الطموحات وعسر اتصال النّاس بعضهم ببعض، وان الخيبة في هذا المجال أشدّ نكالا على البشر من الاوبئة والحمّيات.

فأدّتني هذه التأمّلات الى القيام بمبادرة طالما كانت محلّ تعليقات النّاس. ولا شك أن المؤرّخين في المستقبل سيقولون كلمتهم بشأنها وسيحكمون لها أو عليها كل حسب نوعيّة تحليله للاوضاع المتأثّر بالحالة النفسية التي يعيشها في الساعة التي يتناول فيها القضيّة بالنّظر.

عندما حططنا الرحال بمدينة السوس زوجت ضباطي ومساعدي الاقربين ببنات أساورة فارس وأقمت لهم حفلة زفاف جماعية. وتزوجت أنا أيضا بستاتورا بت دارِيوس الكبرى حتى يقتديٰ بي النّاس فيدركوا أن تلك العلاقات الزوجية التي حثثت على ايجادها هي الاُسّ الأول للتصالح مع شعوب حاربتنا طوال قرون.

اقترن ثمانون من قوّاد جيشي ومن خلاّني الأعزّاء بأنبل فتيات الطبقة الارسطوقراطية الميدية والفارسية. فكانت تلك الحفلات البهيجة التي انتظمت بعد المحن المتوالية التي أصابتنا وبعد المعارك الطاحنة التي خضناها وخاصّة بعد قطعنا لصحراء قدروسيا مناسبة طيّبة شعر فيها جنودي بالغبطة والراحة والطمأنينة. وأنّهم لاهل لذلك.

أظنّ أن جميع الجنود باركوا تلك المبادرة إمّا لانّهم رحبّوا بحفلات ساد فيها اللهو والمرح أو لأنّهم شاركوني شعوري وأيّدوا الهدف البعيد السامي الذي أصبو اليه من وراء تلك الحفلات [1] وكنت أعتقد ــ وقد سبق أن قلت ذلك ــ أنّ ما بادرت به هو المرحلة الاولى في طريق ما أتوق اليه وهو امتزاج عالمين.

ان أبي أيضا ــ رغم نقائصه وطبعه الحادّ ــ كانت تحدوه رغبة ملحة في توحيد اليونانيين االذين مزّقتهم ـ طوال سنوات عديدة ـ الفتن التي غذّتها حقارة قادتهم وخبث خطبائهم الذين كانوا يدعون دائما الى التمّرد في الساحات العامة للمدن. لم يكن فيليبوس راضيا بذلك الوضع. كانت نظرته الى الأمور أبعد من نظرة أولائك الساسة التافهين قصيري النظر. فأدركِ أن الحضارة اليونانية مهدّدة بالزوال اذا لم يقدر أصحابها على تحقيق الوحدة بينهم.

(1) ملاحظة مالك المخطوط

أما أنا فان الهدف الذي أصبو اليه أوسع وأرحب : أريد أن أجمع شمل أبناء يونان في كنف عالم موحّد قادر على احتضان خصوصياته وتجاوزها في آن واحد.

حيث أن الاسكندر يركّز في حديثه على أعماله وعلى الظروف التي أثّرت في سير حياته فانّه يهمل ذكر جزئية ذات أبعاد أقتطفها من جديد من تأليف أرّيان :

« جرت حفلات الزفاف الجماعية حسب الطقوس والتقاليد الفارسية. نصبوا الارائك ـــ لكل عريس أريكته. وعندما تمّت وليمة العرس واتّباعا للتقاليد الفارسية دخلت العرائس في القاعة واتجهت كل واحدة الى عريسها وجلست بجانبه فاستقبل كل عريس عروسته مقبّلا اياها. وكان الاسكندر أول من استقبل عروسته. جميع حفلات الزفاف جرت بنفس الطقوس. وهذا دليل على ما كان يمنحه الاسكندر من الحظوة لصحبه. وكانت لهذه المعاملة أثرها الطيب في النفوس. ثم ذهب كل عريس الى بيته بعد أن استلمت كل عروسة مهرها من الاسكندر. وبصورة مجملة سلّم الاسكندر لجميع المقدونيين الذين تزوّجوا بنساء من آسيا هدايا ثمينة. ويقدّر عدد الزواجات من هذا النوع بما يفوق العشرة آلاف زواج ».

وئام وتداول السلطة بين المقدونيين والفرس

عندما أعود بذاكرتي الى تلك الساعات أقتنع بأنّه لو خوّل لي أن أعيد حياتي من أوّلها لسلكت نفس السبيل ولارتكبت نفس الاخطاء. ولكني أكثر اقتناعا بأن أصدقائي ومساعديّ وحلفائي وخلاّني لو أعيدت الكرة لن يؤيّدوني عن طيب خاطر ولن يغفروا لي أخطائي.

أذكر حفلة الزفاف الجماعية فتجول بخاطري ذكرى مريرة. اندلعت الاحداث التي سأذكرها بُعَيْدَ ذلك الحفل العظيم عندما أطفئت المشاعل وخمد صخب المحتفلين.

ــ كنت أسند الالقاب الى مساعدي وأوزع عليهم تيجانا من ذهب. وكان أوّل من حظي بنعمتي ــ وهو أهل لذاك ــ نيارخوس الكريتي قائد قوّاتي البحرية الذي عاد منذ مدّة قصيرة من جولته البحرية في عرض سواحل الهند وفي المحيط الهندي. وقد قدم الى السوس أيضا لحضور الاحتفالات الولاة الميديون والفرس الذين عيّنتهم لادارة شؤون المدن الجديدة التي شيّدتها. واصطحبوا ثلاثين ألف شاب جنّدوهم وجهّزوهم بالسلاح المقدوني ودرّبوهم على أساليبنا في القتال.

وقابلت هذا المدد العسكري الذي أتوا به بالغبطة والابتهاج إيمانا منّي بأنهم سيساعدونني مساعدة هامة على تنفيذ مخطّطاتي الجديدة.

كان أولائك الشبّان المراهقون يتّقدون حماسا ــ شأن من كان في سنّهم ــ كانت ملامحهم تدلّ على أن لهم ثقة راسخة في أنّهم سيكونون في مستوى الرسالة التي حملوها. وكنت أنا أيضا في حاجة الى اسهامهم في المغامرة لانّي كنت أعتقد اعتقادا راسخا أن استكشاف آسيا ليس موكولا اليّ والى من صحبني من جنود مقدونيا القدامى فحسب بل موكولا أيضا الى العالم بأسره. فلا بدّ اذن أن يفوّض

الامر في المستقبل الى رجال جدد سواء أكانوا يونانيين أم فرسا حتّى يواصلوا المسيرة التي بدأناها.

هذا ما كنت أحاول أن أفسّره للمقدونيين مع الاشارة الى أنّي لا أمانع من يريد العودة الى أهله لانّي أعلم أنّه يوجد من بينهم من يحسّ بثقل عبء السنين فيحنّ الى قضاء الايام الاخيرة من حياته في دعة وبعيدا عن المخاطر والمحن. فأنا أسمح لهؤلاء أن يتركوا الجيش وسأعطيهم من الذهب والهدايا الثمينة ما يضمن لهم رفاهة العيش والأمن من غوائل الدهر.

كنت أخاطبهم مخلصا لانّي كنت أحبّ جنودي المقدونيين حبّا جمّا لشجاعتهم النّادرة وجلدهم الذي لا يزلزل.

ولكن لم يصدّقوني بل ظنّوا أني كنت أخدعهم لاتخلص منهم اذ أنّي أصبحت قادرا على القيام بالغزوات التي كنت أهيئها بفضل ما أعددته من جنود جدد.

وأحسست بسورة من الغضب تهزّني خاصة أني علمت أن بعض المقدونيين كانوا يقولون علانية اني بصدد تكوين جيش جديد من المرتزقة الميديين برعاية أبي أمّون.

اذن آن الاوان لتوضيح الموقف بصورة نهائية وتصفية الحساب بمواجهة صريحة مع أبناء وطني المقدونيين.

فذهبت اليهم واخترقت صفوفهم بدون كلفة كما فعلت معهم أثناء احتفال الزفاف الجماعي. وحرصت بادىء ذي بدء على أن أؤكّد لهم أنّهم مدينون لفيليبوس بدين عظيم فقلت :

ـ لما ضمّكم الى جيشه كنتم قوما من البدو الرحّل وكنتم أناسا معدمين تسترون عوراتكم بجلود الخرفان. كنتم تقضون حياتكم في خوف دائم من غارات الطراقيين والاليريين. فاجتهد أبي لتغيير عيشكم ببثّ الثقة في أنفسكم حتى تقاوموا أعداءكم ندّا لندّ. وخلّصكم من حياة الترحال. وأنزلكم السهول الخصبة فتمتّعم فيها بحياة أرحم.

كانوا منصتين اليّ مؤيّدين لما كنت أقوله عن فضل أبي عليهم. ولكنّ غضبهم كان موجها إليّ وإليّ وحدي. وأحسست في تلك اللحظة برغبة تدفعني بقوّة الى أن أذكّرهم أيضا بالدّين الذي أخذوه منّي فبقي في رقابهم.

ـ نعم. وجدت خزائن الدولة فارغة بعد موت أبي وشرعت في شن غزاتي هذه بامكانات تافهة. فما هي النتيجة التي أحرزنا عليها ؟ إنها جلية بادية للعيان. لقد أعدت لكم كرامتكم التي داسها الفرس كما أعدتها لليونانيين جميعا. ألم يذلّكم الفرس مرّات عديدة ؟ ألم يبيدوكم كما أبادوا أيضا اليونانيين جميعا ؟

فتحت لكم طريق آسيا عبر بحر الهلسبون وضممت الى قطرنا أقطارا لا تحصى بقوّة السلاح وذلك من آسيا الصغرى الى الهند. ملكتكم مصر وما بين الرافدين وقورينا[108] وسوريا وفلسطين. ووهبتكم بلخ والسوس. ووزّعت عليكم كنوز فارس والهند. كلّ خيراتهم أصبحت ملكا لكم. ووهبت لكم أيضا المحيط ذلك المحيط الذي لا تحدّه حدود.

وماذا أبقيت لنفسي من كل هذا وأنا ملككم وقائدكم ؟ هذا المعطف الاحمر القاني وهذا التاج.

واذا لم تقدّروا كل ما ذكرت حق قدره فاذكروا لي وضعا حرجا لم أعشه معكم أو محنة واحدة لم أقاسمكم أهوالها. هل من بينكم أحد يدعي أن جراحه أكثر من جراحي. لم يصبني العدو ولو مرّة واحدة في الظهر. قابلت العدو في كل مكان وجها لوجه. لم أُوَلِّ قط الدبر. ولم أتخلف قط عن أداء مراسم التكريم للجنود الابطال الذين سقطوا في ميدان الشرف. أقمت المشاهد على أضرحتهم وكنت حريصا على تبليغ أقرباء أولائك الابطال الذين بقوا في أوطانهم آيات التقدير الذين هم لها أهل.

لا أرضى بأن يبقى أحد بجانبي رغما عنه. اذهبوا فأنتم طلقاء. اتركوا ملككم وقائدكم. إن الأعاجم الذين هزمتهم سيسهرون على حياته. واذا عزمتم على الذهاب فلا تخجلوا بل عليكم أن تقفوا وقفة الكرام وتطالبوا الآلهة والبشر باحترام قراركم. أعلنوا عن عزمكم وعودوا الى أوطانكم.

وبعد ذلك الخطاب انعزلت في قصري مدة أيام وصرفت عنّي جميع الزائرين. ولكن خطابي في تلك المرة ترك أثرا في النفوس : أتاني جنودي المقدونيين القدامى متضرّعين. يطلبون منّي أن أنسى خطيئتهم ويقولون : لنا عليك مأخذ واحد وهو أنّك تعامل الفرس والميديين كما لو كانوا لنا نظراء في حين أننّا نحن صحبك الأولون انضوينا تحت لوائك من اليوم الأول.

لم يسمعوا منّي جوابا ولكن دعوتهم الى وليمة انعقدت في مساء ذلك اليوم وأجلستهم بجانبي وأمرت بأن يجلس الفرس وممثلو مختلف الاقطار على مقاعد وضعت بعيدا عنّي.

وأرقنا الخمر تقرّبا للاله الاعظم مديرين نفس الكأس. وعندما آلت الكأس الي وأرقت منها قطرات من الخمر الحمراء نهضت وطفت عليهم جميعا دون استثناء أيّ طائفة من طوائفهم وتمنّيت لهم بكل جوارحي أن يكون الحظّ حليفهم في المعارك التي سيخوضونها معا ببسالة وأن يوفّقوا الى خلق جوّ من التّعاون السلمي بينهم وتمنّيت بالخصوص أن يكون تضامن اليونانيين والفرس تاما يوم أموت وتدقّ ساعة تعيين خلف لي على العرش. فلا يمكن الحفاظ على وحدة العالم وهو أعزّ مطمح لديّ الا اذا رضيت جميع شعوب المملكة بدفع ذلك الثمن.

وكان لهذا الخطاب الذي ألقيته في وليمة أخوية صداه البعيد في النفوس. لقد عبّرنا جميعا عن نفس الامنية ونحن نتوسل الى الاله ونريق الخمر تبرّكا وقربى. كنّا ندعو الاله الاعظم حتى يجعل الوئام سائدا بيننا ويوحّد نفوسنا لبلوغ نفس الاهداف وللظفر معا في نفس المعارك.

غيبة إله

كانت تلك الوليمة آخر حلقة من سلسلة من الاحتفالات أدخلت على نفسي الفرح والابتهاج. لا أدري كيف انطلقت ولماذا تواصلت مدّة طويلة وكم تمنّيت أن لا أحتفظ بأية ذكرى لها. ولكن لا أستطيع أن أصرف عنّي الاطياف التي تزورني من حين لآخر ولا أن أنفض عنّي تلك الكآبة الثقيلة التي أطبقت علي بعد انتهاء الالعاب الرياضية والحفلات الموسيقية التي أمرت بتنظيمها في مدينة اكبتان.

تعود اليّ ذكرى بادرة تنظيمها. أمرت باقامتها بدافع غامض يشبه وخز الغريزة كما لو كنت أتوجّس وقوع أحداث مأسوية وأحسّ بأن ظلاما دامسا أخذ يغطّي الافق. وتحسّبا لما كنت أحسّ بقرب وقوعه أمرت بأن يبذل كل الجهد حتى تكون الحفلات أجمل وأروع ما يكون. وكنت أقيم في كل مساء بعد الاعلان عن أسماء الفائزين في المسابقات الرياضية أو الفنيّة وليمة يسودها المرح والانشراح أدعو اليها جميع المشاركين في المسابقات.

وفي احدى تلك الولائم وفي الوقت الذي كنّا نشرب فيه على نخب الاله ديونيسوس(109) للاشادة بانتصارات المصارعين الاقوياء الميديين منهم واليونانيين على حدّ سواء مرض هفستيون فجأة. ولم يبح لي على عادته بما كان يؤلمه حتّى لا يزعجني بل ادّعى أنه يشعر بالتعب وغادر القاعة.

ومن الغد لم نلاحظ حضوره في الاحتفالات ولم نره أيضا في الآيام الاخرى وذلك الى يوم اختتام المهرجان. ونحن نعلم أنه هو الذي اقترح تنظيم تلك الحفلات لانّه كان يؤمن بأن المنافسة الشريفة السلمية بين الشبّان للفوز في ميادين الالعاب الرياضية تشحذ العزائم وتقوّي القلوب.

وكنت كلّما أتيته عائدا قال لي إنّ حالته الصحية في تحسّن ولكن يريد أن يرتاح أكثر حتى يكون مستعدّا تمام الاستعداد للمشاركة في الغزوات الجديدة التي ستبدأ بعد انتهاء الحفلات.

وكان الاطبّاء يؤيدون قوله حتى الطبيب قلوكياس الذي كان يعالجه ليلا نهارا. والحقّ يقال اني ما وثقت قط بكلام الاطباء.

هل كان هؤلاء يطمئنونني على صحة هفستيون لشعورهم القويّ بأنهم قادرون على انقاذه من الموت أو هل كانوا يخشون سطوتي لو تجاسروا على إفشاء الحقيقة المرّة وهي يأسهم من شفائه ؟

وأمرت بأن تذبح القرابين تقرّبا للآلهة وطلبت من العرّافين والكهنة أن يتقدّموا أمام المذابح ويتوسلوا الى الآلهة في تلك الساعات الرهيبة. وتوجهت أنا أيضا بدعائي الى الاله أمّون وذبحت له القرابين حتى يسعفنا. كما أمرت أحسن الاطبّاء التابعين « للدائرة الصحية الملكية» أن يبذلوا كل ما في وسعهم لانجاء هفستيون من الموت. وتقدم الي قلوكياس وخاطبني باسمهم جميعا مطمئنا. وأبدى زملاؤه موافقتهم على تشخيصه للمرض وعلى تفاؤله بالشفاء.

وصادف اليوم السابع من مرضه أهمّ المباريات في برنامج المهرجان. وكانت تحتوي لاول مرة في التأريخ على مباريات رياضية بين أطفال يونانيين وأطفال من الفرس.

كانت مدارج الملعب ملأى بالنّظارة وكان الاطفال يتبارون في الساحة بحماس فيّاض. وفي الوقت بالذات الذي تعالت فيه هتافات الجمهور تحيّي فوزالاطفال اليونانيين أتاني رسول يعلمني بأن حالة هفستيون تدهورت.

فغادرت الملعب بسرعة. وذهبت الى بيته. فوجدته ميّتا. لم يسمح لي الحظ بأن ألحق وهو ما يزال بقيد الحياة. كانت عيناه مفتوحتين ملتفتتين الى الباب كأنّه كان ينتظر قدومي. يداه مازالتا سخنتين ووجهه قد حافظ على تلك المسحة من الطيبة والتألّق التي ألفها النّاس عنده وعرفتها منذ عهد بعيد منذ كنّا طفلين نمرح معا في عاصمة بيلاّ.

لم يمت هفستيون ! ليدّع غيري أنه مات. وليقل الاطباء أنهم بذلوا أقصى الجهد لانقاذه من الموت. لم يمت هفستيون لانّه التحق بالآلهة وانضمّ اليهم.

سيبقى هنالك معهم الى الأبد. سيبقى جميلا وعزيزا وشابا الى أبد الآبدين، كما لو كان الها. لا بل هو إله سيستقبله الآلهة كما لو كان واحدا منهم. هذا اليقين عندي محا جميع الاعتبارات الاخرى.

لا يحق لهفستيون الا أن يسمو الى درجة الآلهة.

مالك المخطوط يدل كيف أغفل الاسكندر ذكر أحزانه في فترة الحداد لموت هفستيون ولماذا أغفلها

ونعثر من جديد على فجوة في سياق مخطوط بابل.. يقطع الاسكندر سير الاحداث فجأة عند موت هفستيون ولا يعود الى سرد سيرته الا ابتداء من اليوم الذي عاد فيه الى بابل ودخلها في موكب حافل لاستقبال سفراء أتوه من عدّة أقطار.

لا أظن أنّه لم يحدث شيء بعد موت هفستيون ولكن الاسكندر أغفل الحديث عمّا عقب وفاة هفستيون عن قصد.

أليس من الطبيعي أن يحجم الاسكندر عن التوسّع في الحديث عن حداده وعن الحزن العميق الذي غمره لفقدان صديق عزيز ؟

إنّي أميل الى هذا الافتراض ولا أجزم بأنّه أصدق الافتراضات. وأجدني أكثر تعلّقا بهذا الرأي عندما ألاحظ أن سير الاحداث في هذا المخطوط الذي أودعه الاسكندر وصف حالاته النفسية ينقطع عند هذا المنعطف الخطير بالذات. لكأنّي بالاسكندر يفطن بأنّه عاجز عن التعبير عمّا أحسّ به من ألم لفقدان صديقه لأنّ جسامة المصاب تتجاوز قدرات القول.

أتصوّر الاسكندر عندما أتمّ تحرير الفقرة التي تختم الباب السابق والتي يقول فيها ان الآلهة استقبلوا هفستيون وأوسعوا له مكانا بينهم يحاول أن يتحدّث عن فترة حداد دامت شهورا وشملت كامل الجيش وتميّزت بكثرة مواكب التأبين فلم يقدر على ذلك كما لم يقدر على التغلّب على حزنه فعرته نوبات من الألم الجارف الذي أفضى به أحيانا الى الهذيان.

ولربّما آثر ايقاف حديثه عند هذا الحدّ حتى لا يعاوده الهذيان. واسمحوا لي أن أضيف هذا الرأي : كان الاسكندر يعتقد أن حزنا مثل حزنه لا يعبّر عنه بالالفاظ بل بالصمت المطلق.

وأرى أنا أيضا أن الصمت وحده هو الذي يليق بالمقام ولو أنّي رجل بسيط وعاديّ. وقد لاحظت ـــ كما سبق لي أن قلت ـــ ان المخطوط الذي أملكه يصف في مجموعه ما كان يجري في نفس الاسكندر طوال مغامرته. ولذلك تميز المخطوط بتلك الحيوية التي نعهدها في أغلب المؤلفات التأريخية التي تتناول ظواهر الاحداث فحسب دون أن تبحث عن الرجل الشاب الذي أثارها فتخرجه من مكمنه وتجعله ماثلا أمام أعيننا متألقا في أيام النّصر وكئيبا في أيام المحنة.

ولذا أتوجّه من جديد الى أرّيان رفيق الدرب في هذه الرحلة الاستطلاعية التي أقوم بها متتبّعا خطى الاسكندر حتى أسدّ تلك الثغرة التي تخفي حلقة من حياة الاسكندر مفعمة بشعور انساني رقيق.

لقد خصّص أرّيان في السفر الاخير لكتابه عن « غزاة الاسكندر» بعض الصفحات الرائعة روى لنا فيها الاحداث التي تلت موت هفستيون المفاجىء.

استقى مادته من «اليوميات الملكية» التي كانت ولا شك زاخرة بالمعلومات المتعلّقة بتلك المرحلة بالذات من حياة الاسكندر. وأضاف اليها وهو المؤرّخ الجادّ معلومات انتقاها من مؤرخين آخرين ووضعها تحت محكّ النقد حتى أدّت به الدقة في التمحيص الى أن رمى بعضهم بالوقاحة عندما فطن أن كلّ كاتب يتبع هواه في ذكره للاحداث ويتأثّر بما يضمره من حبّ أو كراهية لهفستيون عندما يصدر أحكامه لتزكية سلوك الاسكندر أو للتفنيد به.

إليكم جزء ممّا أورده أرّيان عن تلك الفترة بسداد رأيه المعهود. أقدّمه اليكم بشيء من التصرف الحيّي مع المحافظة على لبّ الخطاب.

يقدّمون الذبائح الى روح هفستيون كما لو كان إلها

لكل كاتب تناول حياة الاسكندر رأيه الخاص بشأن الحزن الذي ألمّ به بعد موت هفستيون. ولكن يقرّ جميعهم بأن حزن الاسكندر كان مفرطا. ولو اختلقوا في تعليقاتهم على تلك الظاهرة متأثرين حسب الحالات بحبّهم أو كرههم لهفستيون وبما يصمرونه أيضا من تشيّع للاسكندر أو نقمة عليه.

ينقسم الذين شوّهوا الحقائق في كتاباتهم الى فريقين : فريق ظنّ أنّ التأكيد على عمق حزن الاسكندر وابراز مدى ما يكنّه للفقيد العزيز من تقدير ومحبة عن طريق الوصف الدقيق لظواهر حزنه هو ضرب من المدح والتمجيد وفريق ثان ادّعى أنه لا يليق بملك وخاصة اذا كان ذلك الملك هو الاسكندر أن يتجاوز الحدود في اظهار حزنه ولو كان الفقيد أهلا لذلك.

ولكم بعض ما روي عن تلك الاحداث :

« كتب بعضهم أن الاسكندر عندما نعي له هفستيون ارتمى على جثّة صديقه وهو ينوح ويعول فأجبر الحاضرون على أن يفتكّوا الجثة من بين ذراعيه ».

وأضاف بعض الكتّاب الآخرين أنّه بقي يبكي كامل يومه وكامل ليلته وهو ملقى على الجثة يغطّيها بجسمه.

وقال بعضهم انّه أمر بشنق قلوكياس زاعما أنّه ناول هفستيون دواء غير ملائم لمرضه ولم يمنعه من شرب الخمر. وجميع من يعرفون هفستيون يعلمون أنّ الخمر مضرّة له جدا خاصة في الفترة الاخيرة من حياته.

تمّ ان الاسكندر قصّ شعر صديقه تكريما له وذلك دليل على فرط جزعه.

وأنا أرى أنّ هذه الروايات المختلفة التي أوردتها والرويات الاخرى الشبيهة بها التي تصور مدى جزع الاسكندر هي روايات مقاربة للحقيقة. اذ ينبغي أن لا

ننسى أن الاسكندر كان منذ صباه يعتبر أخيلوس مثله الاعلى وقد اقتدى به طول حياته. فكانت الحركات التي قام بها تكريما لهفستيون وتعبيرا عن حزنه هي نفس الحركات التي قام بها أخيلوس لما قتل باتروكلوس.

وقد قال بعض الكتّاب ان الاسكندر نفسه جرّ العربة التى كانت تحمل جثّة خلّه المحبوب.

وأمر كذلك بأن تذبح القرابين العديدة التي تليق بمقام ذلك البطل.

ان جميع الكتاب مجمعون على ما سبق من معلومات. وأضاف بعضهم أنّه أرسل رسولا الى معبد أمّون يطلب من الاله أن يسمح له بتقديم قرابين لهفستيون حسب الطقوس الدينية الخاصة بالآلهة أو بعبارة أخرى أن يسمح الاله بأن ينزل هفستيون منزلة الآلهة فلم يسمح له أمّون بذلك.

وأورد أحداثا أخرى يتفق عليها جميع المؤرّخين : لم يتناول الاسكندر أيّ طعام مدة ثلاثة أيام و لم يصلح من حاله. وبقي جامدا لا حراك له ينوح حينا ويصمت صمتا رهيبا حينا آخر. ثم أمر باضرام النّار في كدس هائل من الاخشاب أعدّ لاحراق جثّة صديقه. ورصد لهذا الغرض ستة آلاف تلانتون [110]. وأصدر أمره بأن يشمل حداد مطلق كامل أرجاء المملكة.

واضافة الى كلّ ما قام به الاسكندر فان صحبه الذين شاركوه حداده وحزنه كرّموا الفقيد بتقديم النذور ترحّما على روحه. وكثير من هؤلاء نذروا أسلحتهم للفقيد ومن بينهم أومينوس الذي كثيرا ما تخاصم مع هفستيون. أراد أومينوس بهذه المبادرة الحكيمة أن لا يظنّ الاسكندر لحظة أنه شمت بهفستيون.

وأصدر الاسكندر أمرين اتماما لتكريمه لروح الصديق المفقود.

لم يعيّن خلفا على رأس فرسان الخلاّن وأبقى اسمه على رأس قائمة أعضاء تلك السريّة المختارة. وأصدر أمره بأن لا يحدث أي تغيير في المراتب العسكرية التي أسندها هفستيون عندما كان قائد السريّة المختارة : « سريّة الالف فارس».

وكان القرار الثاني الذي أصدره يتعلق بتنظيم ألعاب رياضية وحفلات موسيقية احياء لذكرى هفستيون. وأوصى بأن تكون تلك الحفلات ذات بهاء منقطع النّظير وأوكل الى أكثر من ثلاثة ألف رياضي مهمة الاستعداد للمشاركة فيها.

ما أشأم تلك الاستعدادات ! جرت تلك الحفلات بعد مدة قصيرة لا لاحياء ذكرى هفستيون ولكن ترحّما على روح الاسكندر الذي وافته المنية.

شرح موجز يقوم به مالك المخطوط

لا أضيف شيئا الى ما رواه لنا أرّيان عن مراسم الحداد التي دامت طويلا ولا عن الظروف المحيطة بها. وقد كان المؤرّخون يجمعون على هذه وتلك.

أعود الآن الى مخطوط بابل الذي يقصّ علينا بصورة مكثّفة من الآن فصاعدا المراحل الاخيرة لحياة الاسكندر وهو مصاب بالحمّى وما يتبعها من هذيان.

كان الاسكندر يحسّ ولا ريب بأن الافق بدأ يضيق من حوله رغم ما كان يبذله من جهد لمواجهة مصيره. فأخذ يركن شيئا فشيئا الى الوحدة ويهجر أصحابه ومساعديه الاقربين ويهجر نفسه أيضا. فانغمس في تصوّف غريب مليء بالاوهام وأصبح يصدّق تنبّؤات العرّافين والكهنة عندما يطلب منهم كشف الغيب له.

هل كانت الغيبيات ملجأ له وطريقا للخلاص ؟

نعم. لأنّ المخطوط لا يترك أيّ مجال للشك في ذلك : ان بذور التصوّف التي زرعتها أولمبياس في نفسه في عهد الصبا عندما كان يقيم بمدينة بيلاّ ثم غذّتها في معبد دودونا عندما كانا منفيين في اقليم ابيروس قد نبتت وترعرعت وبلغت أوجها في تلك المرحلة بالذات من عمره.

ومن أثر ذلك أنّه كان يعتقد أن العالم الخارجي ظاهر لا جوهر له ولا عمق وعرض لا طائل من ورائه. فهو شبيه بالاحداث السطحية التي تكتسب « حقيقتها » بصورة متفاوتة من الظروف المحيطة بها فتسمح للمؤرّخين أن يكتبوا التأريخ. وهناك ظواهر أخرى تكشف من ورائها عن عظمة أسرار عالم بعيد وغامض لا يستطيع ادراك وجوده الا قلّة اصطحبتهم الآلهة ولقنّوهم أسرار الوجود.

وها هو الاسكندر يتابع فيما يلي سرد حديثه.

ثناء اليونانيين

كان الشتاء قاسيا ومتعبا.

وروّحنا على أنفسنا بشنّ غارة على الكوسيين وهم معشر من المقاتلين الاشدّاء الأباة اعتصموا في منطقة جبلية وعرة. واستطاع جيشي أن يتغلّب عليهم دون كبير عناء رغم البرد القارس.

وعند عودتي الى بابل قدمت سفارات من مختلف الاصقاع المعروفة منها والمجهولة تخطب ودّي. ومن بينهم أناس سلتيون [111] وايباريون [112] أثار لباسهم الغريب دهشة جنودي.

واستقبلتهم جميعا مبديا لهم عطفي ومعبّرا لهم عن ترحابي. وقد تأكّد عندي أنّ التعاون المخلص بين الدول أمر يمكن تحقيقه وأنّه يجب على كلّ أمّة أن تسهم في توحيد العالم بما أوتيت من قوّة وما أحرزت عليه من معرفة.

ثم أمرت بأن يشرع في صنع أسطول عظيم لاستكشاف نواحي بحر قزوين [113]. وأوصيت بأن تجرى دراسة عن امكانية ربط ذلك البحر بالبحر الاسود أو بالمحيط الهندي.

وعندما كنت سائرا في طريقي الى بابل حيث كنت أنوي تقديم قرابين للآلهة اعترضني وفد من الحكماء والعرّافين الكلدان ورغبوا في أن يقابلوني لوحدي وبمعزل عن مساعديّ ورجال حاشيتي.

وأعلمني كبير العرّافين أن عودتي الى بابل تصحبها في هذه المرة دلائل طالع نحس. قد أوحى بنبوءة الشؤم هذه الاله بال [114].

وصدّقت هذه النبوءة التي كنت أنتظرها منذ زمن بعيد أو بالاحرى كان توجّس حدوث المكروه ساكنا في نفسي وإنما لم أتأثر بما أسرّوه لي وواصلت

مسيرتي طبق البرنامج المسطّر لا لاظهار جلدي للكلدان فحسب بل أيضا لاغالب نفسي. وذكّرتهم ببيت أوريبيديس الذي يقول :

أفضل العرّافين من تنبّأ بالخير.

ودلّني الكلدان على باب المدينة الذي ينبغي أن أدخل منه على رأس جيشي حتى أتّقي سوء الطالع. وما كان يهمني في ذلك الوقت بالذات من أمرهم شيء.

كنت أريد الوصول في أقرب وقت ممكن الى المدينة حيث كان أعيان اليونانيين في انتظاري. كانت نظرتي للزمن والاحداث التي يولّدها مخالفة لنظرة العرّافين. وعندما وصلت الى بابل وجدت بها رسل اليونانيين. وسررت لاني كنت أنتظر منذ سنوات وفودهم عليّ.

وسلّموا إليّ تيجانا من ذهب قرّر مواطنو مدنهم بالتصويت اهداءها اليّ. وقرأوا نصوص الثناء الموجّهة اليّ والتي صادق عليها مواطنو كل مدينة. وكانت جميعها تمجّد الانتصارات التي أحرز عليها جيشي في زحفة الهائل الذي انتهى به الى أعماق الهند.

انّ اليونانيين يشحّون بالثناء على القادة العسكريين ولو قاموا بخوارق البطولات. فهذه المجموعة من النّصوص التي كانت تثني على أعمالي سكّنت قليلا آلام المحن التي قاسيتها منذ زمن بعيد. وضمّدت الجراح التي أصبت بها أثناء معارك عديدة.

لو فطن اليونانيون بمدى تأثير الثناء في نفوس المقاتلين لما شحّوا به ولما تمادوا في عدم الاعتراف بجليل الأعمال وعدم تقدير من يقومون بها. ولكن اذا استثنينا بعض المناسبات القليلة مثل التي أتت بوفودهم الى بابل فانّهم عاجزون عن ادراك معنى البطولة أو محجمون عن الاعتراف بها. فهم الى توجيه اللوم أميل. وأنا متيقّن من أنّهم سيسلكون دائما ذلك السلوك لأنه مطابق لمزاجهم ومساير لمصيرهم. وأنا أعلم علم اليقين أنّهم سيعودون الى نقد كلّ ما قمت به من أعمال بعد زوال هذه النوبة التي جعلتهم يثنون عليّ.

كأني أسمع من الآن بعض خطبائهم في الساحة العمومية يصيحون في جلسة عامة قائلين :

ـ بلغ الاسكندر أقصى الارض ؟ هل هو أمر عجيب ؟ ما هي أهمّيّة ما قام به اذا أردنا أن نفحص الأمر.

كنت أودّ أن أبوح بكل هذه الخواطر للرسل ولكن أمسكت عن ذلك لعلمي أن قولي سيذهب سدى ولن يغيّر من الأمر شيئا.

استقبلتهم استقبالا حارا وشكرتهم وأمرت بأن تعاد لهم جميع التماثيل والنصب التذكارية ونذور العبّاد للمعابد التي نهبها كسركسيس في مدنهم ومعابدهم. ووزعها بين بابل وباسرقادس والسوس. وكان من بين الغنائم التي غنمها الفرس في بلاد يونان تمثالا هدموديوس وارسطوقيتون الذين اغتالا الطاغية هبارخوس [115].

يعدّونه إلههم الثالث ولا يكفرون به

أحسّ الآن وأنا في بابل بأنّ الزمن أخذ ينقضي بسرعة هائلة كأنّه ينتظر بلهفة طلوع اليوم الذي يشهد فيه نهاية العالم أو بداية عالم جديد.

تقلع أساطيلي باستمرار قاصدة أصقاعا بعيدة. ثمّ تعود اليّ. ويأتيني أمراء البحر بأنباء بكر عن الاقطار التي اكتشفوها والبحار التي شقّوا عبابها. وهم الآن بصدد تهيئة رحلة استطلاعية جديدة إلى الجزيرة العربية تلك البلاد التي لا يعبد سكّانها الا إلهين أورانوس [116] وديونيسوس.

يزعم علماء حاشيتي الذين مازلت أتحمّل خيلاءهم أن العرب يعبدون أورانوس لفرط بهائه ولأنّه يحوي النّجوم الزاهرة في الليل والشمس الوهّاجة التي تمنح العباد الدفء والنّور. ويعبدون ديونيسوس لقيامه برحلته الشهيرة الى الهند.

يعبدون الهين فقط. فهذا قليل. تعبد الشعوب الاخرى آلهة كثيرين ويقدّمون لهم القرابين. ربّما يليق بالعرب أن يعبدوا إلها ثالثا قام بكثير من الأعمال الجليلة وهو ابن للاله أمّون . وهذا الاله حوى الأزل ولم تشبع طموحه الاقطار الشاسعة التي استولى عليها.

قام قائد الاسطول هيارون الصولي برحلة استكشف فيها كامل سواحل شبه الجزيرة العربية على ظهر السفينة التي أمرت بصنعها لهذا للغرض وسلّمتها له. وعندما عاد إليّ قال لي إنّ بلاد العرب تحتّل مساحة شاسعة من الأرض تجعلها تعادل الهند في اتّساعها وعظمتها. ودعاني الى تهيئة حملة جديدة لغزوها. وما استطعت بعد الاستماع الى حديث هيارون الطويل أن استخلص أي معلومات مفيدة عن ثروة جزيرة العرب. وما عرفت هل لسكانها استعداد للاعتراف بإله ثالث يعبدونه بجانب إلهيهم.

بدأنا في صنع سفن جديدة أعظم من السفن التي كنّا نركبها حتى نستعملها للمهمّات الاستطلاعية التي خطّطنا لها.

سوف لا نحدّد في هذه المرّة هدفا لكل رحلة بل نترك الملاّحين يكتشفون ما استطاعوا اكتشافه دون تقييدهم بمسار أو زمن. فالبحار وحتى المحيطات أرحم من الصحارى. وملاّحونا مهرة في ركوب البحر يعرفون كيف ينجون من الأعاصير.

أما أنا فقد قرّرت المكوث ببابل تأتيني اليها الانباء في كلّ يوم يحملها الّي قادة أساطيلي وأعضاء البعثات الوافدة على أعتابي والرسل الموفدون الّي. وأقول في نفسي كم كان خطأ حكماء بلاد الكلدان وعرّافيها جسيما عندما نصحوني بعدم العودة الى هذه المدينة لتوقّي النحس الذي ينتظرني بها.

يغمرني سرور عظيم عندما أحسّ بشعور راسخ في النفس يجعلني أعتقد أنهم مخطئون وأنّ تنبؤاتهم المشؤومة كذب وبهتان وعندما أتذكّر بهذه المناسبة أنّي أجبرت كاهنة أبولّون على مباركة الحملة بعد أن رفضت البوح بنبوءة الاله وأعلنت أنّها لا تضمن لنا النصر.

لو كانت لي الآن تلك القوّة ! لو كنت أستطيع ارغام الحكماء والعرّافين والكهنة على أن لا يعلموني الا بما أتمنى أن أسمعه بدل أن يقذفوني بتنبّؤاتهم المشؤومة التي لا تنذر الا بالشؤم !

لا تطاوعني نفسي على ارغام هؤلاء حتى يتنبّأوا بما يوافق هواي ولو قدرت على ذلك لوجدت متعة في إخضاعهم. لم هذا الامساك ؟ أجيب ببساطة : لانّي أمسيت أنا نفسي لا أثق في مستقبل الأيّام.

عندما سألت كاهنة أبولّون بدلفي (117) عن مصير الحملة التي كنت أزمع شنّها كنت متيقّنا أنّه لا يوجد انسان أقوى منّي وأنّه لا يستطيع أحد أن يغلبني. ولكن فقدت اليوم تلك الثقة، بنفسي ولو أنّي أستعدّ لاكتشاف أقطار وبحار عديدة. لم تبق أمامي جيوش داريوس المدجّجة بالسلاح التي هزمتها ولا الهنود البواسل الذين أخضعتهم رغم كفاحهم المستميت. فقدت الثقة بنفسي لانّ عدوّا جديدا ومستترا أخذ يقتفي خطاي ليلا ونهارا ويتبعني كظلّي. انّه أقوى منّي وأقوى من أعدائي الآخرين الذين قضيت عليهم. يسلّط عليّ قوّته في كل لحظة ولو أنّي

أتظاهر بعدم الاكتراث به أو أرفض الاعتراف بسطوته. لا يفطن الآخرون بما يجري بيني وبينه. لا يستطيعون فهم ما يجري ولن يستطيعوا ذلك. لأن العدو الجديد لا يفرض وجوده الا عليّ وعليّ وحدي.

بانت لي منه اشارة منذ أيام قليلة. كنت راكبا على متن السفينة الملكية وكانت تطوف بنا في النقع الذي توجد فيه قبور ملوك أشور. فهبّت ريح قوية قلعت قبّعتي من فوق رأسي. وقد اخترت يومها أن أضع على رأسي قبّعة شبيهة بتلك التي كان يلبسها أجدادنا في مقدونيا.

لن يمّحي اسم هفستيون. سأبذل قصارى جهدي لاجل ذلك. سيبقى اسمه منقوشا على جميع واجهات المعالم في الاسكندرية وينبغي أيضا أن يذكر اسمه في جميع العقود التي يبرمها تجّار المدينة.

وافق الاله على احلاله منزلة الالوهية فعليّ أن أقوم حالا بما تعهّدت به.

« لتكن هذه الاغنية بلسما لقلوبنا »

لما شرعت في كتابة هذا النّص الذي يسوده الهذيان ما كنت أتوقّع أنّي سأصل به الى هذا الحدّ. كنت أنوي البوح فقط ببعض مشاعري في بعض ساعات من حياتي. كنت أريد أن أحيا من جديد تلك الساعات مع الفسحة الزمنية التي توضّح الرؤية. فالبعد الزمني ضروري عندما يعزم الانسان على كتابة وقائع حياته ومغامراته ولو كان ما يكتبه ــ كما هو الحال هنا ــ معدّا للمطالعة الشخصية.

وما كنت أتوقّع أني سأكون قادرا على مواصلة الجهد بهذه الصورة حتى أصل الى هذه المرحلة من مغامراتي خاصة بعد تدهور حالتي الصحية... في هذه الايام الاخيرة.

لا أثق مطلقا بأطباء دائرة التطبيب المنقطعة لخدمتي. فهم يقدرون على كل شيء سوى معالجة المريض بصورة تؤدّي به الى الشفاء. مقدرتهم على الكلام عجيبة وتشخيصهم للامراض دقيق ومقنع. ولكن مواهبهم غير نافعة اذا حلّ الأجل المحتوم. ولذلك قررت الاستغناء عن خدماتهم اذا استفحل سقمي لاني أفضل أن أتحمل وحدي المحن التي كتبها الآلهة لي دون أن أشغل نفسي بعلاجهم.

وجدت في هذه الايام سلوى في تناول الخمر ولم يكن هذا دأبي من قبل. ما كنت أترفّع عن شرب الخمر ولكن أشربها بالخصوص لبعث المسرة في قلوب ضباطي وخلاني عندما ينتظم سلكنا في مأدبة نقيمها ليلا بعد معركة ضارية. ان المقدونيين مولعون بالخمر الجيّدة. فكنت حريصا على أن أثبت لهم أن ملكهم قادر على التباري معهم في احتساء الخمر. وكنت أبزهم في بعض الاحيان حتى أصبحوا لا يجرؤون على مباراتي في هذا المضمار.

فقدت الآن قدرتي على التباري وأمسيت لا أشرب الا بمحضر أصدقائي المقرّبين فأحسّ بالانفراج وبسكون الهواجس المفزعة التي أخذت تتضخّم يوما بعد يوم.

وكان ميديوس أحد الخلاّن يحذق توخّي الطرق الكفيلة بخلق جوّ مرح أثناء المأدبات لانه يستطيع أن يتحدث في شتى المواضيع دون عناء أو تكلف ويقدر على مشاركة الندمان في شربهم طول السهرة دون أن تبدو على ملامحه علامات السكر المفرط.

لم يلفت انتباهي من قبل. وما اعتنيت بطلب معلومات عنه. ولو كنت أجد لذّة في الاطلاع شيئا فشيئا على حقيقة شخصية جنودي سواء عندما أختبر سلوكهم في ساحة القتال أو أراقب حركاتهم في مجالس الشراب.

واليوم أمسيت لا أهتمّ بذلك إمّا لضيق الوقت أو لأن حب الاطلاع الذي يدفعني من قبل قد خبا في نفسي.

المهمّ وأنا أعود الى الحديث عن ميديوس هو أنّه يعرف متى ينبغي أن يتحدّث ومتى ينبغي أن يسكت. ويحسن كذلك القاء القصائد الشعرية فلا يتصنّع التفخيم ولا يبالغ في الحركات المعبّرة التي تفسد المعنى.

لم أسمح له بالقاء مقاطع من الالياذة ولو أنّه استأذن منّي أن يلقيها مرارا عديدة. وهذا أمر طبيعي لاني خصّصت هفستيون وحده بالقاء شعر هوميروس بمحضري لأنّه هو الوحيد الذي يدرك معنى ذلك النّوع من الصداقة التي تتحدّى الموت نفسها فلا تستطيع هذه إخمادها.

كان ميديوس ينشد قصائد لشعراء آخرين. ويستطيع عندما يراني مهموما أن يرتجل أبياتا مرحة في الخمر وأثره في النفس فيشيد بفرحة الحياة وبالنشوة العذبة التي تستولي على الرجل البسيط فتجعله يحسّ بأنه ارتقى الى سرير الملك.

وعندما تنتهي المأدبة الرسمية يدعونا ميديوس الى خيمته. وفيها نواصل مجلس الشراب ونفرط في الشرب. وعندما نمسك عن الشراب يقدر دائما على فسخ قرارنا قائلا ان الآلهة أنفسهم يلجأون الى احتساء الخمر لترويح أنفسهم رغم رصانتهم وعظمتهم وهم لا يخشون شيئا حتى الموت الذي يلازم البشر الفاني كالظلّ. فترانا نقتنع بقوله ونشرب جميعا الى طلوع الفجر.

ما استهوتني قطّ الحلول السهلة ولذلك أشعر الآن تمام الشعور بأنّه من المضحك والمؤسف معا أن أبوح بهذا السرّ : اذ لم أكن مشتغلا مع ولاة الاقاليم في جلسات عمل لتهيئة الزحف على شبه جزيرة العرب الذي نشرع فيه بعد أيّام قليلة قضيت الوقت في حضور تلك الولائم التي كانت تساعدني على استعادة الطمأنينة التي كانت تملأ نفسي في السنين الماضية عندما كنت أنفرد بصنع القرار وعندما كانت الظروف دائما مواتية.

ها أنا أنتظر الحملة القريبة. أتاني نيارخوس طالبا التعليمات وهو من أشجع أعضادي وأخلصهم اليّ. وكان قبيل كل زحف جديد يعرف متى ينبغي له أن يطلب تعليمات منّي ومتى ينبغي له أن يقوم وحده بمبادرات. وجرى نقاش بيننا ودار النقاش في تلك المرّة حول الزحف على بلاد العرب الذي تقرّر. وتبادلنا الرأي حول جميع النقاط المطروحة للدرس. وسررت لذلك. أمنيتنا فتح طريق تصل بانتظام البحر الاحمر بالخليج الفارسيّ... وربّما نستطيع تحقيق أعمال أخرى...

أنصت اليّ نيارخوس باهتمام. وكان يبدي من حين لآخر ملاحظة دقيقة تكشف عن حصافة رأيه وعن تجربة عميقة اكتسبها من قيادة الاسطول مدّة طويلة في مجاهل البحر.

وكان يعلم ونحن على أهبة الانطلاق أنّ هذه المغامرة الجديدة ستستغرق وقتا طويلا وتستدعي منّا تنظيما محكما. ولذلك كان يطلب منّي أن أصحب الاسطول الغازي ويصرّ على الطلب.

ولم أجبه بالسلب ولا بالايجاب. وربما كنت أحسّ أني غير قادر على تحمّل متاعب تلك الرحلة الطويلة. ولكن لم أمتنع صراحة حتى لا أحزنه.

لم يزل يعرض عليّ مشروعاته. وكان يعدّ ما أعددناه لاكتشاف سواحل شبه جزيرة العرب أهمّ رحلة بحرية استطلاعية قمنا بها. وكان يقول لي : حالما نجد الموقع المناسب نشيّد اسكندرية جديدة ستكون أعظم وأوسع من سميّاتها التي تحمل نفس الاسم. ونقيم في وسط المدينة نصبا لتمجيد السلطة المقرونة بالايمان بقدرة البشر التي تستطيع السيطرة على الطبيعة مهما قست واستعصت والارتقاء الى منزلة الآلهة.

كنت أجد متعة في الاستماع اليه. وكنت عندما يعرض عليّ مخطّطاته المطابقة لتعليماتي أصحبه بفكري في تلك الرحلة التي لن تكون لها نهاية.

ثمّ دعوت أعزّ خلاّني وشربنا ونحن نستمع الى ميديوس يحضّنا على الشرب بقوله : « لتكن هذه الاغنية بلسما لقلوبنا ».

وفي تلك اللحظات كنت ألبّي ذلك النداء لانّه هو النداء الصالح في الوضع الذي كنّا نعيشه.

النّصر

تقضّ هذه الرحلة مضجعي لأنّ المشروعات الجديدة التي ينبغي انجازها حسب التراتيب التى ضبطت جزئياتها مع أعضادي تخامر ذهني ليلا ونهارا. زوّدتهم بتعليمات مدقّقة. ولكن تبرز في نفسي من حين لآخر نقطة تحتاج الى مزيد من التدقيق.

أظنّ أننّا قاربنا بلوغ الهدف العظيم الذي رسمته منذ بداية المغامرة. وذلك بفضل الوحدة بين شعوب يونان والشعوب الاخرى التي بدأت تتدعّم يوما بعد يوم.

ومن حسن الحظّ أن جميع تلك الشعوب أصبحت تؤمن بضرورة الوحدة حتى أننا أمسينا لا نستطيع احصاء عدد الفرس والميديين والهنود الذين أصبحوا يفهمون لغتنا خاصة من بين الشبّان. واذا استثنينا الذين مازالوا متعلّقين بعاداتهم ومتمسّكين بلهجاتهم.

لا أعتني الا بالشباب لأنّه هو الذي سيواصل المعركة التي بدأناها ويحقّق الحلم الذي لازم أذهاننا بفضل ما يتمتّع به من قوّة وعزيمة صمّاء.

ودعوت النّاس في كثير من الأقاليم الخاضعة لنفوذي الى اقتناء الكتب اليونانية إيمانا منّي بأنهم سيجنون منها الفوائد الجمّة ويحذقون عن طريقها لغتنا.

وأمرت الاساتذة والعلماء اليونانيين الذين يصحبونني بالتفرّغ لدراسة علوم الشرق وترجمة مؤلّفات علمائهم الى لغتنا لأنّي أعتقد أننّا سنفيد منها جمّ الافادة. ولو أننّا نزعم أننا ألممنا بجميع المعارف. أظنّ أن ذلك التبادل في ميداني الفنّ والفلسفة الذي يجري في مناخ يسوده السلم والوئام بين الشعوب. سيساعد على المضيّ قدما لتجسيم مشروع حضاري شرعت في وضع أسسه بقوّة السلاح. ولا شكّ أن المرحلة التانية التي بدأنا نقطعها لم تتيسّر لنا لو لم نقطع المرحلة الاولى.

صرعتني حمّى استعصت على كل علاج. وأنا أحاول مغالبتها حتى لا تغيّر شيئا من مظهري لأنّ عامة النّاس وخلاّني أيضا لا يقبلون أن يبدو الغضب على ملامح الملك. فهم يفرضون عليه أن يظهر في كل لحظة قوّة لا تزحزها العوارض وأن يخطّ دائما الطريق الذي ينبغي سلوكه وأن يستنبط باستمرار مخطّطات جديدة للقيام بعمليات حربيّة مجدّدة.

فكنت أجنح أكثر فأكثر الى الوحدة حتى لا يلاحظوا وهني ونظراتي التائهة.

وفي اللحظات التي أعيد فيها ذكرياتي وأحيي ماضيّ برسم صوره على البرديّ أعود بمهجتي الى دودونا فأسمع حفيف أوراق شجرة السنديان المقدّسة التي علّمتني أولمبياس تأويل همسها وأتذكّر بعض نصائحها. كانت تقول لي انّه ينبغي للانسان كلّما قارب مرحلة أساسية من مراحل حياته أن يستعدّ لها بتجميع شتات فكره وشعوره في عمليّة تركيز سريّة تجري في أعماق النفس. هدفها انضاج الروح حتى تكون قادرة على مواجهة المرحلة الجديدة.

وأجدني في معبد أمّون أمام الباب السرّيّ. لا أرى الاله كما رأيته عندما زرته في معبده. ولكن أرى عمودا من النّور الساطع متغيّر الحجم والمظهر ألمح فيه حينا فيليبوس بملامحه القاسية الضارية التي عهدتها فيه في ساعات القرارات الحاسمة وحينا هفستيون بجماله الرائع ورصانته وحينا آخر خلاّني الذين سقطوا في ساحة الشرف.

وأسمع في تلك الحالات جلبة النّصر تلك الجلبة التي طرقت سمع ديونيسوس عندما توغّل في أعماق القارة الهندية بعد أن احتلّ معظم القارّة الآسيوية. فأطلق عليه لاجل ذلك كله لقب المنصور.

ولكن النّصر الذي ظفرت به لا يشبه نصر ديونيسوس. إنه نصر يشاركني فيه أعزّ خلاّني. وأنا أعتقد أن الجلبة التي أثارها ستبقى داوية الى آخر الدهر ولو مزّق ملكي خلفائي وتألّب عليّ أعدائي وحلفائي.

سوف لا يتعالى نشيد النصر لتمجيد امبراطور ملك البرّ والبحر ولكن سيتعالى نشيد لتمجيد اله لا يقدر بشر على تشويه سمعته ولا يمحو ذكره أيّ حدث عارض ولو بعد عدّة قرون.

مالك المخطوط يتدخل من جديد

ما هي الظروف التي أحاطت بموت الاسكندر العظيم ؟ وما هي أسباب ذلك. الموت المفاجىء عندما بلغ من العمر ثلاثا وثلاثين سنة وهو متمتّع بجميع قواه العقلية ؟

لم نعثر على جواب مقنع عن هذا السؤال. وأقول بكلّ تواضع أن الأسئلة الهامّة المطروحة بخصوص حياته ومعاركه ومشروعاته بقيت بدون أجوبة موثوقة.

لا شكّ أننا نجد عددا كبيرا من الاجوبة في الكتب الكثيرة التي تناولت حياته وأعماله بالدراسة والتحليل أو بالاحرى شوّهت حياته وأعماله. ولكن نفتقد الجواب الموثوق.

ويتوه كثير من النّاس عند الحديث عن الاسكندر في خضمّ من التخمينات ويسبحون بخيالهم في شتى الاتجاهات.

ولو عثرنا يوما على « اليوميّات الملكية» التي سجّلت تفاقم مرض الاسكندر يوما بعد يوم لانكشفت لنا الحقيقة وأعني بها الحقيقة المجرّدة. وهي الحقيقة الوحيدة التى ترفع الستار عن الاسباب الحقيقية لموت الاسكندر المقدوني.

سألجأ مرّة أخرى الى كتاب أرّيان لازالة هذا الخلط. قد يدّعي بعض النّاس أني أجنح الى الحلّ الايسر. ولكن ليست لديّ طريقة أفضل لأن مخطوط بابل ينتهي عندما يلاحظ الاسكندر أنّ أحاسيسه بدأت تضعف وأن العالم المحسوس انغلق في وجهه ليترك مكانه عوالم الاسطورة والحلم.

فأنّ أرّيان لا يقتصر على ابداء آرائه الشخصية بل يضيف اليها مجموعة من الاحتمالات توضح نوعا ما الاسباب التي أدّت الى موت الاسكندر الكبير في بابل وهو في سنّ الشباب.



نقد ذهبي عليه صورة الاسكندر ذو القرنين

ولذلك أعود الى ما كتبه صديقي أرّيان النيكوميدي وأنقل بشيء من التصرف الفقرات التي أوردت بعض الاجوبة عن الاسئلة الخطيرة المطروحة بشأن موت. الاسكندر ابتداء من اليوم الذي قام فيه آخر مرّة بتقديم القرابين للآلهة (أو بالاحرى للاله الواحد الفرد الذي لا يتجزّأ (وقد كان يهيء تجلّيه في الكون كما لو كان ينتظر في أعماق نفسه اشراق عهده).

لقد نشر الاسكندر اللغة اليونانية فبلغت في انتشارها أقصى الارض. وقد كانت هذه اللغة وعاء لآراء الكتّاب القدامى ولمعاني الرحمة التي أتى بها السيد المسيح.

امتزج الشرق والغرب في فكر الاسكندر وفي وجدانه وأصبح لا يفرّق بين الشعب اليوناني وغيره من الشعوب بل يرى أن البشرية جمعاء هي شعب واحد.

تلك هي الشرارة المقدّسة التي أضاءت وأحرقت العباد والشعوب والأمم والافكار.

أقول عمدا أضاءت وأحرقت لأنّ الاحداث الجسام ذات الاثر البعيد تنير وتحرق فتصهر العباد والشعوب وتيسّر الامتزاج والتآلف بين الافراد والجماعات. والأمر يختلف طبعا باختلاف تأثيرها في البشر وتأثّر البشر بها.

لا أريد أن أقصّ ما جرى ولا أن أصدر أحكاما بل أفسح المجال لرفيق الدرب مؤرّخ نيكوميديا.

اليكم ما كتبه أرّيان في الباب السابع والأخير من « غزاة الاسكندر » عن موت الملك.

من هنا وهناك حول موت الاسكندر

كان متعبا جدّا لما أشرف على تقديم القرابين لآخر مرّة في حياته. وبعد أن أتمّ القيام بالطقوس الدينية التفت الى الضباط السامين المحيطين به على اختلاف درجاتهم واختصاصاتهم وأمرهم بالعودة الى بيوتهم والكفّ عن الظهور بالقصر. كانت هذه الكلمات التي خاطب بها الضباط السامين للجيش آخر أمر تفوّه به.

وحمل الى قصره لأنّه عجز عن المشي. وكانت حالته الصحية سيئة للغاية.

ولازمته حمّى عاتية جعلته عاجزا عن التلفّظ ولو بحرف واحد. ولكن الناظر الى تقاسيم وجهه يفطن بأنّه مازال يستطيع أن يميّز بين أقربائه.

وقد سجّلت « اليوميّات الملكية» تفاصيل كلّ ما جرى بمنتهى الدقة. وهي المرجع الذي أقتبس منه الآن ما سأورده من معلومات حول الظروف التي أحاطت بوفاته.

عندما بدأ نبأ موته ينتشر بصورة غامضة بين النّاس هرع الضبّاط والجنود الى القصر في جموع غفيرة. وولجوا الأبواب عنوة. وهم عاجزون عن كبح الرغبة التي كانت تدفعهم الى رؤيته ولو ميّتا.

ولكن عندما دخلوا عليه لاحظوا أنّه مازال حيّا ولكنه فقد القدرة على الكلام. فكان ينظر الى جنوده وهم يمرّون الواحد تلو الآخر صامتين وهو لا يقدر على مخاطبتهم.

كان ينظر بحسرة الى أولائك المقاتلين الأشاوس الذين شاركوه المحن والانتصارات. وكانت نفسه تتوق الى مخاطبتهم ولكن لم يستطع التعبير عن ذلك الشوق الذي كان يهزّه الا بحركة لعينيه يكاد لا يدركها النّاظر اليه. وكانت حركة عينيه تعبّر عن مدى حبّه لرفاقه في القتال.

وسهر بعض أقربائه ليلة كاملة في معبد إلاله سيرابيس كما جرت به العادة في متل تلك الحالات. كانوا يريدون أن يعلموا في تلك الساعات الحرجة هل أن الاله يوافق على نقل الاسكندر الى المعبد حتى يقوموا بمحضره بالدعوات والابتهالات للتعجيل بشفائه. ولكن رفض الاله طلبهم قائلا :

ـ ليبق في مكانه فذلك خير له.

ولفظ الاسكندر بالنفس الاخير بعد ذلك بقليل. وربّما كانت تلك حسن الخاتمة التي أشار اليها الاله.

ان أرسطوبولوس وبطليموس أوردا نفس التفاصيل حول موت الاسكندر. ولكنّهما يضيفان ما يأتي : عندما سأله أصدقاؤه وهو في النّزع الاخير عن خليفته أجاب بلهجة مريرة : « إلى الاقوى ».

تنبّأ الاسكندر في جوابه المقتضب بأطماع خلفائه الجارفة التي سوف تفضي بسرعة الى تمزيق مملكته التي كوّنها بعناء شديد بعد خوض حروب طاحنة لا تعدّ ولا تحصى.

راجت بين النّاس كثير من الشائعات حول سبب موت الاسكندر السابقة لاوانها.

فمنهم من ادّعى أنّه مات من أثر سمّ ناوله اياه أنتيباتروس[118]. وقيل إنّ أنتيباتروس هذا تسلّم السمّ من يد أرسطوطاليس الذي حقد على الاسكندر منذ اليوم الذي ثار فيه نزاع شديد بين الملك وكاليستان أودى بحياة هذا الأخير.

ومنهم من اتّهم كاسندروس ابن أنتيباتروس. وقيل انّه هو الذي أتى بالسمّ الى مدينة بابل.

ومنهم من وجّه التهمة الى إيولاس أخي كاسندروس لأن ايولاس كان يسقي الشرب في المأدبات فكان في امكانه أن يصبّ السمّ بكل يسر في قدح الملك. خاصة أنه كان حاقدا على الاسكدر لأنه غضب عليه غضبا شديدا قبل أيّام في احدى نوباته العصبية وأهانه بالغ الاهانة.

واتهموا أيضا ميديوس خليل ايولاس. قيل انّه كان شريكا في الجريمة. وهذه الاشاعة تعتمد على الأمور التالية : دعا ميديوس الاسكندر الى مواصلة مجلس الأنس في بيته. وعندما حلّ بالبيت قدّم ميديوس الى الاسكندر أنواعا متعدّدة من الخمور

فتناولها. وأحسّ بعد تناولها بآلام شديدة كانت فاتحة للاعراض التي قضت عليه.

وقد تجرّأ أحد مذيعي هذه الشائعات المتضاربة الى أن ادّعى أن الاسكندر أحسّ بأنه لم يبق له أمل في الحياة فتوجه الى الفرات عازما على الالقاء بنفسه في اليمّ ليغرق فيه. وكان يريد من وراء ذلك الانتحار المحجوب عن العيان أن لا يترك أثرا لموته حتّى يرسخ في أذهان الاجيال القادمة أن الآلهة رفعوه الى السماء وأنّه ابن أمّون حقا. ولكن في آخر لحظة وفي الوقت الذي خرج فيه الاسكندر متسلّلا من القصر قاصدا النهر لحقته زوجته روكسانا(119) فتعرّضت له وصدّته عمّا عزم عليه. وأنّبها الاسكندر أشد التأنيب بعد ذلك قائلا لها إنّها حرمته من مجد خالد لانّها منعته من الالتحاق بالآلهة وهو من سلالتهم.

ليست هذه الاشاعات مقنعة تماما. ومعاذ الله أن أطلب من القراء تصديقها. واذا أوردتها هنا وقدمتها كمجرد أقاويل فحتّى لا يظنّ أحد ممن سيقرأون «غزاة الاسكندر» هذه أني أجهلها.

خاتمة موجزة وتكميلية لكاتب سيرة الاسكندر أرّيان النيكوميدي

لا أرى أنّه ينبغي أن نعتبر الاخطاء التي ارتكبها الاسكندر أخطاء جسيمة. ولو أنّه انساق الى ارتكاب هفوات في ساعات الغضب أو عندما يصاب بنوبات عصبية. ولو أنّه افتتن بعادات الأعاجم وطرق عيشهم فتبناها أحيانا.

كان حديث السنّ لما أقبلت عليه الدنيا وبدأت جميع أعماله تكلّل بالنصر. ولا غرو أن المجد المبكّر يدفع صاحبه الى القيام بمبادرات نابية. هذا بالاضافة الى سوء تأثير مستشاريه : ذلك الرهط الذين يحيطون عادة بالملوك العظام ويسلكون معهم سلوكا يصطنعونه. فلا يأتونهم الا بالانباء السارّة خشية إثارة غضبهم ويجتنبون اسداء النصائح النافعة لهم ويقتصرون على التملّق لهم عند مخاطبتهم.

وأرى من واجبي أن أؤكّد هنا أن الاسكندر هو من بين الملوك الاقدمين الرجل الوحيد الذي برهن عن مروءته بندمه على ما كان يقترفه من الأخطاء وباعلانه عن استعداده للتكفير عنها.

ينبغي لمن يتسرّع فيقذف الاسكندر أن لا يكون حكمه عليه معتمدا على احصاء بعض زلاّته وأعماله المنكرة فقط بل على نظرة شاملة لسلوكه تفحص النّواحي الايجابية والسلبية معا. وقبل اصدار حكم لا رجوع فيه ينبغي للناقد أن يقيس قدراته الشخصية بما قدر الاسكندر على تحقيقه من الأعمال الجليلة والانتصارات الباهرة. اذ إنّ الاسكندر استطاع أن يستولي على قارّتين اثنتين مذيعا اسمه وناشرا أنباء بطولاته في جميع أصقاع العالم. وهذا أمر يفرضه الواقع ولا يستطيع أسلط النقاد لسانا أن ينكروه.

اذن يبغي لمن ينقده متعجّلا ومتساهلا بذلك التساهل الذي يخفي الحسد أن يتفطّن الى الحدود المفروضة على أعماله التي تجعله في أغلب الحالات لا يقدر على انجازها على الوجه الأتمّ.

ويحسن أن نشير الى حقيقة لامراء فيها وهي أنّه لم يوجد في عهد الاسكندر قطر أو مدينة أو حتى شخص لم تبلغه شهرة الرجل. وأنا أعتقد أن الاسكندر أنجز تلك الأعمال الجليلة التي تثير الاعجاب بفضل قوّة الاله الذي شاركه نواياه وأعماله.

لا يوجد في الحقيقة رجل يقارن بالاسكندر ووهب نفس الامتياز ونفس العظمة.

كان في واقع الامر إلها
أو الخاتمة الثانية على لسان مالك المخطوط

هكذا انتهت «غزاة الاسكندر» حسب رواية أرّيان وهكذا انتهى مخطوط بابل.

ولا أدري هل أحسنت صنعا عندما أذعته بين النّاس لأن الاسكندر كان يتمنّى أن يتلف حتّى لا يطّلع أحد على شخصية «الاسكندر الآخر» التي تبرز بين سطور النّص. ولكن ما استطعت مقاومة الرغبة التي كانت تدفعني الى إطلاع غيري على هذا النّص الذي أعجبت به كثيرا وصاحبني طوال الرحلة التي قمت بها في آسيا من أدناها الى أقصاها متجولا في الاصقاع التي كانت مسرحا رائعا لحياة المقدوني الطموح أو — اذا شئتم — للاسطورة التي نحتها نحتا.

وعندما انتهيت من قراءة هذا المخطوط بعد أن أقدمت على اقتفاء خطى ذلك الرجل كالظل التائه في فضاء نوره الساطع أيقنت بأنّه إله حقا.

أعيد فقط ذكرى احدى لحظات الشك التي ساورت الاسكندر عندما أثخن بالجراح في معركة من تلك المعارك العديدة التي كان يدفعه حماسه الفيّاض فيها الى التعريض بحياته. فلما رأى نفسه مطروحا كأيّ جندي من جنوده المجندلين جسّ كلومه وأحسّ بدم سخن يسيل بين أصابعه فالتفت الى هفستيون والى الخلاّن الذين كانوا يحيطون به وقال لهم بصوت مرير :

ـ هذا دم ولا شكّ، وليس الذي يسيل إخورا[120]. هذا أمر عجيب. عجيب حقّا لأن السائل الذي يسيل في عروق الآلهة هو الإخور.

لم تدم خيبة الأمل هذه طويلا وذلك راجع الى حسن طالعه بل سرعان ما نسيها لأنّ ايمانه بأنه إله تغلّب على الدلالات المتناقضة التي توحي بعكس ذلك.

اذن — وليكن ما سأبوح به الآن سرا بيننا في هذه الساعة التي أنهي فيها

نسخ المخطوط ـــ لا ينبغي أن يشكّ أحد منكم في أنّه كان إلها ولا يليق بكم أن تنساقوا الى تأييد تفكير منطقي سخيف يحاول دون جدوى استنقاص الأحداث الجسام التي تجري من حولنا.

كان الاسكندر انسانا يتّصف بجميع صفات الانسانية ولكن القوّة الخفيّة التي كانت تسكنه سمت به الى مستوى الاسطورة لا في نظر شعوب يونان فقط بل في نظر جميع شعوب العالم.

لقد سبق أن قلت إن الأساطير تكتسب جمالها من محافظتها على نضارة شباب لا يزول. فالاساطير لا ينال منها الدهر أبدا لأنّها تجدّد دائما كيانها. وهكذا وصلت الينا أسطورة الاسكندر ولم تفقد ذرّة من بهائها.

ان وجه الاسكندر ولو كان منحوتا في المرمر أو البرنز يشعّ بقوّة تفوق القوى البشرية. فهي قوّة تخلب الالباب أو تبعد الشرور وهي شبيهة بتلك القوى النابعة من الاقنعة السحرية التي صادف أن شاهدتها بآسيا أثناء حفلات دينية سريّة تقام باقليم نيبال[121]. فهذه الاقنعة تخلب لبّ من حدّد اليها النظر بمفعولها السحري.

حقّا ان صورة الاسكندر تحتوي على نفس القوّة المخزونة في الاقنعة السحرية. هذا ما أكّده لي كثير من حكماء الهند في بنارس مدينة الهندوس المقدّسة وكثير من حكماء التبّت[122].

عثرت في «المنتخب الشعري الاسكندراني البلاطي»[123] على قطعة شعرية قصيرة لبوسيديبوس يمدح فيها ليسيبوس الذي خلّف لنا أروع تماثيل رأسية للاسكندر وأقربها لصورته الحقيقية :

تحيّة لك يا ليسيبوس المبدع الموهوب من الآلهة.
يا من كانت له سكيون[124] موطنا.
وجه الاسكندر الذي نحتّه من البرنز
يرسل الاشعة.
ذعر الفرس لما رأوه
ففرّوا
كما يفرّ الثيران
أمام الاسد الضاري.

اذا قدر هذا الوجه على اخضاع جحافل الفرس فانّه قدر أيضا على تحقيق مأثرة أعجب وأبهى وهي اخضاع الزمن بأبعاده الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل ومحاه محوا ليعوّضه بزمن حاضر ذي بعد واحد لا يحول.

ان الحكاية الشعبية الساذجة التي تقصّ قصة السيدة قرقونا التي تريد أن تتأكد هل أن الاسكندر مازال حيّا ومازال يحكم هي رائجة الى الآن في جميع الاقطار وحتى على قمم جبال الهندوكوش المنيعة.

وهكذا نشأت الاسطورة وانتشرت في اللحظة التي انتهت فيها سلسلة الاحداث التأريخية التي منحت للاسكندر الخلود.

شاهدت بنفسي أن أسطورته مازالت حية اثناء تلك الرحلة الطويلة التي انتقلت فيها من الباكستان الى أفغانستان ومن أعماق الهند الى تلك القرية النائية المنعزلة في إقليم نيبال التي تسمّى كانكاني ومن ايران حيث زرت أنقاض مدينتي برسيبوليس وباسرقادس اللتين تعيدان ذكرى أمجاد الفرس الى سوريا ومدنها الهلّينستية.

وحدثني كثير من النّاس عن الاسكندر الكبير أثناء تلك الرحلة الطويلة. وادّعوا أمامي بكلّ ثقة أنّهم من سلالته وأنّهم أحفاده. وأريد أن أشير الى أنّهم كانوا جميعا أناسا بسطاء وأمّيين يتعاطون الزراعة أو الرعي ولم يتجاوز اطّلاعهم على الدنيا حدود المنطقة المحيطة بقراهم ومنازلهم التي يعملون فيها لاكتساب قوتهم.

لم تكن لديهم أيّة معلومات تأريخية وقد لقنّوا في أحسن الحالات مبادىء القراءة والكتابة بلهجتهم المحليّة. وإنما كانوا يتحدّثون عن الاسكندر بكلام فصيح ومؤثر رغم بساطته كما لو كان البطل أقرب الاقربين اليهم. وكان فريق منهم يدّعون أن أسلافهم الأوّلين عرفوا الاسكندر وقاتلوا في صفوف جيشه.

وصاحبني صديقي أزار محمود الموظف بالمركز السينمائي الوطني بكراتشي في هذه الرحلة. وكان لي دليلا ومترجما. فيسّر لي الاتصال بأولائك النّاس البسطاء الذين يتكلّمون بلهجات محلية تتغيّر بتغيّر المكان.

وساعدني بكل صبر حتى أستطيع التحادث مع «أحفاد» الاسكندر الكبير. وأقرّ لي جميعهم أو أغلبهم بأن آباءهم وأسلافهم هم الذين غرسوا في أنفسهم اقتناعهم بانتسابهم الى الاسكندر وإنّهم سيغرسونه بدورهم في نفوس أبنائهم وآحفادهم.

﴿ أكّد لي شيخ نوتي باكتساني يحمل الركّاب والبضائع في زورقه على نهر الهندوس (السند) الذي يجري قريبا من ثاتا المدينة المقدسة أن أجداده قدموا من جزيرة كريت (إقريطش). غادروا جزيرتهم مع أمير البحر نيارخوس الذي صحب الاسكندر. واستوطنوا في قرى تلك المنطقة على ضفّة النهر بعد نهاية حملة الاسكندر.

وكنت أستمع اليه وأنا مبهوت. كان يحدّثني عن كلّ ذلك بلهجة طبيعية كما لو كان يقصّ عليّ أحداثا قريبة في الزمان شاهدها بعينيه.

وتوجه الى القنطرة الكبيرة التي تصل بين ضفتي النّهر في مكان قريب من مصبّه في البحر. ووقف عند ضفّة النّهر ونظر الى مياهه المضطربة التي يعلوها الزبد وقال بلهجة طبيعية :

ـ في هذا المكان بالذات أنهى «اسكدر سيام» أي الاسكندر الكبير حملته. ونزل عدد كبير من جنوده في هذه البقاع واستوطنوها. وكان أجدادي من بينهم.

وكانت عربات تجرّها الثيران تعبر النّهر سالكة القنطرة. وكانت مثقلة بحمولتها عليها نسوة وصبية وخرفان. وكان الضجيج الذي تحدثه وهي تمرّ على القنطرة يصمّ الآذان. فلم أعد أسمع ما يقوله الشيخ النّوتي. ولكن هل من المفيد أن أعلم أشياء أخرى ؟

كفى أنّي علمت منذ تلك اللحظة أن أسطورة الاسكندر بقيت حيّة هنا يتعامل معها النّاس بصورة طبيعية كما لو كان الاسكندر معاصرا لهم. لم ينل من صورته الدهر مهما طال الزّمان.

قد حافظت أصقاع آسيا المترامية الاطراف التي قطعها الاسكندر بسرعة البرق على أسطورته واضحة السمات حاضرة حضور الواقع المعيش تتحدّى المنطق المألوف.

أذكر لكم من بين ما احتفظت به من عديد الصور والذكريات التي تزدحم في ذاكرتي منذ قمت بذلك البحث الطويل في آسيا طوال رحلة تعدّدت مراحلها حادثتين اثنتين تدلاّن بكل وضوح على أن الاسكندر الاله حيّ لا في طيّات الكتب الجامدة فحسب بل أيضا في قلوب الرجال الدافئة.

في فضاء فسيح تحرقه الشمس فيقسو نشاهد ربوة مستديرة عريضة القاعدة دقيقة الذروة تحيط بها حقول مزروعة. وفي تلك الحقول فلاّحون باكستانيون

منحنون يفلحون الأرض التي هي مصدر رزقهم طوال حياتهم ونصيبهم في هذه الدنيا. وتحرقهم شمس قاسية ويكسوهم العرق وتبدو عليهم علامات التعب الشديد. وقريبا منهم صبيان يلعبون بالتراب ويطاردون جمالا صغيرة تعدو أمامهم. فاذا التحقوا بها ركبوها وابتعدوا بها يتبعهم سحاب من التراب المثار.

كنت بقرية مانكيالا على بضع كيلومترات من مدينة تاكسيلا[125]. وكانت تلك مرحلتي الاولى بعد الاكتشاف المثير الذي بهرني في تاكسيلا المدينة اليونانية العتيقة عندما زرت متحفها : لقد احتفظت تماثيل بوذا المودعة في المتحف على سمات وجه الاسكندر الكبير وعلى نظرته الحادة التي تعبّر عن عزيمته الصمّاء.

أتيت الى مانكيالا تقودني اليها أسطورة. قيل إنّ الاسكندر الكبير دفن تحت هذه الربوة الواقعة وسط هذا السهل الفسيح أوفى رفقائه. ذلك الذي صاحبه في جميع معاركه وغزواته. وهو حصانه بوكيفالوس. ويسمّي أهالي المنطقة ذلك القبر العالي «ستوبا».

لا نجد في التأريخ ما يؤكد هذا الزعم. ومعنى ذلك بكل بساطة أن للاسطورة تأثيرا يفوق تأثير التأريخ. وأن الزمن اذا طال عمّق ذلك التأثير ورسّخه في النفوس.

واتجهت صحبة الدليل الباكستاني أزار محمود الى الفلاحين الذين كانوا يعملون بجهد تحت الشمس المحرقة وحييناهم وردّوا التحية بحرارة على عادتهم. يبتسمون وينحنون قليلا برؤوسهم ويصافحون ممسكين اليد بين الراحتين. وكانوا يتكلّمون لغة هي من أقدم لغات الهند.

ودعونا لننزل ضيوفا عليهم بتلك البساطة واللباقة في الاستضافة التي يتحلّى بها أيضا فلاّحو موطني. فالتمسنا منهم العذر نظرا لضيق الوقت. وبيّنت لهم سبب زيارتي لمانكيالا عن طريق الدليل.

وأشرق وجه أكبر الجماعة سنّا عندما علم أنّي «يافاني» أي يوناني (إغريقي) وأخذ يتحدث باسهاب محبّب عن مرور «اسكدرسيام» بمانكيالا. وأشار بفخر الى «الستوبا» التي دفن فيها بوكيفالوس.

وسألته قائلا :

ـ هل قرأت هذا الخبر أو هل حدّثت عنه ؟

قال ببساطة :

ـ لا أعرف القراءة. ولكن جميع أهالي قريتي يعلمون ذلك منذ طفولتهم.

وكان جدّي ملمّا بكثير من التفاصيل. وكان النّاس يغنّون أغنية عن «اسكدرسيام» وبوكيفالوس.

والتفّ حولنا الاطفال تاركين ألعابهم وكافّين عن مطاردة صغار الجمال وحقّقوا فينا النّظر بفضول.

وسألهم الشيخ عن «اسكدرسيام». فأجابه كبارهم بأنهم سمعوا عنه أخبارا غامضة وأنّهم يعرفون ما تحويه الربوة ويعلمون من هو بوكيفالوس.

وعمّ الحقول التي داعبتها آخر أشعّة الشمس المحمرّة سكون يبعث الطمأنينة في النفوس. وتعالت فجأة جلبة وضوضاء وسمعت صهيل خيل ودقّ حوافر على الأرض وصيحات مقاتلين. ولمحت من وراء الربوة على خط الافق الذي امتزج فيه لون الورود بلون الذهب شبح جنديّ يحيط به النّور من كل جانب.

وفي تلك الساعة التي تفصل بين الليل والنّهار استعاد ذلك الفضاء الريفي الهادىء بعده التأريخي !

أما الصورة الاخرى التي تشير الى أنّ الاسكندرِ الاله مازال حيّا بيننا فانّي التقطتها في مدينة هدّا.

هدّا مدينة عتيقة مقدّسة تقع في وسط أفغانستان قرب إتزيلاليات.

حارس الآثار بها نورستاني. وعندما علم ما هو موطني دمعت عيناه ومدّ ذراعه مشيرا بتأثّر الى الجبال التي كانت تبدو باهتة في أقصى سهول هدّا وقال :

يختفي اقليم نورستان داخل تلك الجبال. نحن من أصل يوناني وكان أجدادنا جنودا مقدونيين أتوا مع «اسكدرسيام» ونزلوا هنالك واستوطنوا بتلك الارض.

فسألته قائلا :

ـ كيف تستطيع أن تجزم بذلك ؟

فأجابني جوابا لا يحتمل المعارضة قائلا :

ـ هي الحقيقة بعينها. فعليك أن تنزل بقطرنا وتعيش معنا لتقتنع بما أقول. كنّا الى بداية هذا القرن نعبد الآلهة اليونانيين القدامى. ولكن أرغمنا على التنكّر لديننا واعتناق دين جديد. وإنما حافظ شيوخنا ـــ أعني بذلك كبارنا سنّا ـــ على عقيدتهم الاصلية.

كان رجلا من عامّة القوم يرتدي ثيابا رثّة قد عضّته الأيام مثل أغلب سكّان ذلك القطر فتركته فقيرا معدما. ولكن كان أبيّا كريما. فلما مددت يدي لاناوله بعض النقود جزاء مصاحبته لي ليدلّني على آثار هذا العتيقة لم يقبل الهبة قائلا :

ـ أنتم أول من أتانا من شعب يونان. فاستقبالكم بالحفاوة التي نقدر عليها من أوكد الحاجيات.

سأقصّ عليكم من جديد قصة الاسكندر. مات قائد عسكري وحلّ مكانه إله.

وحضور ذلك الاله يثير دائما تأويلات متناقضة مثل حضور الآلهة الآخرين.

أصبح ذلك الاله ذريعة للاتّجار والاستغلال والانحراف. شأنه شأن سائر الآلهة.

ولكن كان إلها على كلّ حال إلها في نظر فلاح مانكيالا البسيط الذي يقيم قريبا من تاكسيلا وفي نظر ملايين من العباد يقطنون في أعماق آسيا ويقدرون الى اليوم على التعلّق بالاسطورة بروح فيّاضة بالوجد الصوفي رغم فقرهم المدقع وجهلهم.

كان إلها أيضا في نظر بعض العالقين بطقوس التطهّر في مياه نهر القنج المقدسة. يعومون في النّهر ويطفو من حولهم ما طرح فيه من رماد ومن قطع محروقة من لحم البشر أُتي من محارق الجثث المكشوفة التي لا يقيها سقف. وينتظر أولائك أيضا «اسكدرسيام» لانّهم يعتقدون أن الاسكندر لم يمت.

ان تلك القوّة البشرية العجيبة التي تعبق بعبير شذيّ لم تتلاش ولم تضمحلّ.

لم يترك لنا أرّيان وهو المؤرخ الدقيق أي خبر عن مكان ضريحه ولم يقل لنا أين نقلت جثّته في حين أنّه يؤكد على تفاصيل عديمة الاهميّة منقولة من الكتب جمّعها بعناية حتى لا يقال عنه إنّه لم يطّلع على جميع المراجع.

جميع من تطرّقوا الى هذه المسألة غطّوها بغشاء من الغموض والخلط. ولم يعثر أحد على قبره أو على أثر لقبر دفن فيه ثمّ أخلي من الجثة رغم الابحاث الكثيرة التي أجريت للعثور عليها. لو قرّر القواد الذين تقاسموا مملكته أو خلفاءهم الذين أتوا بعدهم اخراج الجثّة من القبر لعثرنا على أثر لذلك أو دلالة.

نحن نعلم أن العلماء عثروا على كثير من الآثار التي ترجع الى العهد الهلّنستي فكيف لم يهتدوا الى اكتشاف أهمّ أثر لذلك العهد وهو قبر الرجل الذي يمثّل فاتحة ذلك العهد الجديد.

لا جواب عندي ولا أحاول ولوج ذلك الباب السرّي الذي يشبه تماما الباب الذي ولجه الاسكندر في معبد صحراء مصر. وإنّما لازمني ذلك التساؤل طوال الرحلة الى أعماق آسيا بحثا عن حقيقة الاسكندر.

إن المنطق لا يقبل الأمور الخفيّة بل يرفضها لانها فاقدة في منظاره لكل أساس ولكن الموت يعيد للسر دوره المجحود ويهبه حياة خفيّة تكسبه بعدا آخر هو بعده الحقيقي.

وإن إله بابل عندما كتب هذا المخطوط في الأيام الاخيرة من حياته ترك لنا مفتاحا نستطيع أن نفتح به بابا آخر. أعطاني تزيلال ذلك المفتاح في اليوم الأخير من اقامتي ببابل عندما سلّم الي هذا المخطوط. فحملت معي لما غادرت المدينة هذا الكنز الذي لا يقدّر بثمن. وسلمت المخطوط لمختصين حتى يجمعوا أجزاءه ولمختصين آخرين ليقرأوه ويفكّوا رموزه. ولكن المخطوط بقي رغم ذلك وثيقة تحتوي على فراغات وفقرات مشوّشة. فأنا أقدّم لكم هذه الوثيقة كما هي جوابا عن الاسئلة المطروحة ومفتاحا لما استغلق من الأمور.

الى من ينبغي أن يسلم هذا المفتاح ؟

يسلم الى الذين يعرفون أين يوجد الباب السرّي ويؤمنون بوجوده ويشتاقون الى رؤيته ويخشونها في نفس الوقت.

أنقل الآن شذرات من الجزء الأخير من المخطوط وأهديها بنفس الحميّة التي جعلتني أنبذ المألوف من العقائد الى كل من أنصت الى صوت الاسكندر وهو يبوح بمكنون نفسه.

الدورة الاخرى

قال لي حكماء الهند الذين قابلتهم في مدينة تاكسيلا :

ـ أتيت الى هنا. وحاربت. وجُرحت وانتصرت. ولكن لم تغيّر أي شيء. ولن يتغير أي شيء في هذه الدنيا.

فأجبتهم قائلا :

ـ نعم. أنا أعلم ذلك. ولكن الكفاح له وجود. وذلك الوجود يتجاوزنا ويفوقنا. كم اشتقت الى استكشاف المحيطات المترا مية الاطراف. وكم تاقت نفسي الى بلوغ أقصى الارض والانتهاء الى أبعد نقطة يقدر الانسان على بلوغها. فاذا لم أبلغ النقطة فعزائي أني كافحت.

فقال لي الحكماء :

ـ وما فائدة ذلك الكفاح ؟ إن الذين أنقذتهم من البلايا سيبدّدون إرثك يوم وفاتك ويبذلون كل ما في وسعهم لازالة ذكرك ومحو اسمك من أذهان النّاس. اذن لماذا تكافح ؟

ـ أكافح في سبيل الاله الواحد حيثما يوجد. وأكافح أيضا محبّة للكفاح.

ان أمّي أولمبياس هي التي كشفت لي عن ذلك المجهول البعيد الغور الذي نحتضنه في أنفسنا. فغصت فيه فوجدته أقسى وأخوف من صحراء قدروسيا ومن لهيبها. ولن يقدر أحد على فكّ لغز ذلك المجهول ولذلك لن يستطيع أحد ادراك حقيقتي. لماذا أطلق عليّ رسل اليونان لقب «الاسكندر الكبير» عندما قدمت وفودهم الى بابل محمّلين بآيات الولاء وتيجان الذهب. لن يستطيع خلفائي ولا الأجيال القادمة فهم الوازع الذي دفع مجموع الشعوب اليونانية الى احلالي تلك المنزلة السامية. سيبقى ذلك الاعتراف العارم بمنزلة تفوق منزلة البشر لغزا سيحاول

فكّه الباحثون والمؤرخون وكذلك الكتّاب الذين يخدعهم خيالهم وذلك باقتراح مختلف التأويلات. وسينتهي كل ذلك الى تزييف شخصيتي.

فالمجهول الذي لا تدرك أغواره ساكن فينا ومسيطر على ما يحيط بنا. ولا عجب أن يغيّر ملامح الشخصية في نظر من لا يستطيع ادراك كنهه ومعناه.

سوف أعود. وسوف أعبر عتبة باب إشتار ولكن في الاتّجاه المعاكس. وأقوم من جديد بنفس المغامرة من بدايتها الى النهاية. سوف يؤمنون بي ويمجّدونني ثم يخونونني.

لقد جرحت مرات كثيرة في حياتي وان أنكى جرح هو جرح الخيانة ولكنّ الخيانة أمر لا مفرّ منه. شأنها شأن الموت. فهي ملازمة للبشر الفاني وللآلهة الخالدين أيضا تتبعهم كالظل طيلة سيرهم.

سوف أعود. وسوف يستقبلني النّاس في موكب بهيج حاملين جريد النخل. وأطوي من جديد نفس المسيرة المحدّدة منذ الأزل والتي تنتهي في الموعد الموعود أي عندما أبلغ السنة الثالثة والثلاثين من عمري.

سوف أنشىء عالما جديدا لجميع البشر مهما كانوا وحيثما كانوا. ويلهج النّاس بذكري ثم يهدمون ما أنشأت مشنّعين باسمي. ويفنى كل ما أنجزته الى الأبد. ذلك ما كتب للنّاس جميعا : المجد والمحنة والموت والنشور.

ببابل في شهر دايسيوس.

كتب بيد الاسكندر بن فيليبوس أو أمّون.

(يقول مالك المخطوط إن شهر دايسيوس يقابل في مقدونيا شهر يونيو).

توفي الاسكندر يوم 28 من شهر دايسيوس سنة 323 قبل ميلاد المسيح. ولا ريب أن الاسكندر كتب هذا المخطوط قبل موته بأيّام قليلة أي قبل بداية شهر دايسيوس. وقد يكون الحانب الاكبر من المخطوط قد وضعه الاسكندر في صائفة سنة 322.

ويحقّ لمن يشك فيما أدّعيه أن يتمسك برأيه. فالاسكندر والمسيح وسقراط لم يتركوا لنا آثارا مكتوبة. هذا ما تعلّمناه عنهم. وهذا ما نعتقده ونردّده طبق تقاليد راسخة ولّدت عددا من الاساطير وكثيرا من التعاليم الموثوقة أيضا. أنا لا أحاول تفنيد ذلك المأثور ولكن أرفضه. ذلك أنّ عدم عثورنا على أيّ أثر مكتوب

لهؤلاء ليس بحجة قاطعة على أنّهم لم يكتبوا شيئا. ونحن نعلم أن أهمّ مؤلفات القدماء سواء أكانوا يونانيين أم من شعوب أخرى ضاعت وأتلفت عمدا. واذا نجت بعضها من الضياع أو التلف مثل مخطوطات البحر الميّت البالغة الاهمية وعثرنا عليها أو تعثر عليها الأجيال القادمة فلمجموعة ظروف مواتية شذّت عن القاعدة العامّة.

وأنا أودع هذا التأليف بين يدي كل من يبغي الاطلاع على «الاسكندر الآخر» من وراء الاسكندر المحنّط الذي نطلّع عليه في الكتب المدرسية وفي كتب التأريخ المزيّف.

الاسكندر هو من بين آلهة العالم القديم الاله الوحيد الذي بقي حيّا بيننا الى يومنا هذا. وقد حافظ على نضارة الشباب ورونق الجمال بعد دخوله دار الخلود من بابها السرّي.

الهوامش

(1) **بينارس** : احدى مدن الهندوس المقدسة تقع على نهر القنج بالهند.

(2) **الاسكندر الكبير** (**356 ــ 323** ق.م.) اسمه باليونانية ألكسندروس وعرفه العرب باسم الاسكندر أو الاسكندر المقدوني أو الاسكندر ذي القرنين. هو ملك اقليم مقدونيا الواقع على الحدود الشمالية لبلاد اليونان. ولذلك لقبّ بالاسكندر المقدوني.

استطاع أبوه فيليبوس الثاني في أواسط القرن الرابع قبل الميلاد أن يبسط نفوذه على كامل البلاد اليونانية بفضل حزمه ودهائه وشجاعة جنوده المقدونيين وانضباطهم وأن يحصل بعد حروب عديدة ومظفّرة ومناورات سياسية ناجحة على تجمّع اليونانيين حوله الراضي منهم والمكره لقيادتهم في الزحف المزمع شنّه على المملكة الفارسية العظيمة التي كثيرا ما هزمت اليونانيين وحلفاءهم من الشعوب غير اليونانية مثل شعب مقدونيا ودمّرت مدنهم وأحرقت حقولهم خاصة أثناء الحروب الميدية التي اندلعت بين الفرس واليونانيين في الثلث الأول من القرن الخامس قبل الميلاد.

واستفاد الاسكندر المقدوني من هذا الرصيد الذي كوّنه أبوه. ونفّذ المشروع الذي أعدّ له فيليبوس العدّة وحشد له الجيوش ولم يستطع تنفيذه اذ عاجلته المنيّة.

اعتلى الاسكندر عرش مقدونيا خلفا لابيه سنة 336 ق. م. وكان عمره آنذاك عشرين سنة بعد أن صاحب أباه في غزواته ابتداء من السنة السادسة عشرة من عمره.

وبعد أن قضى سنتين في اخماد الثورات التي اندلعت في بلاد اليونان وخارجها بعد موت أبيه قاد ابتداء من سنة 334 ق.م. الحملة العسكرية الكبرى التي أطاحت بمملكة فارس وبأقطار أخرى خارج نفوذها وأسّس امبراطورية واسعة تشتمل اضافة الى مقدونيا وبلاد اليونان على آسيا الصغرى (الأناضول) وبلاد الشام وفلسطين ومصر وبلاد ما بين الرافدين وايران الحالية وافغانستان والتركستان وإقليم السند من شبه القارّة الهندية. وذلك في مدّة وجيزة لا تتجاوز احدى عشرة سنة (334 ــ 323 م.ق.). وكان سنّه عندما زحف على مملكة فارس العظيمة اثنين وعشرين سنة. فاستحق بذلك لقب الاسكندر الكبير الذي أطلق عليه.

ولد الاسكندر سنة 356 ببيلاّ العاصمة الجديدة لمقدونيا التي انتقل اليها أبوه فيليبوس فخلفت العاصمة القديمة أيقاي.

كان اليونانيون يعدّون أباه وقومه من «أعاجم» أوربا لأنّهم لا يتكلمون باللغة اليونانية ولكن بلغة قريبة منها. ولكن موقع قطرهم المجاور لبلاد اليونان جعلهم متأثرين بالحضارة اليونانية معجبين بها يحاولون أن ينتسبوا اليها. وكان الملك فيليبوس من بين القلائل الذين يتكلمون باللغة اليونانية وقد عاش خمس سنوات بمدينة ثيباي (طيبة) ويعلن انتماءه وقومه للحضارة اليونانية التي كان معجبا بها. وقد أدّى به ذلك الايمان

الى تبنّي قضايا الشعب اليوناني والى حرصه على جمع شملهم بعد قرن ونصف قرن من الحروب الأهلية وتواطؤ بعضهم مع العدوّ الفارسي الذي كان يتدخّل دائما في نزاعاتهم لاضعافهم وكسر شوكتهم ويغري بعض قادتهم بالمال.

وكانت أولمبياس أم الاسكندر أميرة من إقليم إبيروس وهو إقليم «أعجمي» أيضا محاور لمقدونيا. عرفها أبوه أثناء زيارة لمعبد «الكبير» بجزيرة ساموثراكيا حيث تقام طقوس سرّيّة عمادها البغاء المقدّس الذي كان منتشرا في الاديان القديمة. وكانت الأميرة الايبرية تقضي فترة تعبّد وخشوع في ذلك المعبد. فتزوّجها فيليبوس رغم معارضة صحبه لأنهم كانوا يعتبرونها بغيّا. وكانت تلك الأميرة التي أصبحت ملكة مقدونيا ذات طبع مندفع وهائج الى حد الهذيان والهوس تؤمن بالخرافات والاساطير الى حدّ أنّها كانت تعتقد أن ابنها الاسكندر هو ابن الاله المصري أمّون الذي له مركز نبوءات في واحة سيوة في الصحراء الغربية لمصر. وكانت محورة أيضا بانتماء أسرتها المالكة الايبرية الى البطل اليوناني أخيلوس الذي أبلى البلاء الحسن في حرب طروادة ومجّده هوميروس في إلياذته. في حين أن زوجها فيليبوس كان يفخر بانتماء أسرته المقدونية المالكة الى البطل اليوناني الاسطوري هيراكليس.

كان يتنازع الاسكندر تأثير أبيه الذي لقنّه طرق مواجهة الأمور بحزم لتذليل جميع العقبات كجدّه البطل المغوار هيراكليس وعلّمه كيف يعالج الأمور بوضوح رؤية وواقعيّة ومكر ودهاء وتأثير أمّه التي زرعت فيه ميله الذي صاحبه طول حياته الى الغيبيات والماورائية وعقيدته الراسخة بأنه إله على الأرض لا يغلب ولا يقهر لأنّه حمّل رسالة كونية.

برزت مواهبه في عهد مبكّر حيث كان يجيد ركوب الخيل ولا يرهب في ساحة القتال بل له صولات يمزج فيها بين اندفاعه الجبلّي واحكام خطط الهجوم الذي تعلمه عن أبيه. وكان يشارك أباه في الغزوات على رأس سلاح الخيالة. كان بجانب أبيه في معركة خيرونيا الشهيرة التي هزم فيها فيليبوس اليونانيين المتحالفين وأخضعهم لسلطانه (338 ق. م.)

وحرص أبوه على أن يحصل ابنه على تربية عالية. فدعا الفيلسوف أرسطوطاليس الى مقدونيا وأنزله قصر ميازا الملكي وكلّفه بتعليم ابنه ومجموعة من أقرانه من بينهم صديقه الوفيّ ورفيق الدرب هفستيون.

قضى مع معلّمه الكبير أرسطوطاليس ثلاث سنوات فقط. حاول الفيلسوف أثناءها كبح جماح ذلك الشاب المندفع المتحمّس الذي تعروه أحيانا حالات من الهوس «الصوفيّ» لقّنته إيّاه أمه أولمبياس الاميرة «الاعجمية». علّمه الفيلسوف اليوناني التغلّب على نزوات النفس والاعتدال في السلوك وتغليب العقل على العاطفة وحبّ الاطلاع على أسرار الطبيعة والتحليل العلمي الموضوعي. وجميعها قيم يونانية متحضرة متّنت في نفس البطل الشاب شعوره بالانتماء الى الحضارة اليونانية. وساعدته على تبنّي قضايا الشعب اليوناني عن قناعة. وذلك ما يعلّل تفضيل الاسكندر للثقافة اليونانية على سائر الثقافات والجهد الذي بذله لنشر اللغة اليونانية في جميع الاصقاع التي فتحها حتى تكون لغة الخطاب لجميع الشعوب التي انصهرت في الامبراطورية العالمية التي طمح الى إرساء قواعدها. وذلك ما يعلّل أيضا اصطحابه في حملته الكبرى لعلماء يونانيين من جميع الاختصاصات في ذلك العصر مهمتهم تجميع المعلومات النافعة عن جغرافية الاقطار التي يقع احتلالها وعن المسالك ومجاري الانهار وشواطىء البحار وعن النباتات والحيوانات. وكان يراسل أرسطوطاليس بانتظام ويرسل اليه عيّنات من النباتات وبعض الحيوانات النادرة.

والى جانب تلك التربية الأخلاقية والعلمية التي اجتهد أرسطوطاليس في تلقينها لتلميذه نمّى الاستاذ ثقافة تلميذه الادبية وذوقه الجمالي وذلك بتدريسه ملحمة الالياذة التي كان يجد فيها الأمير الشاب أبطالا

يونانيين قد يقتدي بهم. وقد حافظ الاسكندر على نسخة للالياذة مصححة من طرف أرسطوطاليس طيلة حياته. كان يرجع اليها باستمرار ويضعها كل ليلة تحت رأسه بجانب سيفه عندما ينام.

لما اغتيل فيليبوس سنة 336 ق. م جلس الاسكندر خلفا له على عرش مقدونيا. وكان عمره آنذاك عشرين سنة.

وشقّ شعوب يونان عصا الطاعة في وجه الملك الشاب للتخلص من التبعية التي فرضها عليهم أبوه. فاندلعت الثورات في كل قطر فقاومها الاسكندر بكل حزم متنقّلا على رأس جيشه من مكان الى آخر طاويا مسافات شاسعة بسرعة هائلة حتى هزمهم جميعا.

واجتمع ممثلو الشعوب اليونانية في مدينة كورنثة وعيّنوه قائدا أعلى لهم وحاميا لاوطانهم فدعاهم الى غزو فارس مثلما دعاهم أبوه. فوافقوه جميعا على ذلك.

ولكنّ مدينة ثيباي (طيبة) عاصمة إقليم بويوتيا نقضت العهد بايعاز من مدينة أثينة فحاصر الاسكندر طيبة واحتلّها وسوّاها بالارض وقتّل أهلها وسبى نساءها وأطفالها وباعهم في أسواق العبيد حتى ينزل الرعب في قلوب مواطني أثينة وجميع شعوب يونان. ولم يمسّ أثينة بسوء.

وفي ربيع سنة 334 ق.م. اجتاز البحر عبر مضيق الهلّسبون (الدردانيل) الى آسيا الصغرى (الأناضول) التابعة لمملكة فارس على رأس جيش من المقدونيين واليونانيين من مختلف الاقاليم يعدّ خمسة وثلاثين ألف مقاتل. وزار موقع إليون عاصمة طروادة وتخيّل أنّه يعيد ملحمة الالياذة.

وأرسل إليه ولاة الفرس في المنطقة جيشا فهزمه في معركة جرت على ضفة نهر قرانيكوس من إقليم طروادة (334 ق. م.)

ثم اتّجه الى سرديس عاصمة إقليم ليديا ومقرّ والي الاناضول الفارسي وفتحها ثم فتح المدن اليونانية الواقعة على ساحل الاناضول الخاضعة لملك فارس.

ثم توغّل في الجبال في اتّجاه الشمال الشرقي الى أن وصل الى مدينة أنكورة (أنقرة الحالية) ثم انحدر جنوبا وعبر مضيق كيليكيا ودخل إقليم سوريا.

وفي سوريا اعترضه داريوس الثالث كودومان ملك الفرس بمكان يسمّى إسّوس على رأس جيش عظيم قويّ العدّة وافر العدد. وكان أول لقاء له مع ملك الفرس. فألحق الاسكندر بجيش الفرس هزيمة نكراء. وفرّ داريوس في ثلّة قليلة من جيشه تاركا أمّه وزوجته وبناته في قبضة الاسكندر. واستولى هذا بعد معركة إسّوس على كنوز الملك التي كانت تتبع الجيش في تنقّلاته والتي كانت مودعة آنذاك في دمشق قاعدة الجيش قبل معركة إسّوس. جرت تلك الاحداث في سنة 333 ق.م.

وواصل الاسكندر سيره نحو الجنوب على ساحل سوريا. وحاصر مدينة صور مدة ستة شهور حتى احتلها (332 ق.م.).

لماذا واصل الاسكندر احتلاله للموانىء الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط ابتداء من ساحل الاناضول بدل أن يلاحق ملك الفرس المنهزم ويتوغّل في تراب المملكة الفارسية ؟

يبدو أن الاسكندر كان حريصا على الاستيلاء على الموانىء الآسيوية ليمنع الاسطول الفارسي بقيادة ممنون الرودسي من استعمالها ولئلا يطمع اليونانيون المناهضون له في حشد أساطيلهم وتنظيم حملة ضدّه بالتّعاون مع الفرس تتعقبه وهو متوغّل في أرض فارس وتجعله واقعا بين خطرين أحدهما أمامه والآخر وراءه كان يعلم أن أعداءه في بلاد يونان كثيرون وأن مشاركة اليونانيين في الحملة مشاركة رمزية لأن أكثرية الجند كانت من المقدونيين. قهر الاسكندر اليونانيين فخمدوا وقلوبهم متأجّجة حقدا وهم له بالمرصاد. ناهيكم

أن جيش الاسكندر لما دخل دمشق للاستيلاء على كنوز ملك الفرس وجد بها رسلا من اسبارتا وأثينة أتوا للتفاهم مع الفرس للكيد بالاسكندر.

ثم اختار الاسكندر الى مصر بعد أن احتلّ في طريقه عزّة واستولى على مصر كلها ونزل بعاصمتها منفس وأطلق عليه الكهنة لقب فرعون ودان له الشعب المصري وزار معبد الاله أمّون ومركز نبوءته بواحة سيوه في الصحراء الغربية.

وبنى على ساحل مصر مدينة جديدة سمّاها باسمه وهي الاسكندرية. وكان الغرض من بناء هذه المدينة تعويض مدينة صور التي كسر شوكتها بمدينة جديدة تستولي على الطرق التّجارية التي كانت تسيطر عليها صور ويغشاها الفينيقيون.

ثم غادر مصر واتّجه مشرقا الى سوريا ثم العراق. وعبر الفرات ثم دجلة قرب نينوي عاصمة الاشوريين القديمة التي تقع غير بعيد من مدينة الموصل الحديثة.

واعترضه داريوس ثانية شرقيّ دجلة في أرض فارس. وجرت بين الجيشين معركة طاحنة في سهول أربيل في مكان يسمّى قوقملا (مرعى الجمال). فانهزم داريوس هزيمته الثانية (331 ق.م).

وانحدر الاسكندر جنوبا فاحتلّ مدينة بابل ثم اتّجه جنوبا شرقا نحو مدينة السوس من إقليم خوزستان وهي احدى عواصم ملوك الفرس الاخمينيين الثلاث (العاصمتان الاخريان هما برسيبوليس أو إصطخر في إقليم فارس واكبتان أو همدان في إقليم ماداي) فاحتلّها. وغنم في تلك العاصمة غنائم عظيمة من الذهب والفضّة والاحجار الكريمة ثم اتّجه جنوبا واحتلّ مدينة برسيبلويس وأحرقها أخذا بالثأر لأنّ الفرس سبق لهم أن أحرقوا أثينة سنة 580 ق.م. أثناء الحرب الميدية.

ووردت على الاسكندر أنباء تعلمه أن الملك داريوس يحاول جمع جيش جديد في إقليم ماداي. فاسرع للالتحاق بذلك الاقليم الواقع في الشمال قاصدا عاصمته اكبتان مرورا باصبهان. ولمّا وصل المدينة علم أن داريوس غادرها وتوجّه شرقا قاصدا إقليم خراسان صحبة ابن عمّه بسّوس مرزبان إقليم باكتريان (خراسان).

فانطلق مقتفيا آثار داريوس عبر هضاب ماداي وانقضّ في دمغان على معسكر بسّوس. وقد غادره أهله. فوجد فيه داريوس طريحا قد قتله بسّوس ليخلفه على عرش فارس (330 ق.م.).

فأرسل الاسكندر جثمان الملك المغتال الى مدينة إكبتان حتى تسهر أم داريوس على مراسم دفن ابنها.

وواصل الاسكندر مطاردته لبسّوس الذي كان فارّا أمامه وذلك مدّة سنة كاملة (329 ق.م.).

توجّه بسّوس أولا نحو الجنوب الشرقي لبلوغ مناطق أفغانستان الجبلية ظنّا منه أن الاسكندر سيجتنب التوغّل في منطقة جبلية منيعة ولكن الاسكندر اقتفى أثره وغامر بجيشه وأسّس في طريقه مدينتين جديدتين بغرض تكوين قاعدتين للجيش فيهما تتجمّع المؤن والعتاد وهما إسكندرية أريا (هراة الحالية) واسكندرية أراخوسيا (كاندهار الحالية)

وعندما غادر الاسكندر أفغانستان مقتفيا دائما آثار بسّوس الذي حل بولايته أي ولاية باكتريان (خراسان) وأحرق المزارع والبساتين حتى يعجز جيش الاسكندر عن مواصلة الزحف حثّ السير حتى وصل الى مدينة باكتريا (بلخ).

فعلم أن بسّوس غادرها وعبر نهر إكسوس (سيحون أو حاليا أموداريا). فعبر الاسكندر النهر بدوره وقبض على بسّوس حيّا وقطع له أنفه وأذنيه كما يفعل الفرس جزاء خيانته لمليكه وأرسله الى إكبتان (همذان) حتى يقتله أخو داريوس انتقاما لأخيه.

وتوغّل الاسكندر شمالا في إقليم السعد (التركستان) ليعرف حدود امبراطورية فارس التي عادت له. فاحتلّ ميراكندا (سمرقند) ووصل الى نهر أراكس (جيحون أو سيرداريا الحالية) وأسّس مدينة إسكندرية أقصى الارض (خاجند).

وقفل راجعا واشتغل بإخماد ثورات السغد وأهالي باكترياني (خراسان) وأسّس أثناء إخماده للثورات اسكندرية مرقياني (مرو)

ودانت له مملكة فارس كلّها. فلم يحرق المزارع و لم يدمّر المدن بل أبقى ولاة الفرس في مناصبهم وأضاف لهم حامية مقدونية وأدخل شباب الفرس في الجيش وساواهم بالمقدونيين وكوّن منهم فيالق صحبته في غزواته داخل فارس وخارجها.

وذلك هو المنعطف البالغ الخطورة في سيرة الاسكندر.

زحف على فارس أولا أخذا بثارات اليونانيين الذين طالما حاربهم الفرس واكتسحوا أرضهم وأهانوهم. وكانت الغاية اخضاع جميع الشعوب المضوية قهرا الى مملكة فارس وتحويل جميع أفراد تلك الشعوب الى رعايا خاضعين لمملكة لا تعترف بذاتية الشعوب ولا بقيمها ولا بتقاليدها بل تدين بالقيم اليونانية وحدها وبتفوّق الثقافة اليونانية على سواها من الثقافات. ذاك ما علّمه أرسطوطاليس الاسكندر. علّمه أن مصير الشعب اليوناني هو السيطرة على جميع الشعوب لأنّه شعب مختار بلغ ذروة من الحضارة لم يبلغها أيّ شعب آخر. وذلك ما يخوّل لذلك الشعب قيادة الشعوب الأخرى.

ولكن عندما سقط داريوس آخر ملوك الفرس صريعا وقع تحوّل في نفس الاسكندر. أصبح يعتقد أنّه وارث مملكة الفرس وراعي شعوبها جميعا. فلا يجوز له أن يفرّق بين شعب وآخر ويرفض أن يكون في مملكته رعايا من الدرجة الثانية لأنّهم ليسوا يونانيين وأيقن من ناحية أخرى أن حضارة الفرس حضارة راقية تفوق في بعض جوانبها الحضارة اليونانية. ولذلك قرّر أن يكون ملك جميع الشعوب الخاضعة لسلطانه وأن يعامل جميع رعايا المملكة نفس المعاملة وأن يكونوا جميعا متساوين في الحقوق والواجبات. وهذا التحوّل من الوطنية الضيّقة الى النظرة العالمية الشاملة التي تسوّي بين البشر وتقرّب بينهم أحدثت القطيعة بينه وبين أرسطوطاليس فانقطعت المراسلة بينهما. وضاق جنوده المقدونيون ذرعا بذلك السلوك الذي كان يؤلمهم لانّه سوّى بين صحبه القدامى وأبناء وطنه الذين شاركوه المحن وبين أعدائهم بالامس. فثاروا في وجهه. ولكنّه أخمد جميع الانتفاضات وحافظ على موقفه بكل حزم حتى أصبح جيشه يحتوي على أكثريّة من الفرس أغلبهم من الشباب.

وقرّر الاسكندر وقد نجح في المزج بين الشعب اليوناني والشعوب المختلفة التي كانت تخضع لملك الملوك أي ملك الفرس أن يمدّ فتوحاته خارج الامبراطورية الفارسية وذلك حتى يصل الى أقصى الارض الى تلك الشواطىء الشرقية التي يحدّها البحر المحيط بالارض المعمورة كلّها حسب افتراضات علماء ذلك العصر. ولذلك نظّم زحفه على شبه القارّة الهندية.

دامت التحضيرات لغزو الهند سنتين (329 ــ 328 ق.م.). أسّس الاسكندر في شتاء سنة 329 ق.م. مدينة إسكندرية القوقاز التي بقيت أطلالها بارزة قرب مدينة كابل عاصمة افغانستان الحالية وذلك لتجميع الميرة والعتاد وتنظيم المواصلات لتزويد الجيش أثناء زحفه لوقوع المدينة الجديدة في مفترق الطرق المؤدّية الى الهند. وحشد جيشا يعدّ مائة وعشرين ألف مقاتل وهو أعظم جيش عرفه العالم القديم.

وانطلق الجيش سنة 327 ق.م. من أراسبيا على بعد ثلاثمائة كيلومتر جنوبي سمرقند وقطع جبال الهندوكوش المنيعة وهضابه ووصل بعد سنة الى نهر السند الذي عبره على جسر من المراكب. وخضع له ملك تاكسيلا دون قتال وأهداه قناطير من الفضّة وثلاثين فيلا آملا أن يهزم ذلك الغازي الذي طبّقت شهرته الآفاق عدوّه الملك بوروس. وتقدّم الاسكندر الى نهر هيداسبوس أحد روافد نهر السند وعبره ليلاقي الملك الهندي العظيم بوروس الذي قدم بجيش يعدّ مائة ألف من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان

وأربعمائة عربة حربية وثلاثمائة فيل واستطاع الاسكندر بفضل درته ودهائه أن يهزم ذلك الجيش العظيم وابتكر طريقة لابعاد خطر الفيلة بأن درّب فدائيين ووزّعهم في جميع فيالق الجيش مهمّة هؤلاء الهجوم بالشواقير والمناجل الكبار على الفيلة ومحاولة اصابتها في أعينها أو في أماكن قاتلة من بطنها حتى تولّي القهقرى فتشتّت جموع المقاتلين الهنود من ورائها. ونجحت الخطّة وكبّد الاسكندر بوروس هزيمة نكراء

وكانت معاملة الاسكندر للملك بوروس معاملة كريمة حيث أنّه أعاد له ملكه بعد أن هزمه فأتاه ملوك السند معلنين له الطاعة والولاء

وكان ينوي مواصلة زحفه الى أن يبلغ نهر القنج ولكن جيشه أبى أن يواصل السير فأرغم على العودة ولكن عن طريق غير التي سلكها فحمل جزء من جيشه في السفن وأمرهم بأن ينحدروا على نهر السند الى أن يبلغوا البحر الاريثري (المحيط الهندي حاليا) وقاد بقية الجيش برّا وانحدر في نفس الاتجاه الى الجنوب وكان يحارب طول الطريق شعوبا كانت تحاول صدّ عدوانه. ووصل الجيش الى المحيط الهندي عند مصبّ نهر السند.

وأمر عند ذلك الاسكندر نيارخوس الكريتي بقيادة أسطول يعود الى العراق عن طريق البحر مستكشفا الطريق البحرية المؤدّية الى مصبّ الفرات

أمّا الاسكندر فقد قاد جزء كبيرا من جيشه عبر صحراء قدروسيا (بلوشستان الحالية) حسب مسيرة موازية لمسيرة الاسطول. ففقد عددا كبيرا من الجنود لم يفقد مثله في أيّ غزاة من غزواته بسبب شدّة الحرّ والعطش. وعاد الى مدينة السوس في صائفة سنة 325 ق م.

وفقد في نفس السنة أعزّ أصدقائه وأحد قوّاد جيشه هفستيون وذلك بمدينة إكبتان من إقليم ماداي قضى السنتين الاخيرتين من حياته في تهيئة مخطّطات ضخمة لغزو قرطاج في الغرب وللزحف على جزيرة العرب

وهو بذلك يرمي الى هدفين : الهدف الأول الاستيلاء على جزيرة العرب للسيطرة على الطرق التجارية التي تسلكها القوافل المحمّلة بعطور عدن وظفار وحضرموت والهدف الثاني بلوغ أقصى الارض من ناحية الغرب في تلك النقطة الواقعة على المحيط الاطلسي والمشرفة على زقاق جبل طارق حيث غرس فيها جدّه الاسطوري هيراكليس عموديه : جبل طارق وجبل سبتة. ولا بدّ له لبلوغ هدفه الثاني أن يستولي على قرطاج التي كانت تسود على جانب كبير من مناطق حوض البحر الابيض المتوسط العربية.

وعاجلت الاسكندر المنية فمات في مدينة بابل سنة 323 ق م. وقد بلغ من العمر ثلاثا وثلاثين سنة.

ملأ الاسكندر الكبير الدنيا وشغل النّاس. واستولى في بضعة أعوام على أصقاع شاسعة.

ولذلك سرعان ما تحوّلت سيرة الاسكندر التي سجّلها التأريخ الى أسطورة زيّنها خيال الشعوب وخاصة منها الشعوب الشرقية التي شاهدت بطولاته عن كثب فأعجبت به.

وقد يكون من المفيد أن نطّلع على صورة الاسكندر كما كان يتخيّلها العرب في العصور الزاهرة للحضارة العربية اعتمادا على مقتطفات مما كتبه عنه المسعودي وهو من كبار المؤرّخين في «مروج الذهب».

«لما قتل الاسكندر بن فيلبس دارا بن دارا تغلب كل رئيس ناحية على ناحيته. وقد نصبت كل طائفة لها ملكا لعدم ملك يجمع كلمتهم. وذلك أن الاسكندر أشار عليه معلّمه وهو وزيره أرسطاطليس في بعض رسائله اليه بذلك وكاتب الاسكندر ملك كل ناحية وملّكه على ناحيته وتوّجه وحباه فصار ملكه من بعده في عقبه مما بعا عمّا في يده وطالبا بالازدياد من غيره (المسعودي : مروج الذهب — المكتبة التأريخية الكبرى — الجزء الأول ص 234 و235)

«وسار الاسكندر بعد أن ملك بلاد فارس فاحتوى على ملوكها وتزوّج بابنة ملكها دارا بعد أن قتله. ثم سار الى أرض السند والهند ووطىء ملوكها وحملت اليه الهدايا والخراج وحاربه ملكها فور وكان أعظم ملوك الهند وكان له معه حروب وقتله الاسكندر مبارزة.

ثم سار الاسكندر نحو بلاد الصين والتبّت فدانت له الملوك وحملت اليه الهدايا والضرائب وسار في مفاوز الترك يريد خراسان من بعد أن ذلّل ملوكها ورتّب الرحال والقوّاد فيما افتتح من الممالك ورتّب ببلاد التبّت خلقا من رحاله وكذلك ببلاد الصين وكوّر بخراسان كورا وبنى مدنا في سائر أسفاره.

وكان معلّمه أرسطاطاليس حكيم اليونانيين وهو صاحب كتاب المنطق وما بعد الطبيعة وتلميذ أفلاطون وأفلاطون تلميذ سقراط. وصرف هؤلاء هممهم الى تقييد علوم الاشياء الطبيعية والنفسية وغير ذلك من علوم الفلسفة واتصالها بالالاهيات وأبانوا عن الأشياء وأقاموا البرهان على صحتها وأوضحوها لمن استعجم عليه تناولها.

وسار الاسكندر راجعا من سفره يؤمّ المغرب فلما صار الى مدينة شهر زور اشتدّت علّته وقيل ببلاد نصيبين من ديار ربيعة وقيل بالعراق». (نفس المرجع ص. 288 و289).

(3) **أرّيان (95 — 180)** مؤرّخ يوناني عاش في القرن الثاني الميلادي. تتلمذ على الفيلسوف الرواقي إبكتيتوس وخلّد ذكره بتأليف كتابين سجّل فيهما تعاليم أستاذه بالرجوع الى أماليه. كان على غرار جميع المؤرّخين اليونانيين حازما ونشيطا له اسهام في الحياة السياسية ومشاركة في الحروب. تطوّع في جيوش الامبراطورية الرومانيّة وحارب في الثغور في نواحي البلقان. وعيّن قنصلا في روما سنة 130 ثم واليا على إقليم كبّدوكيا غربيّ إقليم أرمينية بالاناضول وذلك مدة ست سنوات من سنة 131 الى سنة 137 وانتخب في نفس السنة حاكما من بين حكّام مدينة أثينة. وتفرّغ بعد تقلده تلك الخطط للكتابة والتأليف. ينسب الى إقليم نيكوميديا بالاناضول لأن نيكوميديا موطنه.

(4) **الدورة الاولمبية** : الدورة الاولمبية ومدتها أربع سنوات اتخذت قاعدة للتقويم الرسمي في الحضارة اليونانية القديمة.

كانت المباريات اليونانية الجامعة تجري كل أربع سنوات في بلدة أولمبيا في اقليم إيليس. ويقع هذا الاقليم في الركن الشمالي الغربي لشبه جزيرة البيلوبونيز (موريا الحالية).

يقع التجمّع في منتصف فصل الصيف ويدوم اللقاء خمسة أيام وتشتمل الحفلات الاولمبية على مهرجانين : الأول مهرجان ديني تقام فيه المواكب الدينية وتقدّم فيه القرابين والثاني مهرجان رياضي تنظّم فيه المباريات. وكانت المباريات مفتوحة لكل المواطنين اليونانيين الأحرار المنحدرين من أبوين يونانيين صميميين ومحرّمة على الأعاجم والعبيد.

وفي ختام الالعاب الاولمبية توضع على رؤوس الفائزين أكاليل من أوراق الزيتون وتقام وليمة في دار البلدية يحضرها الفائزون وأقاربهم وينشد أثناءها كبار شعراء يونان أناشيد تمجيد الأبطال الفائزين ويحضر الشعراء والكتّاب الاحتفالات للتعريف بأنفسهم وأعمالهم.

أسّست الالعاب الاولمبية سنة 776 ق.م. فكانت تلك السنة هي السنة الأولى في التقويم الزمني اليوناني الذي يعتمد العدّ على أساس حقبات رباعية

(5) **هقسيوس** : اسم حاكم من حكّام أثينة التسعة (أرخون جمعه أرخونتيس) يدلّ بالضبط على السنة التي وقع فيها الحدث.

يمارس السلطة التنفيذية في أثينة تسعة حكام يعيّنون بالاقتراع من بين قائمة من المرشّحين بالانتخاب من طرف مجلس الشعب ويباشرون مسؤوليتهم مدة سنة فحسب.

يطلق اسم أحد الحكّام على السنة التي تولّى فيها مهامّه. والدور الذي يقوم به هذا الحاكم من بين زملائه هو ضبط الرزنامة والاشراف على الاعياد الدينية ومتابعة القضايا المتعلقة بالميراث والوصاية على الارامل والايتام.

فالتقويم الزمني يعتمد في العصور القديمة عند اليونان الدورات الاولمبية التي تعقد كل أربع سنوات وتحدّد السنة بالذات داخل الاربع سنوات بذكر اسم الحاكم الاثينيّ المانح اسمه للسنة التي تولّى فيها مهامّه.

(6) **أرسطوبولوس** : مؤرّخ يوناني عاصر الاسكندر المقدوني وشارك في غزواته. وقد ذكر أرّيان أنه اعتمد في سيرة الاسكندر التي ألّفها ما رواه أرسطوبولوس هذا وكذلك ما رواه بطليموس أحد رفاق الاسكندر وأحد قادة جيشه ذلك الرجل الذي ملك مصر بعد موت الاسكندر وحكمها وأسّس فيها أسرة البطالسة المالكة.

(7) **ثيوفيلوس** : لم أعثر على ذكر هذا الرسام فيما لدي من المراجع.

(8) **جبل بيليون** : هو جبل يعزل إقليم تساليا في شمال البلاد اليونانية عن البحر الايجي.

(9) **القسطنطينية** : اسم قديم لمدينة استانبول وتكتب أيضا استنبول واسطنبول. وهي مدينة من مدن تركيا الحالية تقع على ضفتي البوسفور. جعلها الامبراطور الروماني قسطنطينوس احدى عاصمتي الامبراطورية الرومانية (العاصمة الاخرى هي روما) في القرن الرابع الميلادي سنة 330. وكانت تسمى قبل ذلك بوزنتيون باللغة اليونانية وعرّبت فسميت بيزنطة. وأعاد اليها الأباطرة البيزنطيون اسمها القديم بيزنطة وحافظت على هذا الاسم الى أن فتحها محمد الفاتح سنة 1453 ميلادية فأصبحت عاصمة الخلافة الاسلامية وأطلق عليها أولا اسم اسلام بول ومعناها مدينة الاسلام ثم استانبول.

(10) **كسينوفون** (430 ـــ 355 ق.م.) كاتب يوناني غزير الانتاج. كتب في مختلف الأغراض. ولد بأثينة في الثلث الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد. وتتلمذ على سقراط وعمره لم يتجاوز ثماني عشرة سنة. والتحق بجيش المرتزقة اليونانيين الذي كان يحشده كورس الاصغر في الاناضول لمحاولة افتكاك عرش أخيه أرتاكسركسيس ملك الفرس (405 ـــ 359 ق.م.) وذلك سنة 401 ق.م. ولكن محاولة كورس فشلت وانهزم الجيش الذي حشده وقتل الثائر في المعركة. فأجبر العشرة آلاف مقاتل يوناني على الانسحاب والعودة الى بلاد اليونان عبر الاناضول ومضيق الدردانيل في رحلة شاقّة قصّها كسينوفون في أحد كتبه.

وتطوّع بعد ذلك في جيش ملك إسبارتا الذي كان يحارب الفرس في الأناضول وذلك سنة 396 ق م. ودعي الى إسبارتا الذي كان يهدّدها الاثينيون والثيبيون المتحالفون. ورضي بأن يحارب في صفوف أعداء مدينته أثينة وشهد معركة حيروني من إقليم بويوتيا (394 ق.م.) التي كان النّصر فيها حليفا لإسرتا

ولذلك أصدر أهالي أثينة قرارا بنفيه المؤبد مع مصادرة أمواله. فجازته مدينة إسرتا بأن وهبت له ضيعة بمكان يسمى سكلّونتي قرب مدينة أولمبيا. واعتنى كسيوفون هنالك بالفلاحة. وخصّص جانبا كبيرا من وقته للدراسة والتأمل والتأليف. وقد كتب تآليف عديدة سجل فيها ذكرياته عن معلمه سقراط ودوّن فيها ذكريات مغامراته وحروبه وتحدّث في بعضها عن قواعد حسن التصرف في العمل الفلاحي وعن تربية الخيل وركوبها.

(11) **كورس** : هو كورس الاصغر للتفريق بينه وبين كورس الكبير مؤسس الامبراطورية الفارسية الاخمينية الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ودام ملكه من سنة 560 الى سنة 529 ق.م.

ثار كورس الاصغر على أخيه أرتاكسركسيس ملك الفرس فانهزم وقتل سنة 401 ق.م.

(12) **كبّدوكيا** : إقليم من أقاليم الاناضول في النّاحية الشرقية منه يحدّه شرقا إقليم أرمينيا.

(13) **ابكتيتوس** : فيلسوف رواقي يوناني عاش من سنة 40 الى سنة 125 ميلاديتين ولد في إقليم فريجيا في آسيا الصغرى (الاناضول). وقضى جانبا من حياته في العبودية. قدم الى روما مع سيده في عهد الامبراطور نيرون. وأعتقه سيده الروماني ومكّنه من التتلمذ على الفيلسوف الرواقي موسونيوس. ولمّا أطرد الامبراطور دوميسيان الفلاسفة من عاصمة روما سنة 93 التجأ إبكتيتوس الى إقليم إبيروس من بلاد اليونان. ودرّس هنالك الفلسفة الرواقية الى أن توفّي بها سنة 125.

كان تعليم إبكتيتوس تعليما شفويا ولم يكتب أي شيء. ولكن تلميذه المؤرّخ أرّيان عرّف به بتأليف كتاب عنوانه : « أحاديث مع إبكتيتوس» بالرجوع الى أمالي الفيلسوف على تلاميذه ثم عندما صادف الكتاب الأول رواج كبير ألّف أرّيان كتابا ثانيا عنوانه : «الموجز» وهو شبه كتاب مدرسي.

(14) **هادريان** : أو هادريانوس باللغة اللاتينية. هو امبراطور روماني عاش في القرن الثاني الميلادي وسيّر شؤون الامبراطورية من سنة 117 الى سنة 138. كان ذا حزم وتدبير أصلح الادارة وأقام على حدود الامبراطورية معاقل وتحصينات لحمايتها من هجومات الشعوب المتهمّجة. وكان ميّالا للثقافة اليونانية خاصة وللآداب والفنون عامة.

(15) **بابل** : تسمّى بابلون باللغة اليونانية. هي مدينة قديمة ترى أطلالها الى اليوم على ضفّة الفرات قرب الحلّة على مسافة مائة وستين كيلومترا جنوبي شرقي بغداد.

يعود تأسيسها الى الالفية الثالثة قبل الميلاد وتذكر لأول مرّة في عهد الاكاديين في النصف الثاني من الالفيّة الثالثة. ولم تلعب دورا في التأريخ الا في بداية الالفية الثانية عندما غزاها أقوام ساميون قدموا من شمال سوريا وهم الامّوريون واتخذوها عاصمة لهم ودانوا فيها لسلالة مالكة كان سادس ملوكها حمّورابي الذي وحّد سومر وأكّاد وسنّ قوانين حمورابي الشهيرة.

وعندما طلع نجم الاشوريين كانت بابل تخضع لنفوذهم وتخشى سطوتهم. ولم تسترجع مجدها القديم الا بعد سقوط نينوي عاصمة الاشوريين سنة 612 ق.م.

لا نعرف بابل بشيء من التفصيل الا عندما ازدهرت في القرن السابع قبل الميلاد في عهد نبوكودو نصر ملك الكلدانيين الذي يسميه العرب بُختنصر.

يقول المسعودي في «مروج الذهب» : « وهو الذي وطيء الشام وسبى اسرائيل» (الجزء الأول ص. 228).

وبختنصر هذا الذي دام ملكه من سنة 605 الى سنة 562 ق.م. قد غزا مصر مرّات عديدة وهزم اسرائيل واحتلّ القدس ودمّر هيكل سليمان بها وساق جانبا من السكان اليهود أسرى الى بابل حيث قضوا بها سبعين سنة الى أن أعادهم الى القدس كورس الكبير مؤسس سلالة الأخمينيين الفارسية. واحتلّ كامل منطقة الشرق الاوسط ومصر.

قد تحدّثت عنه التوراة وتحدثت عن مدينة بابل في عهده. كما أنّ المؤرّخ اليوناني هيرودتس الذي كتب تأريخه في القرن الخامس قبل الميلاد قد وصف المعالم التي شاهدها في بابل وترجع جميعها الى عهد ذلك الملك. ثم إن الآثار الباقية تمكّننا من تصوّر المدينة.

مدينة بابل لها شكل مربّع ،مستطيل مجموعة ضلوعه ستة عشر كيلومترا. وكان يحيط بسوريها خندق عريض كان يملأ ماء. وكانت للمدينة ثمانية أبواب رئيسية. وفي النّاحية الشمالية باب اشتار وهي إلهة الخصب. كان ينطلق من هذا الباب في اتجاه داخل المدينة زقاق طوله ثلاثون مترا على اليمين منه وعلى اليسار جدار نقشت عليه صور أسود. وكان هذا الزقاق الذي تسلكه المواكب الدينية يؤدّي الى معبد

الاله مردوك. وكان المعبد على شكل مربّع مستطيل طوله خمسمائة وخمسون مترا وعرضه أربعمائة وأربعون مترا وعلوه عشرون مترا. وبجانب المعبد برج بابل ذو الاطباق الثمانية وعلوّه تسعون مترا.

(16) **حدائق بابل المعلقة** : تنسب تلك الحدائق المعلقة الى سميراميس وهي ملكة اسطورية. تلك الحدائق المعلقة هي احدى عجائب الدنيا السبعة في رأي القدماء وقد أحصاها ووصفها فيلون البيزنطي في كتاب بعنوان : حول عجائب الدنيا السبعة. وهي أهرام مصر وحدائق بابل المعلّقة المنسوبة لسميراميس وتمثال زيوس الأولمبي الذي نحته فيدياس الاثيني من العاج والذهب ومعبد أرتيميس بمدينة إفيسوس في آسيا الصغرى وضريح موسولوس بمدينة هاليكرنسوس بآسيا الصغرى أيضا والتمثال العملاق البرنزي للاله أبلّون بجزيرة رودس ومنارة للاسكندرية.

(17) **بيلاّ** : عاصمة اقليم مقدونيا تقع في سهل قريب من البحر. كانت عاصمة مملكة فيليبوس الثاني ملك مقدونيا وأبي الاسكندر الكبير.

(18) **خيروني** : مدينة من مدن اقليم بويوتيا اليوناني وعاصمة هذا الاقليم هي مدينة ثيباي.

(19) **الكتيبة المقدّسة** : كتيبة مفضّلة في جيش مدينة ثيباي (طيبة). كانت مكوّنة من ثلاثمائة شاب اختيروا من بين شباب الاسر الارسطوقراطيّة الماجدة. وتفرغوا للقتال واكتسبوا أحسن تدريب عسكري برعاية المدينة التي تنفق عليهم من الخزينة العامة وأقسموا أن يحيوا وأن يموتوا معا.

(20) **أرسطوطاليس (384 ـــ 322 ق.م.)** ويسميه العرب أيضا أرسطاطاليس وأرسطو. هو من أعظم فلاسفة اليونان ان لم يكن أعظمهم بغزارة انتاجه وسعة أفقه وتطلعه الدائم الى أسرار الطبيعة والعقل والنّفس وقدرته الفائقة على التركيز والترتيب والتأليف. لم يكن لسواه من فلاسفة اليونان تأثير مماثل لتأثيره في تطوير الفلسفة في حلّ حضارات العالم.

هو أرسطوطاليس بن نيكوماخوس. ولد بمدينة ستاقورس من إقليم مقدونيا سنة 384 ق.م. في أسرة تدّعي الانتماء الى أسكليبيوس اله الطب وتتعاطى التطبيب أبا عن جدّ.

كان أبوه نيكوماخوس طبيبا خاصا لأمنتاس ملك مقدونيا. وهذا ما يعلّل علاقة أرسطوطاليس بالاسرة المالكة المقدونية.

وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره قدم الى أثينة حيث تتلمذ على افلاطون الذي كان يلقي دروسه على تلامذته في حديقة تحمل اسم أكاديموس وهو بطل أثيني خرافيّ، وكانت تلك الحديقة خارج أثينة على بعد كيلومتر ونيف من المدينة على طريق مدينة إلوسيس وبمقربة من قرية كولوني التي تجري فيها أحداث مسرحية « أوديبوس في كولوني» التي كتبها سوفوكليس في آخر حياته. ولذلك سمّيت تلك الحديقة التي اختارها أفلاطون لتكون مكانا يلاقي فيه تلامذته بانتظام ويبث فيه تعاليمه « أكاديميا».

لازم أرسطوطاليس أفلاطون مدّة عشرين سنة ولم يغادر أثينا الاّ عندما توفي معلمه أفلاطون سنة 347 ق.م.

وكان أستاذه معجبا به وكان يسميه «الفكر» (نوس باليونانية).

ودعاه فيليبوس الثاني ملك مقدونيا سنة 342 ق.م. ليكون معلّما لابنه الاسكندر. وسهر على تربية ولي العهد مدة ثلاث سنوات الى أن قرّر فيليبوس إنهاء فترة التعليم سنة 340 ق.م. حتى يباشر وليّ العهد مهامّ سياسية وعسكرية بجانب أبيه.

ولما آل عرش مقدونيا الى تلميذه الاسكندر بقي مدة قصيرة ببيلاّ ثم طلب من الاسكندر أن يأذن له بمغادرة مقدونيا والالتحاق بأثينة وذلك سنة 335 ق.م. حتّى يعيش في جوّ ثقافي يلائمه. وفي أثينة أنشأ أرسطو مدرسة ينشر فيها تعاليمه وسماها لوكيون باسم الحيّ الذي أسست فيه. وكان يلقي درسين

كل يوم الدرس الاول في الصباح أمام مجموعة صغيرة من خيرة تلاميذه والدرس الثاني في المساء أمام جمهور كبير.

ولما مات الاسكندر الكبير سنة 323 ق.م. هاجمه الحزب الاثيني المناهض لنفوذ المقدونيين. فارتحل الى خالكيس في جزيرة يوبويا ونزل ببيت أحد أقاربه. وقد قال لما غادر المدينة : « أخشى أن يعتدي الأثينيون على الفلسفة باقتراف جريمة ثانية» مشيرا بذلك الى حكمهم على سقراط بالاعدام.

وتوفي أرسطوطاليس بخالكيس بعد مدّة قصيرة من هجرته اليها وذلك سنة 322 ق م.

وقد يكون من المفيد أن نقتبس بعض الفقرات من كتاب «الملل والنّحل» للشهر ستاني يقدّم فيها أرسطوطاليس حتى تكون لنا صورة عن أرسطو كما يراه العرب.

«أرسطوطاليس بن نيقوماخوس من أهل اصطخرا. وهو المقدم المشهور والمعلم الأول والحكيم المطلق عندهم. وكان مولده في أول سنة من ملك أردشير بن دارا. فلما أتت عليه سبع عشرة سنة أسلمه أبوه الى المؤدب أفلاطون فمكث عنده نيفا وعشرين سنة. وانما سمّوه المعلّم الأول لأنّه واضع التعاليم المنطقية ومخرجها من القوة الى الفعل... وله حق السبق وفضيلة التمهيد وكتبه في الطبيعيات والالهيات والأخلاق معروفة ولها شروح كثيرة (الشهر ستاني : الملل والنحل ـــ دار المعرفة بيروت 1975 ص. 119 ـــ 120) ملاحظة : ان أردشير بن دارا (أرتاكسركسيس بن داريوس باليونانية) كان ملكا على الفرس من 405 الى 359 ق.م. فان لم يولد أرسطوطاليس في سنة تولّي هذا الملك على العرش فقد كان معاصرا له.

(21) **ثيباي** : مدينة يونانية هي عاصمة إقليم بويوتيا. وتسمّى أيضا طيبة تقول الاسطورة ان مؤسسها هو كادموس الفينيقي. كانت ثيباي مجاورة لاثينة وكانت عدوة لها تحاول في أغلب الحالات أن تتحالف مع إسبارتا لمقاومة أثينة. وان شدّة كراهيتها لاثينة قد دفع بثيباي في بداية القرن الخامس قبل الميلاد الى التحالف مع الفرس وتمكينهم من شق بويوتيا للزحف على أثينة واحراقها (580 ق.م.) فبقي ذلك الموقف وصمة عار في وجه الثيبيين. وقد أدّى بها تحالفها مع إسبارتا الى أن أرغمت على قبول سيطرة هذه المدينة عليها في القرن الرابع قبل الميلاد ولكن استطاعت بمساعدة الأثينيين في هذه المرة أن تطرد الاسبارتيين. ونرى مدينة ثيباي تتحالف مع أثينة لصدّ فيليبوس المقدوني ولكن فيليبوس يهزمها في معركة خيروني سنة 338 ق.م. وعندما تثور من جديد في عهد الاسكندر بايعاز من الأثينيين يدمّرها هذا الاخير ويقتّل أهلها.

(22) **الالياذة** : هي أعظم ملحمة عند اليونانيين. وتمثل ذروة الشعر اليوناني. كان يلقّن الاطفال اليونانيون أجمل مقاطعها منذ سنواتهم الأولى في المدرسة. وكانت عماد التربية الأخلاقية والأدبية للنشء. منها يستوحي كتّاب المسرح اليوناني بعض موضوعاتهم والى أساطيرها وتشابيهها والحكم المبثوثة فيها يرجع فلاسفة اليونان مثل أفلاطون وأرسطو لتوضيح تعاليمهم بالاشارات والاستشهاد. وهي أيضا أقدم ملحمة في العالم اذا استثنينا ملحمة قلقامش السومرية البابلية التي سبقتها بقرون

تقصّ علينا ملحمة الالياذة جزء من المعارك التي خاضها أهل مدينة إليون من إقليم طروادة الواقع في آسيا الصغرى على خليج الدردانيل واليونانيين الزاحفين عليهم الذين حاصروا مدينتهم مدّة عشر سنوات الى أن فتحوها عنوة وأحرقوها وقتّلوا أهلها. وذلك حوالي سنة 1200 ق م.

ولا تتناول هذه الملحمة كامل الحرب الطروادية ولكن تقصّ علينا سلسلة من المعارك الشرسة التي جرت بين أبطال اليونانيين وأبطال الطرواديين في السنة العاشرة والأخيرة من الحصار وفي مدّة قصيرة لا تتجاوز السبعة أسابيع.

بلغت المعارك قمّتها في الضراوة عندما ثارت خصومة بين الملك أقاممنون القائد الأعلى للحملة اليونانية وأخيلوس ألمع أبطال الجيش فغضب هذا الأخير وانسحب من القتال مع جيشه الصغير ورابط في معسكره

فظنّ الطرواديون أن الظرف سانح للتغلّب على أعدائهم والقذف بهم في البحر وقد فقدوا أشجع أبطالهم. وفعلا كبّدوا اليونانيين هزائم شنعاء واحتلّوا جانبا من معسكرهم وأوشكوا أن يضرموا النّار في سفنهم المطروحة على الشاطىء ولم يستطع أي بطل من أبطال اليونانيين أن يحلّ محلّ أخيلوس المنسحب وأن يقوم بطولات مماثلة لبطولاته خاصة أمام البطل هكتور حامي مدينة طروادة وسورها المنيع. وعندما شاهد أخيلوس ان انسحابه من المعركة قد جرّ الويلات رضي بأن يبعث قومه بالسماح الى جيشه بالدخول من جديد في المعارك بقيادة صديقه الحميم باتروكلوس الذي ألبسه سلاحه حتى يوهم الطرواديين أن أخيلوس نفسه عاد الى ساحة القتال. ورجحت الكفّة لفائدة اليونانيين وأجلوا أعداءهم عن معسكرهم ولكن قتل هكتور باتروكلوس. وعندئذ عاد أخيلوس الى ساحة القتال ليثأر لصاحبه وبارز هكتور وقتله.

فالملحمة مركّزة على غضب أخيلوس. وتعدّ 15.537 بيتا وقع تجميعها وضبطها في القرن السادس قبل الميلاد. وكانت تنشد كل سنة في عيد الالهة أثينا سيدة المدينة دون أن يسمح للرواة أن يغيّروا من النّص المحقّق شيئا. وقسمت تلك القصيدة في العهد الهلينستي الاسكندري الى أربعة وعشرين جزء أو نشيدا.

(23) **أخيلوس** : هو البطل الأول في الالياذة والمحور الذي تدور حوله الأحداث. وهو أصغر الأبطال اليونانيين سنّا وأقواهم حأشا وأوسمهم حلقة. فانسحابه عن المعارك يجرّ للجيش اليوناني الكوارث ولا يستطيع أيّ بطل من الأبطال سدّ الثغرة التي يحدثها وعودته الى القتال تبعد الويلات عن اليونانيين وتيسّر لهم النصر النهائي.

هو ابن ثيتيس احدى ربّات البحر زوّجها الآلهة البطل اليوناني بيليوس ملك المرميدين القاطن بمنطقة إفثيا من إقليم تساليا. وهو ابنهما الوحيد. وكلّف أبوه القنطور (شخص خرافي جسمه جسم حصان ووجهه وجه إنسان) خيرون تربيته فكان يطعمه أحشاء الأسود والخنازير البرّية ونخاع الدببة ليكسبه الشجاعة ويناوله أحيانا شهد النحل ونخاع الأيول ليكسبه القدرة على العدو السريع فنشأ شجاعا مقداما وعدّاء لا يعدو أحد في غباره.

شارك في حرب طروادة وقتل هكتور ورماه البطل الطروادي باريس بسهم فأرداه قتيلا.

(24) **باتروكلوس** : صديق أخيلوس الحميم ورفيقه الوفيّ منذ أيام صباه. وكان أكبر منه سنّا. صرعه هكتور تحت أسوار إليون.

(25) **إسّوس** : مدينة تقع في إقليم كيليكيا من أقاليم الأناظول.

(26) **قوقملا** : سهل من سهول أشور قرب مدينة نينوي العاصمة القديمة للأشوريين.

(27) **صور** : احدى المدن الفينيقية الثلاث التي اشتهرت في العصور القديمة بنشاطها التّجاري العظيم وبسيطرتها على مسالك البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلسي والبحر الأحمر والطريق البحرية الى الهند وهي الجبيّل (بيبلوس) على بعد خمسة كيلومترات شمالي بيروت التي اختصت بالتجارة مع مصر الفرعونية : كانت تصدّر الى مصر أخشاب الارز وتستورد أوراق البردي ومن هذا المنتوج المصري اشتق اسمها القديم. وصيدا التي تبعد عن بيروت خمسة وأربعين كيلومترا جنوبا والتي استولت على الطرق التّجارية في البحر الايجي حتى أصبح لفظ «صيدوني» مرادفا عند اليونان للفظ فينيقي واتّفقت صيدا مع البابليين واستفادت من الطريق التجاري الذي كان ينطلق من الهند في اتّجاه الخليج العربي الذي كان يسيطر عليه البابليون. وثالثتهما مدينة صور

تبعد صور عن بيروت ثلاثة وثمانين كيلومترا جنوبا. وكانت تقع في العصور القديمة على جزيرة صخرية قريبة من الشاطىء ارتبطت الآن بالقارّة وذلك ما جعل منها مدينة منيعة أعجزت المعتدين.

استولت في آن واحد على مسلكين بحريين للتّجارة أحدهما ينطلق من خليج العقبة على البحر الأحمر

وينتهي الى الهند مع محطّات احبارية في موانىء اليمن لانتظار الرياح الموسمية والآخر يطلق من صور نفسها في اتّجاه شمال افريقيا واسبانيا والمحيط الاطلسي الى حوبي بريطانيا.

ان الفينيقيين كانوا يعتقدون أنّهم هاجروا من اليمن. وذلك ما يسرّ لهم التّعاون مع مملكة سبأ. فكانت هذه المملكة تلعب دور الحارس للبضائع الفينيقية الوافدة اليها حتى يتسنّى لها أن تواصل طريقها امّا الى الهند أو الى صور. وكانت تمدّ صور بضاعتها المحلية الشهيرة أي بعطور اليمن وبخورها.

وقد سعت صور منذ أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد الى فتح ـــ الطريق البحرية العربية فأسّست في نفس الوقت أوتيك بتونس الحالية (1100 ق.م.) وقادس في اسبانيا على المحيط الاطلسي. وأسّست كذلك قرطاج سنة 814 ق.م. ولعبت قرطاج بالنسبة الى صور دور محطّة للادّخار والتبادل للبضائع الآتية من الشرق والعرب معا.

احتلّها نبوكدنصر (بختنصر) في سنة 587 ق م. وفي سنة 574 ق.م. ودانت بالولاء للفرس وساعدتهم في حروبهم بأسطولها الحربي ونواتيها المهرة وحافظت مع ذلك على استقلالها. وحاصرها الاسكندر سنة 332 ق.م. مدة ستة شهور واحتلّها عنوة ودمّرها. ويجدر أن نشير الى أن الاسطول القرطاجي قدم الى صور في الأيام الأولى من الحصار وحمل كنوزها وأجلى عن المدينة كلّ من لا يقدر على حمل السلاح

(28) **السوس** : مدينة قديمة بقيت أطلالها في اقليم خورستان ـــ يرجع تأسيسها الى الالفية الخامسة قبل الميلاد. كانت عاصمة لمملكة صغيرة كانت دائما مهدّدة على مرّ القرون من طرف السومريين والاكّاديين والكلدانيين والاشوريين. ودمّرها أشور بانيبال ملك الأشوريين سنة 640 ق.م. جعلها ملوك فارس من أسرة الأخمينيين إحدى عواصمهم.

(29) **باكتريان** : (باكتريانى باليونانية) تسمية قديمة لاقليم خراسان ـــ عاصمته باكترا (بلخ).

(30) **تاكسيلا** : مدينة في باكستان الحالية

(31) **أولمبياس** : (**375 ـــ 316 ق.م.**) بنت نيوبتولاموس ملك إبيروس وملكة مقدونيا وأمّ الاسكندر الكبير. تزوّجت فيليبوس الثاني ملك مقدونيا سنة 357 ق.م وطلّقها فيليبوس في سنة 337 ق.م ليتزوّج من كليوبترا المقدونية. غادرت مقدونيا بعد طلاقها حاملة معها ابنها الاسكندر وأقامت في قصر أخيها ملك إبيروس. ولكنّ فيليبوس أرجعها بعد مدة قصيرة. واسترضاها. وربّما شاركت في المؤامرة التي أدّت الى قتل زوجها سنة 336 ق.م. وبعد صعود ابنها الاسكندر على العرش انتقمت من ضرّتها كليوبترا فأمرت بقتلها كما أمرت بقتل كثير من أعدائها.

وعندما كان الاسكندر الكبير يقوم بغزواته نازعت على السلطة أنتيباتروس الذي كلّفه ابنها بتسيير شؤون مملكة مقدونيا في فترة غيابه

ولما أتاها نبأ موت الاسكندر الكبير (323 ق.م.) غادرت مقدونيا للاقامة بابيروس.

وفي سنة 319 ق.م. تواطأت مع بوليبرخون خليفة أنتيباتروس وأصبحت وصيّة على عرش مقدونيا. ولكنّ كاسندروس بن أنتيباتروس شقّ عصا الطاعة في وجهها وحاصرها في مدينة بودنا وفتح المدينة وقتلها (316 ق.م.).

(32) **بلوتارخوس (46 ـــ 120)** : مؤرخ يوناني عاش معظم حياته في القرن الأول الميلادي ولد بمدينة خيروني من إقليم بويوتيا تلك المدينة التي جرت بجانبها المعركة الشهيرة التي هزم فيها فيليبوس الثاني اليونانيين المتحالفين سنة 338 ق م وقضى بلوتارخوس حياته كلّها في تلك المدينة وكتب فيها مؤلّفاته التي تناولت تراجم الرجال العظام مثل سولون المشرّع الاثيني وبريكليس حاكم مدينة أثينة الذي أطلق اسمه على القرن الخامس قبل الميلاد والاسكندر المقدوني وغيرهم

(33) **أثيني (النصف الأول من القرن الثالث الميلادي)** . نحويّ يوناني كانت له ثقافة واسعة ولد بنوكراتيس بمصر وكتب بعد سنة 228 كتابا في ثلاثين سجلاّ عنوانه «مأدبة السفسطائيين» وهو عبارة عن موسوعة ضخمة تتناول كل معارف وفنون زمانه. والغريب في الأمر أن أكثر ما نعرفه عن الحياة اليومية لليونانيين مستمدّ من هذا الكتاب.

(34) **فيليبوس الثاني (382ـ 336 ق.م.)** ملك مقدونيا وأبو الاسكندر الكبير استطاع بفضل حزمه ودهائه أن يجعل من قطره الضعيف الفقير الذي كان يعتمد في عيشه على احتطاب خشب الجبال ورعاية الغنم والمعز مملكة قويّة ثريّة ومن شعبه شبه المتهمّج الساكن على أطراف البلاد اليونانية شعبا متحضّرا يشارك في حضارة يونانية كانت أجنبية عنه ولكن تبنّاها وتعلّق بها حتى أصبح مدافعا عنها عن قناعة.

كان الابن الثالث للملك أمنتاس. ولما تولّى أخوه الأكبر برديكاس الملك أرسله كرهينة الى ثيباي حيث قضى فيها ثلاث سنوات من 368 الى 365 ق م. تعلّم فيها اللغة اليونانية وتأثّر بحضارة اليونان. ودعاه أخوه الى مقدونيا فالتحق بحاشية الملك. ولما قتل أخوه سنة 359 ق.م. في معركة ضدّ الإليريين (الألبانيين حاليا) عيّن وصيا على العرش حتى يبلغ ابن أخيه أمنتاس الثالث سنّ الرشد.

وقام أثناء فترة الوصاية بأعمال جليلة. هاجم الألّيريين فجأة فهزمهم وانتقم بذلك لعمّه الذي قتل وهو يقاومهم. وفرض نفوذه على إقليم إليريا (ألبانيا الحالية) بعد أن كان ذلك الاقليم مسيطرا على مقدونيا. وحارب الطراقيين الذين كانوا يناوشونه في حدود مقدونيا الشمالية واحتلّ سنة 357 ق.م. مدينة أمفيبوليس التابعة لأثينة التي لم تستطع الدفاع عنها واستولى على مينائها فتمكّن بفضل ذلك من تصدير الأخشاب التي تنتجها مقدونيا.

وأهمّ عمل قام به وأبعده أثرا استيلاؤه على منطقة جبال بانقيون في إقليم طراقيا وضمّها الى مقدونيا. وتلك المنطقة الجبلية شهيرة في العالم القديم بمناجم الذهب والفضّة وكان منتوج تلك المعادن الثمينة يقسم بين القبائل الطراقية المقيمة بالمنطقة.

اغتنم فيليبوس فرصة التنازع بينها فاستولى على المدينة الصغيرة التي كانت مستودعا لها ومركزا للمعاملات التّجارية وأنزل بها حامية وسمّى المدينة باسمه وأمر ببذل جهود مضاعفة لاستخراج أكبر كميّات ممكنة من الذهب والفضة. فأحرز على نجاح باهر حيث صعد الانتاج من قرابة خمسة أطنان ذهبا كانت تنتجها القبائل سنويا الى أكثر من ستّة وعشرين طنّا سنويا.

وهذه الكميّة الوافرة من الذهب جعلت من مقدونيا مملكة ثريّة مزدهرة قادرة على حشد الجنود وجلب المرتزقة وشراء الضمائر في جميع المدن اليونانية التي أفقرتها النّزاعات فيما بينها والحروب الأهلية. فذلك السيل من الذهب مكّن فيليبوس بكلّ يسر من أن يعتمد في كلّ مدينة يونانية على حزب موال لمقدونيا وللنّظام الملكي يموّله بانتظام حتى يؤثّر على الرأي العام ويهزم الحزب الديمقراطي فيجنح اليونانيون شيئا فشيئا الى التّعاون مع مقدونيا والى الرضا بنفوذها على الجميع ولم تتردّد الأحزاب اليونانية المناهضة لمقدونيا والمتمسكة بالنّظام الديموقراطي في التواطؤ مع الفرس ومدّ يدها الى الأموال التي كان يغدقها عليها ملك الفرس في صورة نقود ذهبية تحمل اسم داريوس الثاني ذلك الملك الذي زحف على بلاد اليونان في بداية القرن الخامس قبل الميلاد فأصبح اليونانيون تتنازعهم عملتان ذهبيتان قويّتان العملة الفارسية من جهة والعملة الذهبية الجديدة التي أصبح فيليبوس يضرب نقودها الثقيلة العريضة بكميّات وافرة بفضل مناجم ذهب طراقيا

وفي سنة 356 ق.م. نفسها أبعد ابن أخيه عن عرش مقدونيا وحلّ مكانه

وأخذ فيليبوس يتدخّل في النّزاعات بين اليونانيين بهدف جمع شملهم تحت لوائه حتى يحوّل ضعفهم وشتاتهم

الى قوّة يستعملها لغزو الفرس الذين طالما قهروا اليونانيين وأهانوهم. وهو يشعر بأنّه أهل لتبنّي قضايا اليونان. وهو يعتبر أن الحضارة اليونانية هي الحضارة المثلى التي ينبغي أن تنتشر وتسود.

واغتنم لنشر نفوذه ضعف المدن الثلاث الكبرى : أثينة وإسبرتا وثيباي التي أنهكتها الحروب فيما بينها وأفقرتها القلاقل والفتن ومناورات الفرس.

وبدأ فيليبوس يتوسع شيئا فشيئا يعين بعض المدن على الأخرى أثناء حروب طويلة تقطعها فترات سلم مفروضة من طرف فيليبوس مكّنته من الاستيلاء على الموانىء والمدن. ودامت تلك الحروب قرابة عشرين سنة وكلّلت بمعركة خيروني سنة 338 ق.م. التي هزم فيها فيليبوس الثيبيين والأثينيين المتحالفين لمقاومته وأرغمهم على إبرام معاهدة صلح معه.

وفي سنة 337 ق.م. اجتمع ممثّلو جميع المدن والاقطار اليونانية بدعوة من فيليبوس في مدينة كورنثة وأسّسوا منظمة فدرالية تجمعهم باستثناء مقدونيا وأكّدوا على استقلالية كلّ قطر بالنسبة الى الآخر وعلى محافظتهم على أنظمتهم السياسية وتقاليدهم الاجتماعية ولكن عيّنوا فيلبوس رئيسا لهم وقائد اليونانيين الأعلى في حالة الحرب. وأعلن فيليبوس لممثلي اليونانيين أنّه سيثأر لهم من الفرس.

ولكن عاجله الموت فلم ينفّذ خطته لأنه اغتيل في مدينة أيقاي العاصمة القديمة لمقدونيا سنة 336 ق.م.

(35) **الكبيري** : هم آلهة الخصب القدامى الفريجيين نسبة الى مقاطعة فريجيا في الأناضول هذا ما كان يعتقده اليونانيون. وأضافوا أنّهم آلهة الدفائن والكنوز والمناجم في أعماق الأرض وبالتالي آلهة مسيطرون على القوى الخفيّة التي تكمن في أعماق الأرض وتثور أحيانا في صورة زلازل أو براكين. ولذلك سموهم «بالآلهة العظام» واحتمى بهم الحدّادون والعمّال الذين يتعاطون صناعة تذويب المعادن. ولهم معبد مشهور في جزيرة ساموثراكي هو مركز نبوءات يؤمّه الجميع للتطهر واكتشاف الغيب وأسرار الكون عن طريق عادات سريّة تمتحن فيها قدرات المريدين النفسية وتكتسي أحيانا مظاهر مزعجة لا نعرفها الا بصورة غامضة بسبب سرية ذلك النّوع من العبادة.

(36) **ساموثراكي** : جزيرة يونانية تقع في الجانب الشمالي للبحر الإيجي بين طراقيا وجزيرة امبروس في نقطة التقاء بين ثلاثة عوالم وثلاث حضارات : العالم الطراقي العنيف شبه المتهمج وعالم الأناضول الزاخر بالديانات الآسيوية والعالم اليوناني بدينه الوثنيّ المميز.

(37) **إبيروس** : إقليم يقع على طرف بلاد اليونان معزول عنها بجبال يعسر اختراقها، وتقسم الاقليم الى مقاطعات منعزلة عن بعضها جبال تتقاطع طولا وعرضا تطلّ على أودية عميقة. وكان الابيريون والاليريون يحاولون فرض هيمنتهم على مقدونيا. وقد يكون زواج فيليبوس الثاني ملك مقدونيا من أولمبياس أخت ألكسندروس ملك ابيروس طريقة لصدّ عدوان المملكة المجاورة واستمالتها.

(38) **معابد مصر** : كانت مصر ترزح تحت نيّر الفرس منذ أن احتلّها قمبيز سنة 525 ق.م. وثارت ضد المحتلّين مرّات وقاست من القمع ومن امتهان الفرس لمعتقداتها ومن تعدياتهم على المعابد وكهنتها. ولمّا قدم الاسكندر وفرّت أمامه جنود الفرس المرابطون في المعاقل على الحدود المصرية وأسلم له والي الفرس البلاد استقبله المصريون استقبال المنقذ لهم. فمنع جيشه عن النهب وأمر جنوده باحترام المعابد وكهنتها. ونزل بعاصمة منفس المدينة المقدّسة وقدّم القرابين في المعبد للثور المقدّس أبيس تقرّبا لآلهة مصر وارضاء لساكنيها وكهنتها. وأعلن كهنة منفس بأن عهد الظلم قد ولّى وإن مصر تستقبل في شخص الاسكندر فرعونا جديدا خليفة الاله أمّون في الأرض. ووقع تتويج الاسكندر في معبد بتاه (القوّة الالاهية المسيرة لشؤون البشر) بحضور رئيس كهنة الاله الأكبر أمّون الذي قدم خصيصا من طيوة المدينة ذات المائة باب مدينة أمون المقدسة التي كانت تقع في صعيد مصر في مكان الكرنك والاقصر وبحضور جميع كهنة معابد منفس. فالاسكندر

بقي متأثرا طيلة حياته بتلك الطقوس الدينية الضاربة في القدم التي تصل بين عالم اللاهوت والبشر وتجعل من فرعون ظل الاله أمّون على الأرض و«ابنه» الروحي. وقد أثرت في نفسه بالخصوص بعد تتويجه زيارته لمعبد أمّون ومركز نبوءته في واحة سيوة في صحراء مصر. استقبله كهنة المعبد بحفاوة. وأخرجوا له ولضبّاطه صنم أمّون محمولا في زورق ترفعه الراهبات فوق رؤوسهن. وكان الكهنة يجيبون عن أسئلة الزائرين بتأويل حركات الصنم الذي تحركه الراهبات وهنّ يطفن به. ومكّن الكهنة الاسكندر بعد ذلك من المثول وحده أمام أمّون في أقصى المعبد وجرى بينهما ما لم يعلمه أحد. وخرج الاسكندر من البيت الخفيّ الذي يحفظ فيه صنم الاله وهو حامل قرنين من ذهب أصبح يشدهما أحيانا الى جانبي رأسه تحت خوذته. وقد رسم رأس الاسكندر فوق النقود المضروبة في عصره وهو يحمل قرنين.

(39) **أبو الهول** : هو تمثال أسد رابض مادا ذراعيه. وجهه وجه انسان. تعدّدت تلك الصورة الرمزية في مصر. أشهر هذه التماثيل هو أبو الهول الرابض بالجيزة قرب أهرام مصر.

(40) **الهندوكوش** : سلسلة من الجبال الشاهقة يبلغ أحيانا ارتفاعها ستة آلاف متر بالنسبة الى سطح البحر وهي بجانب جبال حملايا في آسيا الوسطى.

(41) **أكرنانيا** : إقليم يقع في وسط البلاد اليونانية ويشمل المنطقة الواقعة بين خليج أكسيوم غربا وخليج كورنثة شرقا يشقّه نهر أخيلوس وهو أطول أنهار البلاد وينبع من وسط اقليم إبيروس وينصّب في الطرف الغربي من الخليج الكورنثي.

(42) **ميازا** : اسم يطلق على القصر الملكي المقدوني بيبلاّ.

(43) **هوميروس** . شاعر يوناني أعمى يشكّ في حقيقة وجوده وفي العصر الذي عاش فيه. إليه تنسب ملحمتان وهما الالياذة والاوديسا وبعض الأناشيد الدينية.

(44) **الميديون** : هم سكّان إقليم ماداي أو (ميديا) الذي يسميه جغرافيو العرب إقليم الجبل. وعاصمتهم في أيام مجدهم إكتانا (وهي همدان حاليا). ذكر الميديون لأول مرة في القرن التاسع قبل الميلاد في حوليات الملوك الاشوريين وبالضبط في حوليات الملك الأشوري سلمصر الثالث وفي سنة 835 ق.م.

والميديون كانوا يكوّنون في بداية أمرهم قبائل هندوأوربية انسابت مع قبائل أخرى من بني أعمامهم الفرس من روسيا الجنوبية الى المرتفعات الشمالية الغربية من ايران الحالية عبر القوقاز.

ويبدو ــ اذا اعتمدنا الحوليات الأشورية ــ أن الميديين احتلّوا المناطق الخصبة من اقليم الجبل حيث تكثر المياه الجارية والعيون الفوّارة وتحولوا من أقوام رحّل رعاة الى مزارعين مستقرين أخذوا يعتنون بغرس الأشجار المثمرة وتربية الماشية فصلح حالهم وتحوّل فقرهم وترحالهم الى غنى ودعة. وتأثروا بالحضارة الأشورية وكوّن رؤساء عشائرهم دويلات ميدية كانت جميعها تابعة لملك أشور.

أما بنو أعمامهم من الفرس فقد وجدوا أنفسهم منعزلين في المناطق الجبلية الوعرة المجدبة التي لم تمكنهم من العيش الرخيّ.

ووقع توحيد جميع عشائر الميديين في القرن السابع قبل الميلاد تحت راية قائد واحد وهو ديوكيس. وخلفه على عرش ماداي ابنه فراوتيس الذي أتمّ توحيد المملكة معتنما ما أصاب مملكة أشور من انحطاط ووهن. فاحتوت مملكته على اقليم واسع يمتد في اتّجاه الشرق من همدان الى دماوند وفي اتّجاه الجنوب من همدان الى مفازة إيران الوسطى. وفرض نفوذه على بني أعمامه من الفرس الذين أسّسوا مملكة صغيرة في منطقة بارسوماش.

واستطاع الميديون بعد ذلك أن يقضوا على مملكة أشور وأن يحرقوا عاصمتها نينوى سنة 612 ق.م متعاونين في ذلك مع الكلدان. واستولى الميديون على الجانب الشرقي من اقليم ما بين الرافدين. وطنّوا أهم

يقدرون على تعويض مملكة الأشوريين في ساحة الشرق الأوسط وأخذوا يسيرون سيرتهم الى أن أطاح بهم كورس الكبير ملك الفرس وضمّهم الى مملكة فارس سنة 550 ق.م.

و لم يصحب استيلاء الفرس على مملكة ماداي مجازر أو حرائق بل عامل الفرس بني أعمامهم بالحسنى وأبقوهم على عاداتهم وتقاليدهم ونظمهم السياسية والادارية وأشركوهم في الملك. وكان الشعب الميديّ يتمتّع من بين الشعوب الخاضعة لسلطان الفرس بامتيازات خاصة. وكان يذكر الميديون دائما بجانب الفرس ويسوون بهم حتى أطلق اليونانيون على الحروب التي جرت بينهم وبين مملكة الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد اسم الحروب الميدية لصعوبة التفريق بين الفرس والميديين خصوصا أن الفرس تبنّوا عادات الميديين في طريقة العيش واللباس لأن الميدين كانوا أعرق من الفرس في الحضارة.

(45) **أيقاي** : اسم العاصمة القديمة لمملكة مقدونيا قبل أن ينتقل ملوكها الى بيلاّ.

(46) **إسبرتا** : تقع مدينة إسبرتا جنوبي شبه جزيرة البيلوبونيسوس (البيلوبونيز) في اقليم لاكونيا الذي تعزله الجبال عن بقية بلاد اليونان. كان هذا الاقليم مع عاصمته إسبرتا في قديم العهود مملكة منلاوس وهيليني. كان مجتمع مدينة إسبرتا مجتمعا محافظا وقاسيا. وكانت نظمها السياسية وتقاليدها الاجتماعية تركّز وتؤكد الفوارق بين الطبقة الارسطوقراطية «طبقة المتساوين» وجمهور الشعب الكادح في الحقول الذي لا يسمح له بالخروج من وضعه والآلاف من العبيد الذين لا يملكون رقابهم. وقد كان حمل السلاح والتدريب العسكري مقصوران على الطبقة الارسطوقراطية فأصبح جيش اسبرتا قادرا على إخماد الفتن الداخلية وعلى المشاركة الفعّالة في الحروب الخارجية. وقد نافست إسبرتا أثينة على زعامة بلاد اليونان فتحالفت معها حينا ولفترات قصيرة لصدّ العدوان الفارسي وحاربتها أحيانا خاصة في الثلث الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد أثناء حروب طويلة دامت ثلاثين سنة وأضعفتهما معا، أطلق عليها اسم «حرب البيلوبونيز» (431 — 404 ق.م.).

(47) **بلاد الكلدان** : هو اسم قديم لمنطقة ما بين النّهرين الجنوبية أي بلاد سومر وأكّاد. عاصمتها بابل ومن مدنها القديمة أور. احتضنت بلاد الكلدان حضارات عريقة ضاربة في القدم اشتهرت بازدهار العلوم وخاصة منها علم الفلك وبالسحر أيضا.

(48) **طروادة** : اسم قديم لاقليم من أقاليم الاناضول محاذ لمضيق الدردانيل. عاصمته إليون.

(49) **برقامون** : مدينة قديمة في اقليم ميسيا من أقاليم الأناضول. مركز حضاري ممتاز نال شهرته من مكتبته الشهيرة. تأثرت منذ العهود القديمة بالثقافة اليونانية.

(50) **البيلوبونيز (البيلوبونيسوس باللغة اليونانية)** ومعناها جزيرة بيلوس. وبيلوبس هذا شخصية أسطورية وهو أبو أتريوس وجدّ أقاممنون القائد الأعلى في الحرب الأسطورية التي شنّها اليونانيون على إليون باقليم طروادة. ويعرف البيلوبونيز اليوم باسم شبه جزيرة موريا. وهذا القسم من أرض اليونان معزل عن بلاد اليونان الوسطى والشمالية يفصل بينهما برزخ كورنثة الضيّق. وتقلّ في ساحل البيلوبونيز الموانىء الهامة التي تيسّر التواصل والاتّجار. فكانت المنطقة في العهود القديمة معزولة وفقيرة.

(51) **أثينة** : مدينة أثينة هي قصبة إقليم أتّيكا واقليم أتّيكا هذا هو شبه الجزيرة المثلثة الشكل التي تمتد الى داخل البحر من جنوب إقليم بويوتيا تفصلها عن هذه الأخيرة سلسلة من الجبال المتصلة. وتقع هذه المدينة في أوسع منطقة صالحة للزراعة تخترقها طرق سهلة ممّا يسّر للمدينة الهيمنة على كامل الإقليم وفرض نفسها كمقرّ للحكومة المركزية وكانت أثينة تستغلّ مناجم للفضّة مكّنتها من ضرب عملة فضية «الدراخما الاثينية» كان لها الأثر البعيد على تنمية اقتصاد المدينة والإقليم معا. وان قرب أثينة من ميناءي فاليرون وبيرية أهلّ سكانها للاتجاه الى البحر والاتّجار. وأحرزت بفضل تلك الميزات على سيادة اليونانيين وزعامتهم في البحر.

وقد كانت مركزا للحضارة اليونانية لا يضاهيه أي مركز آخر. فيها ازدهر المسرح اليوناني بأعلام كبار مثل أيسخيلوس وسوسفوكليس. وأوريبيديس وأرسطوفانيس. وفيها بلغت الفلسفة اليونانية أعلى قممها مع سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس. وفيها شكّل النحّات فيدياس تماثيله العجيبة وفيها ازدهرت مدرسة رسّامين وضعوا صورا وزخارف على أواني الخزف تعجّ بها اليوم متاحف العالم.

وان دستورها الديموقراطي مازال مرجعا يُحتذي في مجال الأنظمة السياسية

(52) **الهلسبون** : هو الاسم اليوناني القديم لمضيق الدردانيل.

(53) **بوسيدون** : إله البحر عند اليونانيين. عندما اقتسم الاخوة الثلاثة الكون بالاقتراع كانت السماء من نصيب زيوس وباطن الأرض مع عالم الأموات من نصيب هاديس والبحر من نصيب بوسيدون.

كان يمثّل راكبا عربة تجرّها على سطح البحر مخلوقات أسطورية لها وجوه البشر وأجسام الدلافين وماسكا بيده حربة ذات ثلاثة أشواك يستعملها عادة صائدو السمك. فتلك الحربة المميّزة هي شعار إله البحر بوسيدون.

(54) **زيوس** : هو الاله الأكبر وسيد البشر والآلهة معا. اسمه مشتقّ من الضياء أو السماء الصحو. هو إله السماء يرسل منها المطر ويشعل فيها البرق ويرسل منها الصواعق ويرعد فيبعث الفزع في النّفوس.

كان الصولجان شعاره والعقاب طائره والصاعقة سلاحه الرهيب بها يعاقب من طغى وتجبّر. وينسب اليه أيضا شجر السنديان أعظم الأشجار. قوته تفوق قوّة الآلهة الآخرين جميعهم. وهو أبو الآلهة والنّاس والحاكم العادل. وكان يقطن في أعلى جبل أولمبوس تحيط به الآلهة كما تحيط الحاشية بالملك.

(55) **أثينا** : هي إلهة عذراء مقاتلة خرجت لابسة الدرع وماسكة الرمح من دماغ أبيها زيوس سيد الآلهة. فلم تنجبها أمّ. ولم تتزوج بل بقيت إلهة فتاة تتقن النسج والتطرير فتسهر على أعمال الفتيات في منازلهنّ وتحمي أصحاب الحرف والصناعات.

تمثّل في صورة فتاة تحمل الخوذة وتمسك الرمح وتلبس درعا من جلد الماعز يتدلّى منه رأس القرقونا المفزع الذي يترك كل من يراه مبهوتا لا يبدي حراكا والقرقونا شخصية خرافية احتزت اثينا راسهاالبشع الذي تعلوه حيّات حلت محل الشعر.

أثينا هي حامية مدينة أثينة. اشتقّ اسمها من اسم المدينة بنى لها أهل أثينة معبد البرثينون الشهير الذي مازالت جوانب منه قائمة الى اليوم (ولفظ البرثينون مشتق من لفظ برثينوس ومعناه العذراء) والإلهة كما هو معلوم إلهة عذراء.

تنازعت مع عمّها بوسيدون إله البحر على سيادة إقليم أتّيكا حيث تقع مدينة أثينة. فرأى بوسيدون أن يظهر نعمته على أتّيكا بأن ضرب بحربته المثلثة الأشواك صخرة الأكروبوليس (المدينة العالية) فتفجرت منها عين ماء أجاج ثم برز من الصخر الحصان وتقدمت أثينا فغرست شجرة الزيتون. فحكم ملك أتّيكا لصالح أثينا لأنّها وهبت أتّيكا ما هو أنفع لها وبنى لها معبدها على صخور الاكروبوليس وأصبحت منذ ذلك اليوم إلهة المدينة.

شعار أثينا شجرة الزيتون وكذلك الحيّة والبومة. وهذان الحيوانان يسكنان صخور الأكروبوليس وضربت مدينة أثينة نقودا فضّية تحمل صورة البومة وسميت «دراخما» ومنها اشتق العرب اسم الدرهم.

(56) **هراكليس** أشهر أبطال اليونان الخرافيين. قيل انّه ابن لزيوس من امرأة اسمها ألكمينا. وكان يحتلّ منزلة وسطى بين الآلهة والبشر. لاحقه غضب هيرا زوجة زيوس لأنّه كان ابنا غير شرعي لزوجها فأوحت الى ملك أرقوس أن يكلّفه بأعمال خطرة علّها تزهق روحه وهو يؤدّي احداها. فقام هراكليس باثني عشر عملا بطوليا عدّدها القدماء أشهرها حمله السماء على ظهره لحظات بدل العملاق أطلس الذي تنسب

اليه جبال الأطلس وشقّه مضيقا يصل المحيط الأطلسي بالبحر الأبيض المتوسط الذي يسمى اليوم بمضيق حبل طارق وكان يسمّى في العهود القديمة عمودي هراكليس. وكان فيليبوس الثاني ملك مقدونيا يدّعي أنّه من سلالة هراكليس

(57) **ديموستينيس (384 — 322 ق.م.)** رجل سياسة خطير وخطيب أثيني مصقع قضى حياته كلّها في مكافحة المدّ المقدوني بقيادة فيليبوس الثاني ثم ابنه الاسكندر الكبير. وكان يتنازع المدينة في عهده حزبان : حزب موال لمقدونيا يدعو الى التصالح معها والرضا بالحلول الوسطى وحزب ثان يتزعّمه هو يدعو الأثينيين الى مقاومة مقدونيا دون هوادة وبشتّى الوسائل ولو أدّى ذلك في بعض الحالات الى التواطؤ مع الفرس. ولد بأثينة وكان أبوه صانع سلاح جمع ثروة عظيمة وكانت أمّه من إقليم طراقيا المتاخم لمقدونيا من جانبها الشمالي الشرقي. فكان أعداؤه يعيّرونه بأمه الأجنبية ويعتبرونه هجينا. ومات أبوه وكان ديموستينيس لم يبلغ السابعة من عمره. فاستولى على ثروته الأوصياء. وحاول عندما بلغ سنّ الرشد استرجاع الثروة التي خلّفها أبوه فلم يفلح. وتعاطى مهنة محرّر مرافعات لمن يقصده من المتقاضين.

وفي سنة 355 ق م. بدأ ديموستينيس يشتغل بالسياسة اما بتحرير خطب يطلبها منه رجال السياسة أو بالدفاع عن بعض القضايا باسمه الخاص أمام مجلس الشعب.

وتفرّغ ابتداء من سنة 351 ق.م. للعمل السياسي. وانقطع لمقاومة فيليبوس الثاني ملك مقدونيا ومحاولة تأليب الرأي العام الأثيني عليه وحفز همم مواطنيه حتى يجندوا جميع طاقاتهم لمحاربته وحثّ غيرهم من اليونانيين على مساندتهم. وكان ذلك عن طريق خطب نارية كان يلقيها في مجلس الشعب الأثيني مشنعا بأعمال ملك مقدونيا العدائية داعيا الى مقاومته مقاومة مستميتة ومهاجما من يدعون الى مهادنته والتعايش السلمي معه.

وعندما مات فيليبوس واعتلى الاسكندر العرش تحالفت أثينة مع ثيباي بتحريض من ديموستينيس

ولم يزل ديموستينيس رغم ابرام معاهدة صلح مع فيليبوس قبلها عن مضض يهاجم الملك المقدوني ويطوف ببلاد اليونان مؤلبا عليه النّاس حتى هجم فيليبوس على اليونانيين المتحالفين وهزم جيوشهم في معركة خيروني سنة 338 ق.م.

وعندما مات فيليبوس واعتلى الاسكندر العرش تحالفت أثينة مع ثيباي بتحريض من ديموستينيس ظنّا منهما أن الملك الشاب الذي كان يقاوم فتنا متعددة ثارت بعد موت أبيه لن يستطيع التغلب عليهم. ولكن الاسكندر انقضّ عليهم وهزم جيش الثيبيين هزيمة نكراء وسوّى مدينة ثيباي بالأرض وقتّل أهاليها وسبى نساءها وأطفالها وباعهم في أسواق العبيد. ولم يمسّ أثينة بسوء تقديرا لدورها الرائد في الدفاع عن الأرض اليونانية ضد الفرس واعجابا بحضارتها المشرقة واكتفى بأن طلب من الأثينيين أن يسلّموا له عدوّه الألدّ وعدو أبيه ديموستينيس. ولكنّه سحب طلبه فنجا الخطيب من سورة غضب الاسكندر.

وتمادى ديموستينيس في مناوءة المقدونيين أثناء زحف الاسكندر على آسيا.

وقدم الى أثينة في سنة 324 ق.م. هاربالوس خازن الاسكندر بمال عظيم اختلسه من مدينة السوس وأخذ يحرّض الأثينيين على محاربة الاسكندر. فوقع احتجاز الأموال المختلسة وألقي بالخائن في السجن. واتّهم ديموستينيس بالاستيلاء على جانب من المال المسروق. فأرغم على مغادرة أثينة للاقامة بجزيرة أيقينا وذلك سنة 323 ق.م.

وعندما أتى نبأ موت الاسكندر ظنّ الأثينيون أن الظروف أصبحت سانحة لشقّ عصا الطاعة في وجه خلفاء الاسكندر الذين اقتسموا الامبراطورية التي كوّنها بحزمه. فأرسلوا سفينة الى جزيرة أيقينا لتعود

بديموسثينيس. ولكنّ حليفة الاسكندر على الجزء الاوربي من الامبراطورية أنتيباتروس زحف على أثينة وأرغم أهلها على إزالة النظام الجمهوري.

وفرّ ديموسثينيس الى جزيرة كالوريا. وأرسل اليه أنتيباتروس جنودا لاغتياله فسمّ نفسه في معبد بوسيدون بالجزيرة وذلك سنة 322 ق.م.

(58) **قرانيكوس** : نهر صغير قريب من الساحل الشمالي الشرقي للأناضول يصبّ في بحر مرمرا

(59) **إيونيا** يقع هذا الاقليم على الساحل الغربي للاناضول وفي المنطقة الوسطى منه يسكنه الايونيون وهم شعب من شعوب يونان هاجروا من شبه جزيرة البيلوبونيز ثم من إقليم أتّيكا في القرن الحادي عشر قبل الميلاد تحت ضغط هجرات الشعوب اليونانية الاخرى كالاخيين والدوريين التي كانت تتدفق من المناطق الشمالية الجبلية الفقيرة نحو مناطق الجنوب الاكثر خصوبة

حلّ اليونانيون بالمنطقة الساحلية الآسيوية المشرفة على خلجان سمورنا (إزمير) وإفيسوس وميليتوس كما حلّوا أيضا بجزيرتي خيوس و ساموس القريبتين من الشاطيء. وشيدوا بها إثنتي عشرة مدينة كبرى هي: ميليتوس وإفيسوس وكلوفون وموبيسوس وبريبي ولبيدوس وتيوس واكلادروميناي إروثراي وفوكايا وساموس وخيوس.

وقد كانت تلك المدن الساحلية تقع وسط أرض خصبة تستغلها لسدّ حاجات سكّانها الى المؤاد الغذائية وتسيطر بفضل موانئها وأسطولها على جانب هام من الحركة التجارية في الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط. فشهدت في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ازدهارا اقتصاديا عظيما ونهضة فكرية ومنية لاتضاهى.

وكانت تدين بالولاء في ذلك العهد الى مملكة ليديا التي كانت مسيطرة على المنطقة الوسطى من بلاد الاناضول.إنّ تلك المملكة التي اتخذت مدينة سرديس عاصمة لها وضربت أولى الدنانير الذهبية التي عرفها العالم قد بلغت مستوى من الثراء والازدهار جعلها مضرب الامثال في العالم القديم.

كان آخر ملوكها كريسوس (قارون) صاحب قناطير مقنطرة من الذهب والفضة اكتسبها بفضل استغلاله لكميّات هائلة من الذهب كان يستخرجها من مياه نهر باكتولوس وخاصة بفضل وقوع مملكته على طريق تجارية هامّة كانت تصل آسيا الصغرى بمدينة بابل وبمنطقة الخليج حيث كانت تجمع بضائع الهند وأقاصي آسيا الآتية عن طريق البحر أو البرّ.

وقد قامت المدن الايونية بدور الوسيط التجاري أيضا بين مصر الفرعونية وبابل الكلدانية. فكسبت كثيرا واستطاعت انشاء حضارة يونانية طريفة ومميزة أشرقت في الضفّة الآسيوية ومهدّت للعصر الذهبّي اليوناني الذي سطعت أنواره في أثينة في القرن الخامس قبل الميلاد.

وعندما أطاح ملك فارس كورس الكبير بمملكة ليديافي أواسط القرن السادس قبل الميلاد احتلّ الفرس مدن إيونيا. وكانت ثورة تلك المدن ضدّ الفرس في سنة 499 ق.م. سبب إندلاع الحروب الميدية بين مملكة فارس والشعوب اليونانية.

واحتضنت مدن إيونيا حركة علمية وفلسفية طريفة سبقت عهد ازدهار الفلسفة اليونانية في أثينة في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

فعلماء إيونيا وفلاسفتها قد أتوا في عصرهم أي في القرن السادس وفي النصف الاول من القرن الخامس ق م. بافكار جريئة ومتقدمة أثرت الفكر الانساني ومازالت تثير عجب الناس وإعجابهم لتطابقها مع أحدث اهتمامات العلم في عصرنا. ومن غريب الصدف أنّ علماء المسلمين القدامى الذين اطلّعوا مثل الشهر ستاني على جانب من إنتاجهم عن طريق التراجم الى اللغة العربية أحسّوا بأن أولائك المفكرين الايونيين قد فتحوا

للفكر الانساني في عهد مبكّر آفاقا واسعة ومن المؤسف أنّ آثارهم قد ضاعت ولم تبق منها الاشذرات تناقلها مؤرّخو الفلسفة القدامى وأصحاب التراجم الذاتية.

وربّما تحصل بعض الفائدة اذا ذكرنا بعضهم معتمدين في عرضنا على مابقي لـ من النصوص من جهة وعلى ماأورده الشهر ستاني عن بعضهم في القرن السادس للهجرة (القرن الثاني عشر الميلادي) من جهة أخرى. وقد يكون الشهر ستاني مطلعا في عصره على نصوص فقدت اليوم.

بوثاقوراس : ويسميه العرب فيثاغورس على عادتهم في قلب الباء المخففة الى فاء والقاف الى عين.

ولد بوثاقوراس بجزيرة ساموس. وكان ابوه صائغا ونحّات أحجار كريمة. قضى شبابه مترحلا في الجزر اليونانية ومن بلد الى آخر في آسيا. وكثيرا ما تردّد على مصر الفرعونية وأقام بها فترات طويلة اتصل فيها بعلمائها وكهنتها. وكانت العلاقات بين حكّام جزيرة ساموس وأماسيس فرعون مصر متواصلة حميمة حتّى أنّ هذا الاخير سمح لاهل الجزيرة بالاستيطان بالدلتا لتعاطي التجارة فحسب فشيّدوا مدينة لهم سمّوها نوكراتيس كان يؤمها التجار من مختلف اصقاع البلاد اليونانية وربما كان بوثاقوراس يتعاطى مهنة ممثل تجاري في المجوهرات يعرض في مختلف الاقطار ما كان يصنعه أبوه من الحلي. وهاجر في آخر حياته الى مدينة كروتونا اليونانية التي كانت تقع في جنوب ايطاليا حيث التف حوله المريدون وأسّس معهم مدرسة فلسفية واصلت أبحاثها وتأملاتها بعد موته وأحرزت على شهرة واسعة في العالم القديم.

يقول عنه الشهر ستاني : «وهو الحكيم الفاضل ذو الرأي المتين والعقل الرصين. يدّعي أنّه شاهد العوالم العلوية بحسّه وحدسه. وبلغ في الرياضة الى ان سمع حفيف الفلك ووصل الى مقام الملك.

وقال : ما سمعت شيئا قطّ ألذّ من حركاتها ولا رأيت أبهى من صورها وهيئاتها.» (الشهر ستاني : الملل والنحل ج 2 –ص 74) يرى بوثاقوراس أنّ كلّ شيء يعود الى العدد.

فالصور الثابتة وحركات الكواكب لها مقاييس تقاس بها. والنبرات الموسيقية أيضا. وتوسّع في التأمّل في الاعداد الفردية والاعداد الزوجية واستنتج من تأملاته استناجات.

يقول الشهر ستاني:«ثمّ إنّ لفيثاغورس رأيا في العدد والمعدود وقد خالف فيه جميع الحكماء قبله وخالفه فيه من بعده. وهو أنه جرّد العدد عن المعدود تجريد الصورة عن المادّة. وتصوّره موجودا محقّقا وجرّد الصورة وحقّقها وقال :مبدأ الموجودات هو العدد (نفس المرجع ج 2 – ص 75)

ثاليس : ويسميه العرب تاليس. هو عالم رياضي وفيلسوف من مدينة ميليتوس. ولد فيها حوالي سنة 640 ق.م. وأسّس بها مدرسة فلسفية سميت بمدرسة ميليتوس انتسب اليها أنكسيما ندروس وأنكسيميميس.

كان يرى أن المبدأ الاول للموجودات هو الماء. يقول ثاليس في احدى المقطوعات التي وصلت الينا:«ومن العجب أنه نقل عنه (أي عن تاليس) أن المبدع الاول هو الماء .فقال الماء قابل لكلّ صورة ومنه أبدع الجواهر كلّها من السماء والارض ومابينهما. وهو علّة كلّ مبدع وعلّة كل مرّكب من العنصر الجسماني. فذكر أن من جمود الماء تكوّنت النار ومن الدخان والابخرة تكوّنت السماء ومن الاشتعال الحاصل من الاثير تكوّنت الكواكب فدارت حول المركز دورات المسبّب على سببه بالشوق الحاصل إليه.» (نفس المرجع ج 2 — ص 63)

أنكسمينيس : ويسميه الشهر ستاني أنكسيمانس. وهو عالم وفيلسوف من مدينة ميليتوس أيضا. لا نعرف أيّ شيء عن حياته كان مثل ثاليس يبحث عن المبدإ الاول للموجودات. فكان يدعي أنه الهواء.

يقول عنه الشهر ستاني كلاما مطابقا لما بقي لنا من آثاره الفلسفية ما يلي: «ونقل عنه أيضا أن الاوائل من المبدعات هو الهواء. ومنه تكون جميع ما تكون في العالم من الاجرام العلوية والسفلية. فقال: ما كوّن

من صفو الهواء المحص لطيف روحانيّ لايدثّر ولا يدخل عليه الفساد ولا يقبل الدس والخبث. وما كوّن من كدر الهواء كثيف جسمانيّ يدّثر ويدخله الفساد ويقبل الدس والخبث. فما فوق الهواء من العوالم فهو من صفوه. ودلك عالم الروحانيات. ومادون الهواء من العوالم فهو من كدره. ودلك عالم الجسمانيات. وهو كثير الاوساخ والاوضار يتشبث به من سكن اليــه فيمنعه أن يترفع علوّا. ويتخلّص منه من لم يسكن اليه فيصعد الى عالم اللطافة دائم السرور»

(نفس المرجع.ج 2 — ص 67 و 68)

كسينوفانيس : شاعر وفيلسوف نشأ في مدينة كلوفون وهاجر من موطنه في آسيا الصغرى الى جنوب إيطاليا حيث ألف معظم كتبه التي لم تبق منها إلا شذرات موزّعة في المصنفات.

كانت نظرياته في الطبيعة قريبة من نظريات أنكيسماندروس. ولكنه تميّز بين فلاسفة إيونيا بنقده الساخر للعقائد الوثنية ويدعوته الى توحيد الخالق وتنزيهه.

يقول كسينوفانيس : « لا إله الاّ الاله الواحد الملك المهيمن على الآلهة والعباد جميعا الذي لايشبه البشر الفاني مطلقا »

هراكليتوس : فيلسوف من مدينة إفيسوس عاش في النصف الاول من القرن الخامس قبل الميلاد. وكان من أعمق فلاسفة إيونيا ان لم يكن أعمقهم ولو خيّم على أفكاره شيء من الغموض. المبدأ الاول للموجودات في نظره هو النار. فالنار تتحول في حركة الى اسفل الى ماء وتراب وكلاهما يتحول في حركة الى اعلى الى نار. فهو فيلسوف الحركة الدائمة والتحول المستمرّ. وما الانسجام الاّ حركة تؤلف بين عناصر متضادّة. والصيرورة صراع بين المتقابلات يقول هراكليتوس : «ما هو مضادّ نافع. وأجمل المركّبات المتنافسة نتيجة صراع بين عناصر متضادّة فكل شيء ينشأ عن صراع»

أنكساقوراس : فيلسوف من مدينة إكلازومينياي. ولد بها في بداية القرن الخامس قبل الميلاد. وتوفي في سنة 428 ق.م. وعاش بأثينة حيث درّس الفلسفة مدّة ثلاثين عاما. ركزّأنكساقوراس تعاليمه على العقل الفعال (نوس باللغة اليونانية). لا نفهم سرّ الوجود إلا اذا اقتنعنا بوجود قوّة ذات إدراك تنظم عناصر الكون المختلفة ولهذه القوة صفات ثلاثة : وحدة الكيان والقدرة والعلم.

يقول الشهر ستاني عن أنكساغوراس (هكذا يعرب أسمه): وحكي أنه قال : كانت الاشياء ساكنة ثمّ إن العقل رتّبها ترتيبا على أحسن نظام. فوضعها مواضعها من عال ومن سافل ومن متوسط .ثمّ من متحرّك ومن ساكن ومن مستقيم في الحركة ومن دائر. ومن أفلاك متحرّكة على الدوران ومن عناصر متحرّكة على الأستقامة. وهذه كلّها بهذا الترتيب مظهرات لما في الجسم الأول من الموجودات » (نفس المرجع ج 2 — ص 65 و 66)

(60) **إفيسوس** : مدينة قديمة في اقليم إيونيا على ساحل الاناضول اشتهرت بمعبد أرتميس الذي أقيم بها وكان يعدّ من بين عجائب الدنيا السبع.

(61) **أرتميس** : هي ابنة كبير الآلهة زيوس من آدميّة اسمها ليتو والشقيقة التوأم لاله الشمس أبلّون. وهي الهة عذراء وسيدّة الحيوانات البرّيّة وحامية صغارها ومروضة الوحوش. وهي ايضا إلهة الصيادين. وكانت الى جانب هذه الصفات إلهة القمر

يتمثّلها اليونان في صورة فتاة عذراء تقضي وقتها مع رفيقاتها العذراى مثلها في القنص في البراري نهارا وفي الرقص معهنّ ليلا تحت أشعّة القمر. وكان سلاحها المفضّل القوس وكانت ماهرة في الرماية.

كانت هذه الربّة في الاصل غير يونانية عبدها سكّان البلقان قبل مجيء اليونانيين الى بلاد اليونان وعبدها سكّان الاناضول وسكّان جزيرة كريت في العصر المينوي كسيّدة الحيوانات البرّيّة تمثّل محاطة بالأسود على

بعض القطع النقدية . وكانت تسمّى « كيبلي » في اقليم فريجيا في الأناضول أيضا. « ما » في اقليم كبّدوكيا في الأناضول أيضا. وربّما سمّاها اليونانيون أرتميس لأوّل مرّة في مدينة إفيسوس حيث كان لها معبد مشهور.

(62) **سرديس** تقع هذه المدينة في الأناضول جنوبي جبل إتمولوس. ويشقّها نهر بكتولوس. كانت قلعة منيعة وعاصمة لملوك ليديا. دمّرها الكمّريون سنة 652 ق.م. واستولى عليها كورس الكبير ملك الفرس سنة 546 ق.م. فأصبحت قصبة ولاية ليديا الفارسية

(63) **مقنيسيا** : مدينة يونانية قديمة في إقليم ليديا. تسمّى اليوم ميسا.

(64) **ترلّيس** : مدينة يونانية في إقليم كاريا من بلاد الأناضول.

(65) **موكالي** : اسم قديم لجبل آسيا الصغرى مطلّ على بحر إيجي في طرف شبه جزيرة ضيّقة تمتدّ كاللسان وتقع وسط إقليم ايونيا الساحلي وتقابل جزيرة ساموس. وكان هذا الجبل معبد يؤمّه الايونيون ليقوموا فيه طقوسا دينية تؤكّد تضامنهم ووحدتهم. ولذلك كان يسمّى المعبد « بانيونيون » ومعناه مجمع الايونيين.

(66) **هليكرنسوس** : مدينة يونانية قديمة في إقليم كاريا من بلاد الأناضول. تسمّى اليوم بودرم. اشتهرت في العهود القديمة باحتوائها على ضريح الملك موسولوس الذي بنته تخليدا لذكراه زوجته الملكة أرتميسيا وذلك سنة 353 ق.م وكان ذلك الضريح يعدّ لجماله من بين عجائب الدنيا السبع.

(67) **لاكيديمونيا** : هو اسم ثان لمدينة إسبرتا.

(68) **داريوس** (**335 — 330 ق.م.**) هو داريوس الثالث وآخر ملوك فارس من سلالة الأخمينيين. اعتلى عرش فارس سنة 335 ق.م. هزمه الاسكندر المقدوني في معركة إسّوس بسوريا سنة 333 ق.م. ثمّ في معركة قوقملا في اقليم ماداي سنة 331 ق.م. وقتل غدرا في سنة 330 ق.م. أثناء فراره في اتجاه المناطق الشرقية من مملكته عندما علم بقدوم الاسكندر عائدا من اقليم فارس بعد استيلائه على ابرسيبوليس عاصمة مملكة فارس واحراقها. قتله ابن عمّه بسّوس مرزبان إقليم باكتريان (خراسان).

(69) **قرديون** : مدينة قديمة من مدن بلاد الأناضول كانت على ضفّة نهر سانقاريوس. كانت تلك المدينة الحصينة عاصمة لمملكة فريجيا. وقد بنى الملك قردياس بها قصرا في أعلى المدينة ومعبدا للاله زيوس وضع فيه كندر للاله مركبة ربط جزأيها بعقد من الحبال يستحيل حلّه على كلّ إنسان . وكان يقال إنّ من استطاع حلّه احرز على ملك آسيا. وقد قطعه الاسكندر المقدوني سنة 334 ق.م. بسيفه مبيّنا كيف ينبغي ان تحلّ العقد.

(70) **بوكيفالوس** : اسم حصان الاسكندر. وكان حصانا أسودااللون قويّا. روضّه الاسكندر في مقدونيا وهو شابّ يافع عندما عجز السائسون عن ترويضه. وصحبه بوكيفالوس في جميع غزواته وشقّ معه صحراء مصر الغربية وكذلك مفازة بلوشستان المفزعة و صعد معه الى الهندوكوش الوعرة المكلّلة بالثلوج في فصل الشتاء واقتحم مع الاسكندر جميع المعارك التي خاضها. وكان يرى دائما في طليعة الخيل حاملا على صهوته البطل المغوار بخوذته القديمة التي يعلوها ريش أبيض. ومات بوكيفالوس في اقليم السندأثناء « معركة الفيلة » التي هزم فيها الاسكندر الملك الهندي بوروس وحزن الاسكندر لموت حصانه وأمر بدفنه كما لو كان بشرا وبنى مدينة في السند قرب ضريحه وسمّاها باسمه وهي بوكيفاليا.

(71) **داريوس الثاني** : (**424 — 405 ق.م.**) كان داريوس ملكا للفرس في الفترة التي كانت تقاسي فيها الشعوب اليونانية ويلات حرب أهلية قامت بين أثينة وحلفائها من جهة وإسبرتا وحلفائها من جهة أخرى. وقد أطلق المؤرخون على هذه الحرب الطويلة الضارية التي دامت ثلاثين سنة (429 — 404 ق. م) اسم (حرب البيلوبونيز) نظر الفرس الى هذه الحرب الأهلية التي كانت تنهك أعدائهم نظرة الشماتة. وبذلوا الجهد لاضرام نار الفتنة كلّما أوشكت على الخمود باذلين الاموال الطائلة لشراء الضمائر أو لمساعدة فريق

على فريق آخر مفضّلين أساليب الاغراء والخداع والديبلومسية المدعّمة بالمال على التدخّل المباشر بواسطة السلاح.

لقد سنّ داريوس الثّاني طريقة جديدة لمعالجة الشؤون اليونانية تبعهاس خلفه من ملوك فارس الى نهاية ملك الاخمييين على يد الاسكندر.

لمّا شقّ مرزبان سرديس الفارسيّ عصا الطاعة في وجه داريوس الثاني بمساعدة أثينة استعان الملك على الوالي الثائر بجند من المرتزقة الإسبرتيين أخمدوا الثورة.

ولمّا واجه داريوس الثاني فتنة ثانية في نفس الولاية أثارها ابن واليه المهزوم عقد معاهدة مع إسبرتا وأعلن الحرب على أثينة واحتل عددا من المدن اليونانية في الاناضول وفرض عليها الجزية وأزال نفوذ أثينة في المنطقة. واعترفت له إسبرتا بالسيادة على كامل مناطق بلاد الاناضول التي حلّ بها اليونانيون مقابل مال عظيم وهبه إياها لتواصل الحرب ضدّ أثينة.

وعندما انهزمت إسبرتا في معركة بحرية ضدّ أثينة عوضّ لها بماله السفن المفقودة.

(72) **بيزنطوس** : مدينة يونانية قديمة أسّسها على شاطىء إقليم طراقيا مهاجرون من مدينة ميقارا الواقعة غربيّ أثينة والتحق بهم مهاجرون آخرون من إقليم بيوتيا. وكانت مركزا تجاريا هامّا ومردهرا لوقوعها على الطريق البحرية التي تسلكها السفن القادمة من البحر الاسود والمحمّلة بالقمح والمعادن والاخشاب.

وقد استولى عليها فيليبوس الثاني ملك مقدونيا سنة 339 ق.م بعد حصار طويل دام سنتين. وقد أعان الفرس البيزنطيين المحاصرين وذلك في عهد الملك أرتاكسركسيس الثالث «359 — 338 ق.م» لا في عهد الملك داريوس الثاني كما يقول الكاتب لان هذا الأخير كان ملكا على الفرس في الثلث الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد كما سبق أن قلناه في الهامش المخصّص لهذا الملك. وقد كان أرتاكسركسيس الثالث ملكا حازما شديد المراس ذكيّا أحسّ بأن ذلك الملك المقدوني الطموح الذي بسط نفوذه في البلاد اليونانية وفي الأقطار المجاورة لها ويحاول جمع كلمة اليونانيين يمثّل خطرا جسيما يهدّد الامبراطورية الفارسية. ولذلك نراه بعد إخماده الفتن الداخلية التي أضرمها مرازبته في الاقاليم وقضائه على ثورة مصر العارمة بالحديد والنار وإحراقه مدينة صيداقي فينيقيا لأجل تحالفها مع الثوار المصريين يتوجه شمالا الى إقليم طراقيا لمساعدة مدينة بيزنطوس التي كان يحاصرها فيليبوس وذلك بعد ان عقد حلفا مع الأثينيين الذين كانوا يعتبرون بتأثير من زعيمهم ديموسثينيس أن فيليبوس أخطر عليهم من ملك الفرس

(73) **فينيقيا** : إقليم من أقاليم الشرق الأدنى. وهو شريط ساحلي على البحر الأبيض المتوسط لا يتجاوز عرضه أربعين كيلومترا يحدّه من الشرق جبل لبنان ويمتدّمن أقليم أوقاريت قرب اللادقية شمالا الى جبل الكرمل جنوبا على مسافة ثلاثمائة كيلومتر.

حلّ به منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد اقوام ساميون كنعانيون تعاطوا التجارة وخاصة منها التجارة البحرية لضيق أراضيهم وقلة مواردهم الفلاحية. وقد ساعد الفينيقيين على القيام بدور هامّ في التجارة البحرية في البحر الأبيض المتوسط شرقيّة وغربيّة والمحيط الأطلسي والبحر الأحمر وفرة الأخشاب الصالحة لصنع السفن في جبل لبنان وموقع فينيقيا الوسط بين وادي النيل وبلاد ما بين النهرين.

(74) **سوريا** : قطر من أقطار الشرق الأدنى.يحده البحر الأبيض المتوسط غربا وسلسلة جبال الطوروس شمالا ونهر الفرات شرقا والجزيرة العربية جنوبا.

سكن سوريا منذ الألفية الثالثة اقوام ساميون.

كانت سوريا خاضعة للفرس عندما زحف عليها الاسكندر وكبّد داريوس هزيمة نكراء في إسوس شماليّ سوريا «333ق.م.». احتلّها كورس الكبير بعد سقوط بابل «539ق.م.» وأسس بها ولاية قصبتها دمشق

تضمّ سوريا وفينيقيا وفلسطين وجزيرة قبرص. وكانت تلك الولاية من أهمّ الولايات الفارسية لأن الأسطول الحربيّ الفارسي كان يسيّره الفينيقيون وكانت موانئ الساحل السوري الذي هو ساحل فينيقيا مراكز لصناعة السفن وتعهّدها واصلاحها ومراسي حصينة لها.

(75) **غزّة** : مدينة منيعة تقع في المنطقة الجنوبية من فلسطين. احتلّها الاسكندر سنة 332 ق.م. بعد حصار دام شهرين. ولم تستسلم الاّ بعد الهجوم الرابع عليها.

(76) **أمّون** : هو سيّد الآلهة والبشر وأعظم إله كان يعبده المصريون القدامى. وما الآلهة الآخرون الا تجسيم لصفاته. في عبادته يتجلّى لون من توحيد الباري كان يدين به المصريون رغم تعدّد آلهتهم.

الكبش هو حيوانه المفضّل. يصل الزائر الى معبد أمّون سالكا ممرّا يصعد من ضفّة النهر الى الباب الرئيسي للمعبد بين صفّين من الأكباش المنحوتة في الصخر.

نظرا للعلاقات الحميمة التي كانت تصل المصريين باليونانيين في جميع العهود وخاصة في عهد احتلال الفرس لمصر الذي كان عهد ثورات متوالية ضدّ العدوّ المحتل ساندها اليونانيون نظرا لاعجاب اليونانيين بالحضارة المصرية التي كانوا يعتبرونها أرقى حضارة في العالم في عهدهم تأثر اليونانيون بالعقائد المصرية. وسرعان ما اعتقدوا أن الاله أمّون هو كبير آلهتهم زيوس. أنشأوا في بلاد اليونان معبدا لزيوس– أمّون.

وكان مركز أمّون للنبوءة في واحة سيوة متصلا بمركز زيوس للنبوءة في دودونا من إقليم إبيروس موطن أولمبياس أمّ الاسكندر. وكان الكهنة اليونانيون يتبادلون الزيارات مع الكهنة المصريين. ولا شكّ أن كهنة أمّون بواحة سيوة كانوا ينتظرون زيارة الاسكندر لمعبدهم.

(77) **كليوبترا** : امرأة مقدونية تزوّجها فيليبوس الثاني سنة 337 ق.م بعد أن طلّق زوجته الأولى أولمبياس الأميرة الابيرية. فغادرت هذه الاخيرة مقدونيا مصحوبة بابنها الاسكندر لتلحق ببيت أخيها ألكسندروس ملك إبيروس. ولكنّ فيليبوس استرجعها بعد مدّة قصيرة واسترضاها. ولمّا اعتلى الاسكندر العرش خلفا لابيه سنة 336 ق.م. انتقمت أولمبياس من ضرّتها كليوبترا فأمرت بقتلها.

(78) **المولوس** : شعب من شعوب إبيروس.

(79) **دودونا** : يقع هذا المكان بين جبال إبيروس الوسطى في منطقة يكثر فيها شجر السنديان. واشتهر هذا المكان بمعبده الذي كان مركز نبوءة لكبير آلهة اليونان زيوس. وهو أقدم مراكز النبوءات في البلاد اليونانية. وكان لزيوس مركز ثان للنبوءة في بلدة أولمبيا من إقليم ايليس على الساحل الغربيّ من شبه جزيرة البيلوبونيز.

(80) **شجرة السنديان المقدّسة** : يحصل كهنة دودونا على أجوبة زيوس عن أسئلة الحجيج الذين يقصدون معبده بدودونا بتفسير حفيف أوراق شجرة سنديان بعينها عندما يهبّ عليها الريح. وكانت تعلّق في الشجرة المقدّسة أحيانا أوان تجعل بربيها حفيف الأوراق أكثر وضوحا. وكانت كاهنات المعبد يستندن أحيانا في تأويلهنّ لأجوبة زيوس على هديل الحمام في أغصان شجرة السنديان المقدّسة.

(81) **كورنثة** : تحتلّ مدينة كورنثة موقعا منيعا جعلها تسيطر على مدخل شبه جزيرة البيلوبونيز وتشرف على بحرين البحر الايجي شرقا والبحر الايوني غربا. وقد حصّن الكورنثيون موقعهم الممتاز بأن بنوا «سورا طويلا» متّصلا يمتدّ في اتجاه الغرب من المدينة الى الخليج الكورنثي وسلسلة من القلاع تمتد في اتّجاه الشرق الى الخليج الساروني. وكان أهل البيلوبونيز يعتبرون أنهم آمنون بفضل وجودهم وراء سور كورنثة الطويل وتحصيناتها.

قد يسّر البرزخ الكورنثي عبور إسبرتا وحلفائها لغزو أتّيكا «إقليم أثينة» أثناء الحرب البيلوبونيزية «431 – 404 ق.م» التي انشقّ فيها اليونانيون الى فريقين أحدهما بزعامة اسبرتا والآخر بزعامة اثينة. وانتهت حرب البيلوبونيز بهزيمة أثينة. وكان سبب نشوب الحرب بين الدولتين اليونانيتين العظيمتين التنافس التجاري

الشديد بين كورنثة وأثينة وكلتاهما لها تجارة بحرية نشيطة. تنازعت المدينتان من أجل جزيرة كركيرا «كورفو الحالية» ومدينة بوتيداي بمقدونيا وكلتاهما مستعمرة لكورنثة. واشتدّت عداوة كورنثة لأثينة بعد الحملة التي قام بها الاثينيون بقيادة ألكيبياديس تلميذ سقراط على صقلية «415 – 413 ق.م.» للقضاء على سيراكوسا «سراقوصة» أهم مستعمرات كورنثة في تلك الجزيرة.

وقد احتلّ فيليبوس المقدوني سنة 337 ق.م كورنثة وعقد فيها إجتماعه الشهير مع ممثّلي الشعوب اليونانيّة ذلك الاجتماع الذي اعترفوا له فيه بالسيادة عليهم وبقيادة جيوش اليونانيين في حالة اندلاع حرب بينهم وبين الفرس. وبقيت المدينة في قبضة ملوك مقدونيا وحوّلوها الى قفل يصدّ شعوب البيلوبونيز والى قاعدة عسكرية حالت دون تعاون أعداء مقدونيا وخاصّة إسبرتا مع اعدائهم في الخارج الى أن احتلّها الرومان سنة 146 ق.م ودمّروها ونهبوا خيراتها وكنوزها في السنة نفسها التي أحرقوا فيها قرطاج وسوّوها بالأرض.

(82) **أبيس** : هو ثور مقدس يعتبره قدماء المصرين أكمل صورة للذات الالهية في شكل الحيوان. ولا يمثل الذات الالهية أيّ ثور بل ينبغي أن يتجمع في الثور المقدّس أبيس سمات محددة وهي شامة بيضاء على الجبين وخطوط على الظهر توحي بصورة نسر أو عقاب وصورة جعل تحت اللسان. كان يعبد الثور ويغرقه الكهنة بعد مدّة معيّنة في بركة مقدّسة ويحنّطون جثّته ويجعلونها في تابوت حجري ويدفنونها في مقبرة بجانب المعبد تجمع جميع الثيران المقدّسة.

(83) **هليو بوليس** : مدينة مصرية قديمة كانت تسمّى باللغة المصرية القديمة «أون». بنيت قريبا من القاهرة الحالية. كانت تلك المدينة مركزا دينيا هامّا. وكان إله المدينة «رع».

(84) **منفس** : مدينة مصرية قديمة على بعد خمسة وثلاثين كيلومترا جنوبي مدينة القاهرة. كانت عاصمة لمصر قبل طيوة. اسمها اليوناني الذي بقيت تعرف به مشتق من اسم مصري قديم هو : «من نفروببي» ومعناه مدينة هرم ببي» وببي هذا هو ملك من الأسرة السادسة لفراعنة مصر اكتسبت أهمّيتها من موقعها بين الدلتا وصعيد مصر.

(85) **باب إشتار** : هو باب من أبواب مدينة بابل في الناحية الشمالية من سورها. واشتار هي إلهة الخصب عند البابليين. تدخل من هذا الباب المواكب الدينية التي تتوجه الى معبد اله المدينة «بال مردوك» أي المولى مردوك.

(86) **معبد بابل الأكبر** : هو معبد الإله مردوك.

(87) **كسركسيس** : «486 – 465 ق م» هو ابن داريوس الكبير وخليفته على عرش فارس. نصبه أبوه عندما كان وليّ العهد نائبا له في عاصمة بابل والمقاطعة التابعة لها. وبقي نائبا للملك مدّة اثنتي عشرة سنة. وتوفي أبوه دون أن ينهي إخماد الثورة العارمة التي اشتعلت في مصر فصدّته عن مواصلة الحرب التي شنّها على اليونانين . فتوجه الملك الشاب الى مصر وأخمد الثورة بمنتهى القسوة والضراوة. واضطرّ أيضا الى مواجهة ثورة ثانية اندلعت في عاصمة بابل. فقضى على البابليين الثائرين عليه. وهدّم اسوار المدينة. وأمر بإخراج صنم بال مردوك الذهبي من ناووسه داخل المعبد وأذابه ليرمز الى محو شخصيّة البابلين وإزالة طقوسهم الدينية التي تثبّت كيانهم كأمة لها حضارتها الضاربة في القدم وخصوصيتها. وأمر بأن يفسخ من بين ألقابه الرسمية لقب ملك بابل فأصبح يسمّى ملك الفرس والميديين فقط.

كان كسركسيس يتمنى أن ينقطع الى حياة الترف والبذخ التي كانت تميل اليها نفسه. وكان ذلك شأنه عندما كان أبوه ما سكا زمام الأمور وكان هو نائبا له في مدينة بابل. ولكنّ اليونانيين المنفيين من أوطانهم الذين انضموا الى حاشيته لم يفتأوا يحرضونه على أقوامهم. يقرر القيام بحملة ضدّ بلاد اليونان حتى يواصل

ما شرع فيه أبوه داريوس الكبير. فقضى أربع سنوات في حشد الجيوش من جميع أصقاع الامبراطورية وجمع العدة والعتاد.

وفي سنة 580 ق.م. انطلق كسركسيس في اتجاه البلاد اليونانية على رأس جيش عظيم يضمّ جنودا قدموا من ستّة وأربعين قطرا يقودهم تسعة وعشرون أميرا جميعهم من الفرس يساعدهم في قيادة ألوية الجيش ميديون وبابليون. وعبر الجيش مضيق الدردانيل على جسر من المراكب قام الفينيقيون بوضعه وربطه. وبعد أن توسّل ملك الفرس الى الآلهة ليباركوا الحملة وألقى في البحر تقربا لهم كوبا وسيفا وقوسا عبر الجيش البحر ودام عبوره سبعة أيّام وتدفق جيش فارس على إقليم طراقيا واحتله دون قتال كما استولى بعد ذلك على مقدونيا وتساليا بدون قتال أيضا. وخضع يونانيو المناطق الشمالية لملك الفرس. وزرع الذعر في قلوب سكان أثينة واقترح فريق منهم التفاوض مع ملك الفرس ولكن أغلب مواطني اثينة عقدوا العزم على الصمود والتصدي للغارة وتحالفوا مع إسبرتا والشعوب اليونانية الأخرى التي لم تطأ ارضها جنود الفرس وحشدوا الجيوش وجمعوا الأساطيل وقرروا أن ينتظر جيش الحلفاء بقيادة ليونيداس ملك إسبرتا في المنطقة الجبلية الوعرة التي تفصل إقليم تساليا عن أرض اليونان. وفي مضيق ثرموبولوي «الأبواب السخنة» وسمّي المضيق هكذا لوجود عيون معدنية سخنة في ذلك المكان. وحاول الفرس عبور المضيق مرّات دون نتيجة لضيق الممرّ وعلوّ الجبال التي اعتصم فيها اليونانيون. ولكن أحد الخونة اليونانيين الذي كان يصحب جيش الفرس دلّ كسركسيس على طريق جبلية تمكن من العبور وتطويق المدافعين عن المضيق. ولمّا فطن قائد جيش الحلفاء بالمكيدة أمر سائر المقاتلين اليونانيين بالانسحاب تاركا معه المقاتلين الاسبرتيين وكان عددهم ثلاثمائة رجل ليخوض مع ذويه من أهل مدينته معركة نيل المجد الأبدي. وقتل الاسبرتيون جميعا. وبقي مكان معركة ثرموبولي مكانا مقدسا ومزارا لليونانيين يؤمونه للترحم على من رضوا بالموت حتّى يخلد ذكرهم وتبقى أرض يونان حرة. وكتبوا على الضريح الذي وارى جثث القتلى : «أيّها الغريب اذهب وقل لمواطني إسبرتا انّنا مدفونون ها هنا وقد نفذّنا ما أمرنا به».

وانهال الجيش العظيم على إقليم أتّيكا كالسيل الجارف مقتّلا السكان ومحرقا المزارع ودخل مدينة أثينة التي جلا عنها سكّانها لاجئين الى جزيرة سلاميس فأحرقوا دورها ومعابدها.

وبقي أسطول الحلفاء يجوب في عرض البحر ليدافع عن شبه جزيرة البيلوبونيز وعن أسر الأثينيين التي نزلت بجزيرة سلاميس في الوقت الذي كان يقترب فيه الأسطول الفارسي من شواطىء أتّيكا. و التقى أسطول الفرس وأسطول الاثينيين والاسبرتيين وحلفائهم في المضيق الفاصل بين أتّيكا وجزيرة سالاميس. ودارت الدائرة على الفرس وهزم أسطولهم شر هزيمة رغم كثرة سفنه. وذلك بمرأى من كسركسيس الذي كان يشاهد المعركة وهو جالس على عرشه الذهبي المنصوب على الشاطىء.

وغضب كسركسيس لمّا شاهد فداحة الخسائر التي لحقت الأسطول فأمر بقطع رأس أمير البحر الفينيقي. فانسحبت السفن الفينيقية عائدة الى أوطانها وتبعتها في الانسحاب سفن مصر. وقرّر كسركسيس العودة الى فارس مع ثلثي جيشه تاركا الثلث الأخير بأرض اليونان بقيادة ماردونيوس. جرت تلك الأحداث سنة 480 ق.م.

وواصل ماردونيوس الحرب وأحرق مدينة أثينة مرّة ثانية. ولكن هزمه جيش الحلفاء في معركة جرت في بلاتايا من إقليم بويوتيا سنة 479 ق.م. وشاء القدر أن أحرق الأسطول اليوناني سفن الأسطول الفارسي التي كانت راسية تحت جبل موكالي بالأناضول مقابل جزيرة ساموس.

وهكذا إنتهت الحرب الميدية الثانية بانتصار اليونانيين وانسحاب الفرس عن القارة الأوربية.

واغتيل كسركسيس في قصره سنة 465 ق.م.

(88) **نبوكودونصر (605 ـــ 562 ق.م.)** كان سوكودونصر ملكا على بابل في القرن السادس قبل الميلاد. هو ابن نبولاسار والي بابل من قبل ملك أشور. وقد تحالف ذلك الوالي مع كوكساريس ملك ما داي للقضاء على امبراطورية الأشوريين. وحاصر الميديون والبابليون نينوى عاصمةالاشوريين التي تقع على دجلة قريبا من مدينة الموصل الحالية. وطال حصار عاصمة الأشوريين وشن الثوّار عليها حربا ضروسا لاهوادة فيها حتى دمّروها تدميرا وقتلوا ساكنيها واختفت العاصمة الأشورية نهائيا و لم تُبْنَ من جديد وذلك مدّة ألفين وخمسمائة سنة و لم يعثر على آثارها وكنورها الفنّية وألواحها التي كتب عليها تاريخ ملوك أشور الآفي العصر الحديث، ووقع ضمّ مواطن الأشوريين شمالي العراق الحالي الى أرض الكلدان التي تغطّي جنوب العراق الحالي. وكان نبولاسار أوّل ملك لمملكة جديدة ضمّت المنطقتين أطلق عليها المؤرّخون إسم المملكة الكلدانية ـــ الأشورية لامتزاج الشعبين الكلداني والأشوري مع انتقال العاصمة من نينوى علي دجلة الى بابل على الفرات.

ورد اسم نبوكودونصر في النقوش كما يأتي : « نبو. كدودور. أسور ». ويسمّيه المؤرخون العرب بختنصر

شارك أباه في الملك واحتلّ مدينة القدس مرّة أولى سنة 606 ق.م. في حياة أبيه وساق طائفة من سكّانها اليهود معه الى بابل وابرلهم بها وبقوا هناك منفيين مدّة سبعين سنة الى أن سقطت مدينة بابل في قبضة كورس الكبير ملك الفرس سنة 538 ق.م. فقد سمح لهم هذا الأخير بالعودة الى مدينة القدس.

وخلف نبوكودونصر أباه سنة 605 ق.م. ودام ملكه قرابة أربعين سنة قضاها في الحروب والغزوات لبسط نفوذه على سوريا وفلسطين الذين كانا في منطقة نفوذ فراعنة مصر.

كان ملوك بني إسرائيل حلفاء لمصر منذ عهد بعيد. وكان فراعنة مصر يعتبرون فلسطين ترسالهم يقيهم غارات الأشوريين ولما خلفت المملكة الأشورية مملكة كلدانية ـــ أشورية جديدة لها نفس القوة والضراوة والطموح حاولت مصر صدّها عن فلسطين وسوريا بجميع الوسائل. ولذلك هرع نخاو فرعون مصر الى سوريا بعد سقوط القدس في أيدي البابليين محاولا الاستيلاء على ذلك القطر حتي يحدّ من حركات البابليين التوسعية. فلاقاه نبوكودونصر وهزمه في معركة كركميش (605 ق.م.)

و لم تفتّ تلك الهزيمة في عزيمة المصريين فحرّضوا اليهود الباقين في فلسطين على الثورة. فثارت مدينة القدس من جديد على البابليين. فحاصرها نبوكودونصر مدّة سنة ونصف واحتلّها ودمّرها تدميرا (787 ق.م.) وساق مجموعة ثانية من سكّانها الى بابل ولحأ من لم يقع في الأسر من اليهود الى مصر.

و لم يقنع نبوكودونصر بالاستيلاء على مدينة القدس وفلسطين بل والى الغزوات للاستيلاء على جميع مناطق سوريا وفنيقيا. ودانت كامل مناطق سوريا لملك بابل و لم تقاومه من مدن الساحل السوريّ الاّ مدينة صور التي حاصرها مدّة ثلاث عشرة سنة و لم يقدر على احتلالها عنوة فعقد معها معاهدة صلح سنة 573 ق.م.

(89) **برسيبوليس** : معناها باليونانية « مدينة الفرس ». هي مدينة فارسية قديمة تقع قرب اصطخر في إقليم فارس. بناها داريوس الكبير في أواخر القرن السادس قبل الميلاد. ووسّعها ابنه كسركسيس. وكانت تسمّى بالفارسية القديمة « بارسا ». ومازالت آثارها قائمة الى اليوم يزورها الزائرون وإذ لم يبق منها إلاّ أطلال القصر الملكي. وقد أحرقها الاسكندر المقدوني سنة 331 ق.م. ليثأر لإحراق أثينة من طرف كسركسيس سنة 480 ق م.

تحمل سقف قاعة العرش أعمدة طولها عشرون مترا تعلوها تيجان طولها متران نحتت عليها صدور ثيران برؤوسها وتعوّض رؤوس الثيران أحيانا رؤوس بشرية ركّبت على صدور الثيران. وتغطّي الجدران

نقوش بارزة تمثّل قدوم وفود شعوب المملكة من فرس وميديين ومصريين وفينيقيين وعرب قادمة بالجزية والهدايا الى الملك الجالس على العرش.

(90) **داريوس الكبير (522 — 486 ق.م.) خلف داريوس قمبيز بن كورس (529 — 522 ق.م.)** فاتح مصر. كان داريوس أحد أقارب الملك قمبيز وأمير الحرس الملكي. اعتلى عرش فارس في ظروف صعبة استطاع التغلّب عليها بعزيمته الصمّاء وذكائه المفرط.

عندما كان قمبيز متوغلا في الأراضي المصرية ظهر دعيّ في فارس واستولى على العرش بعد أن قتل أخا قمبيز الوصيّ على العرش خفية وتسمّى باسمه لشدّة الشبه بين الرجلين. ولما أتى نبأ ذلك الانقلاب قرر قمبيز العودة الى فارس ومات في الطريق ولم يكن له ولد. ولم يؤيّد الجيش الدعيّ رغم الشعبية الواسعة التي كان يتمتّع بها وقد أعفى الناس من الضرائب لمدّة ثلاث سنوات. وترأس داريوس مجموعة من ضباط الجيش عزمت على قتل الدعيّ والإطاحة بالنظام الجديد غير الشرعي. وبادر داريوس باتخاذ تدابير حازمة أدّت بعد شهرين فقط الى القبض على الدعيّ وقتله ولكنّه قضى سنتين كاملتين في قمع الثورات التي اندلعت في أقاليم المملكة حتى رجع الهدوء الى نصابه واستقرّت الأوضاع.

كان داريوس من أسرة الاخمينيين المالكة. وكان أبوه هوستاسبوس العضد الأيمن لكورس الكبير مؤسس امبراطورية الفرس. عيّنه مرزبانا (واليا) على اقليم ماداي الذي يعدّه كورس اهمّ إقليم في امبراطوريته بعد أقليم فارس وأضاف له الولاية على إقليمي هوركانيا على الساحل الجنوبي من بحر قزوين وبارثيا في أواسط فارس.

كان داريوس ملكا عظيما. أمّن المملكة كلّها بعد الإنتفاضات الخطيرة التي شهدتها. وأعاد تنظيم شؤونها على أسس جديدة لتفادي الجوانب السلبية التي اشتملت عليها تنظيمات كورس الكبير. لقد كانت تنظيمات هذا الأخير مستوحاة من روحه التحرّرية ومن إيمانهباللامركزية في الحكم. فقد ترك كلّ الشعوب الخاضعة لسلطانه تسيّر شؤونها واكتفى بأن قسّم الامبراطورية الى اثنتي عشرة ولاية يسهر على شؤون كلّ واحدة منها وال فارسي. فهذه التنظيمات شجّعت النوايا الانفصالية عند الشعوب ودفعت الولاة الفرس في الأقاليم الى الطمع في الاستقلال بالنفوذ. وقد كانت الانتفاضات التي أوشكت أن تودي بالمملكة الفارسية في آخر عهد قمبيز درسا وعبرة لداريوس. ولذلك فرض داريوس نظاما جديدا يعتمد التركيز الشديد على شخصية الملك. فجميع الأمور تعود إليه مهما كان المكان الذي يوجد فيه وجميع الأوامر تصدر عنه وتنفّذ ويراقب تنفيذها ويُبلّغ الملك بأقصى ما يكون من السرعة بواسطة بريد محكم نظمت مسالكه ومحطاته. وجعل بجانب كلّ وال مدني فارسي قائدا فارسيا أيضا يعود اليه أمر الحامية وجعل بجانبه صاحب خراج يجمع الضرائب الموظّفة ويرسلها مباشرة الى خزينة الملك. ودعّم هذا التنظيم المعتمد على توزيع مسؤوليات الحكم بإنشاء دائرة مراقبة ترسل الى الأقاليم موظفين كان يسمّيهم المؤرخ اليوناني كسينوفون « آذان الملك وعيونه » فعين الملك موظف جوّال يقوم باسم الملك بمراقبة جميع المصالح الادارية وأُذُنُ الملك يراقب مصالح الشرطة والمخابرات.

كان داريوس يخشى غزوات القبائل المتهمّجة التي كانت تتحرك في طراقيا وسهول الدانوب وسهول روسيا الجنوبية وتعبر أحيانا القوقاز محاولة الاستيطان في فارس. وكانت حماية حدوده الشمالية شغله الشاغل ولذلك عبر البحر عن طريق مضيق الدردانيل سنة 512 ق.م. لمحاربة قبائل طراقيا وسكوثيا. ولكنّ قبائل سكوثيا أعجزته لانّها أتاهته وجيشه في سهول روسيا الجنوبية فأجبر على العودة الى آسيا.

وفي سنة 498 ق.م. منح امتيازات تجارية لمصر ولمدينة صور فأثار ثائرة المدن اليونانية الواقعة على ساحل الأناضول فانتفضت عليه وحاصرت مدينة سرديس من إقليم ليديا حيث كان يقيم الوالي الفارسي.

وصمدت الحامية الفارسية في قلعة المدينة. ولكنّ اليونانيين الثائرين على ملك فارس ارتكبوا زلّة عظيمة عندما عمدوا الى احراق معبد كوبالا إلهة المدينة. فثار عليهم سكّان سرديس الذين ساعدوهم في أوّل الأمر وهزموهم. وكان ذلك في سنة 498 ق.م. وكانت تلك الثورة اليونانية الشرارة التي أشعلت ما يسمّى بالحروب الميدية بين الفرس واليونان.

هجم الجيش الفارسي بقيادة داريوس على المدن اليونانية في إقليم إيونيا فأخضعهما دون قتال. وقاومته مدينة واحدة ميليتوس. فدمّرها واسّر جميع سكّانها (494 ق.م.). وحيث أنّ ثورة إقليم إيونيا قد ساندها يونانيو اروبا قرّر داريوس محاربتهم. فعبر البحر عن طريق مضيق الدردانيل واحتّل طراقيا ومقدونيا سنة 492 ق.م. ولكن كان هدفه الرئيسي لإذلال اليونانيين اخضاع مدينة أثينة التي بدأت تتزعّم اليونانيين قاطبة. فتوجّه الى إقليم أتّيكا بجيش عظيم حمله الأسطول وانزل جانبا من جيشه في سهل ماراثون الذي يقع شرقي أثينة. فانطلق نحوه جيش صغير من الأثينيين؛ ولم ينتظروا قدوم الاسبارتيين وقاوموا جنود الفرس بحماس وبسالة نادرة حتّى هزموهم واجبروا فلو لهم على العودة الى سفن الأسطول. وانسحب داريوس ولم يواصل الحرب ضد اليونانيين بسبب قيام ثورة عارمة في مصر أجبر على مواجهتها بغاية السرعة وباقصى الحزم.

جرت معركة ماراثون سنة 490 ق.م. وتوفّي داريوس سنة 486 ق.م. تاركا ثورة مصر لم تخمد.

(91) **إكبتانا** : مدينة من إقليم ماداي (إقليم الجبل) في إيران. وتسمّى منذ العهد الاسلامي همذان. كانت عاصمة للميديين في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. واستولى عليها كورس الكبير ملك الفرس ومؤسّس الدولة الاخمينية سنة 555 ق.م. ووحّد كورس بين الفرس وبني أعمامهم الميديين وسمّى نفسه بملك الفرس والميديين. واتّخذ كورس اكبتانا عاصمة صيفيّة له بجانب عاصمة باسرقاديس مهد أسرته وعاصمة السوس في إقليم إيلام. وحافظت اكبتانا على منزلتها كعاصمة من عواصم الامبراطورية الفارسية طوال عهد الأسرة الملكية الأخمينية الى أن فتحها الاسكندر.

اشتهرت إكبتانا بكنوز عظيمة ادّخرها هنالك ملوك فارس أثارت إعجاب الاسكندر لمّا دخلها. كما كان يضرب المثل بثراء سكّانها ومبانيها الضخمة التي استخدمت فيها بوفرة أخشاب السرو والأرز وبقصورها التي جلّلت سطوحها بصفائح الذهب والفضّة.

تحيط بالمدينة سبعة اسوار بعدد السموات السبع طبقا لعقائد الميديين. ويقع قصر الملك في قلب المدينة وراء السور السابع وهو كالشمس تحيط بها من كلّ جانب طبقات السماء السبع. واسوار المدينة تعلوها شرفات مختلفة الألوان كلّ لون يرمز الى سماء بعينها. وهي كالآتي من السور الخارجي الى السور الداخلي الذي يحيط بقصر الملك. فحجارة شرفات السور الأول بيضاء تليها شرفات سوداء فحمراء فزرقاء فبنّية. أما شرفات السور السادس فهي مغطاة بصفائح الفضة. وأمّا شرفات السور السابع الذي يحيط بقصر الملك فهي مغطاة بصفائح الذهب.

(92) **بسّوس** : هو ابن عمّ الملك داريوس الثالث ومرزبان إقليم باكتريانا (خراسان).

(93) **جبل ألمبوس** : جبل عظيم يفصل إقليم تساليا عن إقليم مقدونيا. وهو حسب العقائد اليونانية منزل الآلهة.

(94) **باسرقاديس** : اسّس كورس الكبير مدينة ملكية في مكان المعركة الفاصلة التي هزم فيها جدّه للأمّ إستواقيس ملك الميديين. وسمّاها باسرقاديس ومعناها : « معسكر الفرس ». ونحن نعلم أنّه اختار مدينة السوس في إقليم إيلام (خورستان) عاصمة له في البداية ثمّ أضاف إليها عاصمة ثانية وهي اكبتانا (همذان) العاصمة القديمة للميديين ثمّ مدينة بابل بعد فتحها. ولكنّ باسرقاديس كانت مدينته الخاصّة المفضّلة. وقد بنى فيها القصور والمعابد بين الحدائق والبساتين. وكان ملوك الفرس جميعا يتوّجون في باسرقاديس.

(95) **القوقاز الهندي** : هو سلسلة جبال الهندوكوش.

(96) **كورش الكبير** (559 ـ 529 ق م) ويسمّى بالعربية قورش. هو مؤسّس الأمبراطورية الفارسية الأخمينية التي دامت أكثر من قرنين من منتصف القرن السادس قبل الميلاد الى عهد الاسكندر المقدوني في الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد. دام ملكه عشرين سنة وهزم الميديين بعد حروب دامت ثلاث سنوات. وسقطت عاصمتهم إكبتانا في قبضته سنة 555 ق.ب. وضمّ مملكة الميديين المهزومين الى مملكة الفرس وعامل المديين المهزومين معاملة حسنة وأبقى ولاتهم وموظفيهم في مناصبهم. واتخذ إكبتانا عاصمة ثانية له يقيم بها في الصيف. ويقيم في الشتاء بعاصمة السوس. وبعد ثلاث سنوات توجّه غربا للاستيلاء على مملكة ليديا بالأناضول التي كانت مشهورة بثرائها العظيم فالأموال الضخمة التي تكدّست في سرديس عاصمة مملكة ليديا آتية من استغلال رمال نهر باكتولوس المحمّلة بمعدن الذهب ومن المكوس التي كان يفرضها ملك ـ ليديا على البضائع التي تسلك إحدى الطرق التجارية الهامّة التي كانت تصل الهند وشرق آسيا بالبحر الأبيض المتوسط مرورا على بابل. واحتل كورش سرديس وأسّر ملك ليديا كريسوس (قارون) واستولى على كنوزه. وان تلك الكمّيات الضخمة من الذهب التي سقطت في قبضة كورش قد ساعدته أيّما مساعدة على مواصلة فتوحاته وكانت النواة لتلك الثروة الهائلة التي اشتهرت بها فارس مدّة قرنين ونيف ومكّنت ملوكها من حشد الجيوش وتجميع المرتزقة من شعوب مختلفة وحتى من الشعوب اليونانية وتغطية مملكة فارس والأقطار الأجنبيّة بشبكة من العيون والجواسيس ووضع نظام محكم للبريد يوصل الأوامر والأنباء بسرعة لم يعهد لها مثيل في العالم القديم.

وعرض كورش الأمان على المدن اليونانية الواقعة على ساحل الأناضول والتي كانت تدين بالولاء لمملكة ليديا مستفيدة بازدهارها الاقتصادي العظيم وثروتها الطائلة. وأوكل لقادة بعض فيالق من جيشه مهمّة فتح تلك المدن وانزل حاميات فارسية بها. فرفضت جميعا أمان الملك ماعدا واحدة وهي ميليتوس. فأمر قادة الجيش الفارسي الذين عهد اليهم مواصلة العمليات الحربية في الأناضول على فتحها عنوة الواحدة بعد الأخرى.

وقضى كورش ثماني سنوات يوالي الغزوات لتوسيع مملكته من ناحية الشرق. فبدأ بفتح إقليمي هيركانيا وبارثيا الذين كانا تابعين لمملكة ماداي. ثم استولى على اقليم أراخوسيا وباكتريانا وعبر نهر سيحون (أموداريا) وجعل من نهر جيحون (سيرداريا) حدا أقصى لمملكته من ناحية الشرق.

وأحسّ عند ذلك بأنّه أتى دور بلاد الكلدان فتوجه الى مدينة بابل العظيمة فاحتلّها دون عناء لأن أهلها استقبلوه بحفاوة ولم يدافعوا عن أنفسهم وقد ضاقوا ذرعا من تصرفات ملكهم السيئة. كان ذلك سنة 538 ق.م. وعامل كورش البابليين بالحسنى وأمر باعادة بناء معابدهم التي دمّرها ملكهم. وأعاد أسرى اليهود الذين سيق بهم الى بابل الى أوطانهم.

وقضى كورش ثماني سنوات (من 538 الى 530 ق.م.) في تنظيم مملكته الشاسعة. ولكنّه أجبر في آخر عهده على التوجه بجيشه الى الحدود الشرقية التي كانت تهدّدها قبائل بدوية متهمّجة شرسة تقطن بأواسط آسيا. وقتل كورش في سباسب آسيا الوسطى وكان عمره آنذاك واحدا وسبعين سنة. وعاد صحبه بجثمانه الى عاصمة باسرقاديس حيث أقيم له ضريح مازال ماثلا الى اليوم.

لم يكن كورش الكبير ملكا جبارا ولا طاغية سفّاحا بل كان ملكا عادلا احترم أديان الشعوب التي فرض عليها سلطانه وأبقى الحكام في مناصبهم وترك كل شعب يسيّر شؤونه بنفسه حسب تقاليده يقول عنه الشاعر اليوناني ايسخيلوس : «لم ينقم عليه القدر لأنّه كان ملكا حكيما» ويعدّه أرسطوطاليس من بين محرّري البشر.

(97) **أبلّون** : هو إله النّور عند اليونانيين. يقرن اسمه بالشمس. فهو الذي يسيّرها في تطوافها حول الأرض. هو ابن زيوس كبير الآلهة من امرأة اسمها ليتو لاحقتها غيرة الإلهة هيرا زوجه زيوس الشرعية فطافت في الأرض حتى انتهت الى جزيرة ديلوس اليونانية فوضعت هنالك أبلّون إله الشمس وأخته التوأم أرتيميس إلهة القمر.

يحمل أبلّون القوس ويرسل سهامه فيصيب البشر بالأمراض والأوبئة. ولكنّه قادر في نفس الوقت على علاج المرضى. فهو إله التطبيب أيضا. وأبلّون إله فنّان أيضا يحمي الشعراء والموسيقيين ويعزف على القيثار. وله اختصاص آخر فائق الأهميّة فهو إله النبوءات وصاحب الغيب. يزور الحجيج معبده بمدينة دلفي لطرح أسئلة على كاهنته.

(98) **نهر السند** : يسمّى اليوم نهر هندوس. وكان اسمه القديم باللغة السنسكريتية «سندهو» ومنه اشتقّ العرب تسميته بنهر السند. هو نهر من أنهار آسيا الجنوبية. طوله ثلاثة آلاف وأربعون كيلومترا. ينبع من جبل كايلاس في إقليم التّبت. ويجري في هضاب ذلك الاقليم في اتّجاه شمالي غربيّ حتى يصل الى اقليم كشمير وهنالك يتّجه نحو الجنوب. وعندما يشقّ المنطقة العربية من الباكستان ينصبّ فيه نهر كابل الآتي من افغانستان. ثم يشقّ إقليم سجاب وهنالك تنصب فيه خمسة أنهار وهي ستلاج وبياس وراوي وشناب وجهالوم (هوداسبيس). وقد سمّي إقليم سجاب بهذا الاسم لأنّه إقليم تسيل فيه خمسة أنهار جميعها روافد لنهر السند. ويعبر عن عدد خمسة بالفارسية بلفظ سج. ثم يجري نهر السند على أطراف صحراء ثار ويشقّ مقاطعتي قطري وحيدرآباد وينصبّ في بحر عمان بعد أن يتفرّع الى فروع عديدة تغطّي مساحة من الأرض قدرها ثمانية آلاف كيلومتر مربع. وتقع مدينة كاراشتي على الفرع الغربيّ من نهر السند.

وقد انحدر الاسكندر بأسطوله في نهر هوداسبيس ثم نهر السند ولما وصل الى مصبّ نهر السند في بحر عمان اندهش عندما شاهد وجنوده المدّ والجزر لأول مرّة.

(99) **بوروس** : هو الملك الهنديّ الذي أعلن الحرب على الاسكندر لما انتهى وجيشه الى إقليم البنجاب. ولم يصنع مثل منافسه ملك تاكسيلا الذي فضّل المهادنة مع الاسكندر ومدّ يد المساعدة له آملا أن يقصي الاسكندر على عدوّه الملك بوروس.

التقى جيش الملك بوروس العظيم المعزز بثلاثمائة فيل سنة 326 ق.م. مع جيش الاسكندر على ضفّة نهر هوداسبيس ودارت بينهما معركة طاحنة سميت «بمعركة الفيلة» كانت الغلبة فيها للاسكندر. وسقط بوروس مثخنا بالجراح وأسرّ وقدم الى الاسكندر. فسأله كيف يتمنى أن يعامله من غلب فقال : عاملني معاملة الملوك فقال الاسكندر : وهل تضيف شيئا آخر ؟ فقال : كل ما أريده تتضمّنه هذه الكلمة. روى هذه القصّة المؤرّخ اليونانيّ بلوتارخوس. وأعجب الاسكندر بأنفة ذلك الملك فأعاد له ملكه وجعل منه حليفا له. وربّما أراد بذلك الصنيع ــ وهو ينوي مواصلة فتح الهند لولا إحجام جنوده عن مواصلة المسيرة ــ أن يستميل القلوب اذا انتشر خبر حلمه وأريحيّته في الاصقاع وأن يحافظ في المنطقة التي فتحها على تعادل القوى بين الملكين الهنديين ملك تاكسيلا وبوروس حتّى لا يناهضه أحدهما خشية ردّ فعل الآخر.

(100) **هوداسبيس** : هو أحد الأنهار الخمسة التي تنصبّ في نهر السند عندما يشق إقليم بنجاب. ويسمى اليوم جهالوم. عبره الاسكندر في شهر يونيو من سنة 326 ق.م. في فصل فيضانه وهزم على ضفّته الملك الهندي بوروس

(101) **بوكيفاليا** : مدينة أسسها الاسكندر على ضفة الهوداسبيس قريبا من القبر الذي دفن فيه حصانه بوكيفالوس.

(102) **عمودا هراكليس** : هو الاسم اليوناني القديم الذي كان يطلق على الجبلين الصخريين جبل طارق وجبل سنة الذين يمرّ بينهما خليج جبل طارق الذي يصل بين المحيط الاطلسي والبحر الأبيض المتوسط. تدّعي

الأساطير اليونانية أن البطل اليوناني هراكليس حفر الخليج ووضع على ضفّتيه عمودين هما الجبلان المذكوران فسميّا بعمودي هراكليس

(103) **أوديسوس** . أحد أبطال ملحمة الإلياذة والبطل الرئيسي لملحمة الأوديسا كان ملكا على جزيرة إثاكي التي تقع في البحر الايوني جنوبي جزيرة كرفو الحالية وكان ذكيّا فطنا واشتهر بروزه ودهائه حتى كان هوميروس يسميه «البطل ذو الألف حيلة». يبدي بالرأي الصائب في أكثر من مناسبة وإليه تعود دائما تهيئة المكائد ونصب الكمائن للعدوّ أثناء حرب طروادة وهو الذي دبّر مكيدة الحصان الخشبي الذي اختفى في بطنه مقاتلون يونانيون وجرّه الطرواديون داخل مدينة إليون. فكان دخول ذلك الحصان الخشبي الى المدينة سببا لسقوطها لأن المقاتلين المختفين في بطنه خرجوا ليلا وفتحوا أبواب المدينة فدخلها اليونانيون وبيّتوا أهلها.

(104) **نيكيا** : مدينة أمر الاسكندر ببنائها بالقرب من بوكيفاليا.

(105) **قدروسيا** : ولاية من ولايات الامبراطورية الفارسية كانت تقع شمالي الخليج وشرقي إقليم كرمانيا وجنوبي إقليم أراخوسيا. وتغطي هذه الولاية الفارسية القديمة اليوم إقليم مكران وجانبا من اقليم بلوشستان

(106) **بيثونيا** . إقليم في آسيا الصغرى يقع على ساحل البحر الأسود والبوسفور

(107) **بتاله** . مدينة في إقليم السند

(108) **قورينا** . مدينة يونانية قديمة (كانت تسّمى باليونانية كوربنا) أسسها في منطقة برقة بليبيا الحالية سنة 631 ق.م. مهاجرون من جزيرة ثيرا اليونانية (سانتورين الحالية).

(109) **ديونيسوس** : هو إله الكروم والخمر. ويسمّى أيضا باخوس كان في البداية إلها طراقيّا انتشرت عبادته في البلاد اليونانية ولم يفسح له مكان بين آلهة الأولمبس كان يدعو الى النشوة وإثارة كوامن النفس والتوحد الصوفيّ الذي ينتهي بالاتحاد مع ذاته الالهية في حالات تشبه الهوس وذلك بالسكر والعربدة وإقامة الطقوس التهتّكية الصاخبة المعتمدة على الضرب على الطبلات والنفخ في المزامير وكان ديونيسوس يمثّل في صورة شابّ وسيم سكران متوّج بأوراق الكرم يركب عربة تجرها النمور يتبعه شيخ أصلع سكران أيضا يركب حمارا وهو صاحبه الشيخ سليوس ويتبع ركبه جماعة من النسوة الراقصات الصاخبات. وكان كلّما مرّ بقطر أثار فيه موجة من الصخب والوجد الصوفي طاف في الأرض وقيل إنّه وصل في تطوافه الى الهند

(110) **تلانتون** : كمية من المال كان يثبتها اليونانيون في حساباتهم تساوي في أثينة ستة آلاف دراخما فضيّة والدراخما عملة فضيّة أثينية تزن أربعة غرامات ونيفا من الفضّة وتقدر هذه الكمية من النقود ستة وعشرين كيلوغراما من الفضة. وقد يكون التالنتون مقياسا للعملة الذهبية فيكون مقداره في هذه الحالة ستة وعشرين كيلوغراما من الذهب ونحن نعلم أن الاسكندر ورث عن أبيه العملة الذهبية التي بدأ بضربها منذ استولى على مناجم ذهب اقليم طراقيا. ونعلم أيضا انه استولى على قناطير من الذهب في كنوز ملوك فارس المودعة في عاصمتي السوس واكبتانا.

(111) **السلتيون** : ويسميهم اليونانيون كلتوي. وهم ينتمون الى شعب مميّز كان يقطن في عهد الاسكندر في رقعة واسعة من أوربا الغربية تمتدّ من بريطانيا الى شمالي ايطاليا واسبانيا وفرنسا

(112) **الايباريون** . أو الايبريون ينتمون الى مجموعة شعوب حل معظمها باسبانيا فسمّيت بشبه الجزيرة الايبرية وكان قسم من تلك الشعوب يقطن بعض جهات من بريطانيا وإيطاليا.
تأثر الايباريون بالفينيقيين واليونانيين الذين أنشأوا مستعمرات في جنوب اسبانيا وفرنسا وكانوا يحاربون دائما جيرانهم السلتيين

(113) **بحر قزوين** . بحر محصورة حدوده ليس له اتصال مع أي بحر آخر يفصل بين آسيا وأوربا يمتد من الشمال

الى الجنوب وله شكل مستطيل. تحيط به أقاليم القوقاز وكزاخستان وتركمانستان وإيران. مساحته أربعمائة وأربعة وعشرين ألف كيلومتر مربّع. ينصب فيه نهر الفولقا.

كان يسميه جغرافيو العرب أيضا بحر الخزر، وكان اسمه باليونانية «كاسبيون بيلاقوس» أي بحر الكاسبيان.

(114) **الاله بال** : هو الاله مردوك الذي كان يعبده الكلدان في مدينة بابل. وقد اشتبه أمر تسميته على بعض القدامى فظنوا أن اسم إله بابل هو بال في حين أن بال معناها المولى وكانت تضاف عند الابتهال بالاله مردوك الى اسمه فيقال بال مردوك ومعناه المولى مردوك.

(115) **هرموديوس ــ أرسطوقيتون ــ هبارخوس** : حاك هرموديوس مع أرسطوقيتون سنة 514 ق.م. مؤامرة هدفها اغتيال هبياس بن بيسستراتوس طاغية مدينة أثينة. وعندما ظنّا أن أمرهما قد كشف قتلا أول رجل من أسرة بيسستراتوس اعترضهما. وكان ذلك الرجل هبارخوس. فقبض عليهما. وأعدم هرموديوس وبالغوا في تعذيب شريكه في المؤامرة أرسطوقيتون.

ولمّا أطاح الأثينيون بنظام الطغاة التعسفي وأبدلوه بنظام جمهوري مجّدوا ذكرى هرموديوس وأرسطوقيتون وعدّوهما من بين شهداء الحريّة.

(116) **أورانوس** : هو إله السماء وهو ربّ قديم عند اليونانيين سبق عهد آلهة الأولمبوس الذين استقرّوا بذلك الجبل تحت إمرة زيوس.

(117) **دلفي** : بلدة مقدسة في إقليم فوكيس الواقع في المنطقة الوسطى من بلاد اليونان. وإقليم فوكيس هذا يحتلّ شريطا من خليج كورنثة والوادي الأعلى على ضفتي نهر كيفيسوس وسلسلة جبال برناسوس.

وبنيت بلدة دلفي على السفح الجنوبي الغربي من جبل برناسوس وفيها مركز نبوءة الاله أبلّون. وكانت لذلك المعبد شهرة واسعة في جميع الأقطار اليونانية يأتيه الزوّار من كل مكان لطرح أسئلتهم على الاله أبلّون إله النبوءات. وكان زعماء اليونانيين وقادتهم يقصدونه أو يرسلون إليه وفودا لاستشارة الاله في الأمور المهمّة التي تحتاج الى اتّخاذ القرار المناسب كما يؤمّ المعبد رجال ونساء من جميع طبقات الشعب لطرح مشاكلهم راجين اشارة أو توجيها لمواجهة ما هو غائب عنهم .قد سئلت كاهنة أبلّون في دلفي عن سقراط كما قصدها الاسكندر المقدوني قبل القيام بغزاته الكبرى.

وقد حجبت شهرة مركز دلفي شهرة المراكز الأخرى المشابهة له في الوظيفة مثل مركز نبوءة الاله زيوس بدودونا. وتكدست في معبد أبلّون البدور الثمينة والكنوز حتى أثارت أطماع بعضهم رغم أنّ المعبد وكامل المنطقة المحيطة به كانت منطقة حراما ووقفا على الاله أبلّون.

كان يوجد في وسط المعبد حجر مقدس في شكل سرّة الانسان (أمفالوس باللغة اليونانية). وكانت كاهنة أبلّون المختصة بكشف الغيب على لسان الاله والمسماة «بيثيا» تجلس بذلك المكان على مقعد ذي ثلاثة قوائم وتجيب عن أسئلة السائلين بكلام مبهم وهي في حالة اضطراب شديد يشبه الهوس. وكان هناك كهنة يقومون بتبليغ أسئلة الزوار وتفسير كلام البيثيا وتسجيله بكلام منظوم يحتمل تأويلات مختلفة.

وقد كانت البيثيا تسأل عن مختلف المشاكل الشخصية كالصفقات التّجارية والزواج وأسباب العقم كما كانت تفد عليها وفود رسمية من المدن اليونانية تسألها عن جدوى سياسة متبعة أو تستشيرها عن المكان الذي اختارته خارج البلاد اليونانية لتأسيس مستعمرة جديدة ترسل اليها مجموعة من مواطنيها ضاقت بهم سبل العيش في موطنهم.

وقد اتّهم قديما كهنة دلفي بتزوير النبوءات والتحيّز لأنظمة سياسية معيّنة والتورّط في مناورات سياسية.

(118) **أنتيباتروس** (397 ــ 319 ق م) كان العضد الأيمن لفيلبوس الثاني ملك مقدونيا ولابنه الاسكندر الكبير من بعده. وكلّفه الاسكندر بأن ينوب عنه في تسيير شؤون مملكة مقدونيا عندما غادرها للقيام

بفتوحاته. وحافظ على ذلك المنصب طوال المدة التي قضاها الاسكندر غائبا عن مقدونيا. وعندما توفي الاسكندر سنة 323 ق.م واقتسم مملكته قواد جيشه كانت مقدونيا والأراضي اليونانية الواقعة في أوروبا نصيب أنتيباتروس. وأرغم هذا الأخير في السنوات القليلة التي عاشها بعد موت الاسكندر على محاربة اليونانيين الذين شقّوا عصا الطاعة بتحريض من الخطيب والزّعيم الأثيني ديموسثينيس الذي ظنّ أن الظروف أصبحت مواتية ليتحرر اليونانيون جميعا من نيّر المقدونيين بعد موت البطل العظيم الذي استطاع أن يخضعهم ويشركهم في حملته الكبرى. ولكن أنتيباتروس قدر على إخماد جميع الثورات التي اندلعت في الأقطار اليونانية. وسمّ ديموسثينيس نفسه لمّا حاصره جنود أنتيباتروس وهو لاجىء في معبد بوسيدون في جزيرة كالوريا.

(119) **روكسانا** : احدى زوجات الاسكندر وأقربها الى نفسه. سباها سنة 327 ق.م. عندما أسّر أباها أوكسيارتيس والي مقاطعة باكتريانا (خراسان) بعد حروب طويلة وضارية أبلى فيها ذلك المرزبان الفارسي البلاء الحسن. وربما كان ذلك الزواج من أميرة تنتمي الى أسرة فارسية ماجدة طريقة لاستمالة قلوب الفرس في الفترة بالذات التي كان يريد فيها الاسكندر أن يؤلّف بين قلوب الفرس واليونانيين ويسوّي بينهم

ولدت روكسانا للاسكندر ابنا وضعته بعد موت أبيه وسمّي الاسكندر الرابع أيقوس. وحاول برديكاس أحد قواد الاسكندر الاقربين أن يعرضه كخليفة لابيه والصبيّ مازال في المهد ولكنّه أخفق في محاولاته واغتيل سنة 321 ق.م. وقتلت روكسانا في مدينة بودنا بمقدونيا سنة 316 ق.م. قتلها كاسندروس عندما استولى على مقدونيا والبلاد اليونانية.

(120) **إخور** : يحدث للآلهة أن يشاركوا في الحروب الى جانب البشر ويحدث لهم أيضا أن يتقاتلوا. هذا ما كان يعتقد اليونانيون القدامى. وفي الالياذة مشاهد نرى فيها الآلهة يقاتلون الى جانب هذا الفريق أو ذاك أو نراهم يتصادمون شاهرين السلاح على بعضهم وقد تقمصوا أجسادا بشرية. انهم لا يخشون الموت لانهم خالدون ولكن يجرحون ويتألمون ويسيل من جراحهم سائل يسمّى إخور .

(121) **نيبال** : إقليم يقع شمالي الهند. مساحته مائة وأربعون ألف كيلومتر مربع وهو مجاور لإقليم التيبّت من ناحية الجنوب.

(122) **التبّت** : إقليم يقع في أواسط آسيا مساحته مليون ومائتان وخمسة عشر كيلومتر مربع يتكون من هضاب مرتفعة قاحلة وجبال عالية تتجاوز دائما في ارتفاعها ثلاثة آلاف متر فوق سطح البحر. تشرف على إقليم التبّت من ناحية الجنوب جبال حملايا الشاهقة. هذا الاقليم تابع اليوم للصين.

(123) **المنتخب الشعري الاسكندراني البلاطيني** : مؤلف قديم يحتوي على مجموعة من القطع الشعرية اليونانية القصيرة قام باختيارها وجمعها علماء من بيزنطة عاشوا ما بين القرن العاشر والقرن الرابع عشر الميلاديين وان أحسن نسخة لهذا المنتخب وقع تحقيقها اعتمادا على مخطوطة عثر عليها سنة 1616 العالم الفرنسي سوميز بالمدينة الجامعية الألمانية هيدلبرق وبمكتبة أمراء مقاطعة بالاطينا الألمانية. فسمي المنتخب الشعري باسم تلك المقاطعة.

(124) **سكيوني** مدينة يونانية قديمة كانت في إقليم طراقيا

(125) **تاكسيلا** : موقع أثري فيه أطلال مدينة قديمة وتقع تلك الآثار شمال غربيّ مدينة بشاور باكستان كانت تلك المدينة في العهود القديمة مركزا علميّا شهيرا ومعقلا من معاقل الديانة البوذية

الفهرس

الطبعـــة الأولى

طبع بمطبعة الشركة التونسية للتوزيع
شـــارع 20 مــارس
باب سعدون ـ تونس
CP 10/10/88
نوفمبر 1989

نسطور ماتساس

كاتب ومخرج سينمائي إغريقي معاصر . نشر عشرين كتابا ترجمت إلى عدّة لغات وأخرج أفلاما ثقافية . وأحرز في بلده على الجائزة الوطنية للآداب كما منحته أكاديمية أثينة جائزتها عن مجموع إنتاجه

مذكرات الإسكندر الكبير

تخيّل الكاتب أنّ الإسكندر ربّما دفع في يوم من الأيّام وفي أشدّ حالات المرض والحيرة إلى كتابة مذكّرات شخصيّة قد يعود إليها وحده وهي في جميع الحالات غير معدّة لأن يطّلع عليها غيره . وادّعى نسطور ماتساس أنّه عثر أثناء زيارته لأطلال مدينة بابل على مخطوط للإسكندر أهداه إياه حارس المدينة . ولا شكّ أن هذا المخطوط لم يوجد ولم يستند الكاتب ولكنّ ادّعاءه هذا ضرب من التشويق تنمّيه تعليقاته على المخطوط وذكره للمدن القديمة والمواقع التي زارها في آسيا وهو يسير على خطى الإسكندر.

ISBN 9973 - 11 - 156 - 7

الشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج — تونس

السعر : 3.500 د.ت.
أو ما يعادله